رواية

رباعية بحري

البوصيري

محمد جبريل



ربـــاعـــيـــة بحـــرى

رواية

محمد جبريـــل

البـوصـيرى

اسكندرية بلاط حمام ع المالح هى الحليوة وفيها الحلو
والمالح **من**
مواويل الصيادين

ايقاع فعل الموت

اختار كرسياً فى زاوية الرصيف ، وجلس ..

كانت هذه هى المرة الأولى التى يجلس فيها على قهوة . انتظر فى قهاوى من قبل ، وجالس أناساً ، وأنهى أعمالاً تتصل بالعمل ، أو بالبيت ، لكنه لم يجلس إلى أصدقاء ، ولا لإزجاء الوقت ..

أغلق كتاباً فى الصوفية قبل أن يتم قراءته ، وأطل من النافذة المطلة على سيدى البوصيرى . لاحظ كشكا جديداً للسجائر على ناصية الطريق المفضى الى الميدان ..

تسلقت شمس العصر الساخنة جدران الشرفة ، حتى احتوتها تماماً ..

فتح الباب ، فترامت نداءات ، وصيحات ، وهبت نسائم من ناحية الميناء الشرقية ، محمّلة برائحة الملح واليود والطحالب والأعشاب . ترامى – من بعيد – صوت مد البحر وجزره ، كالوشوشة . وثمة بائع أمام الباب الخلفى لجامع البوصيرى ، يحمل على صدره صفاً من الكتب ،

يسنده بيد ، ويهزّ كتاباً باليد الأخرى ، وينادى بكلمات منغّمة..

رفرفت يمامة ، وتركت موضعها على الماسورة الملاصقة لجدار الشرفة . حلقت ، وطارت إلى الأفق البعيد..

دخل ، وتمدد على السرير . استعادت يده كتاب الصوفية . وضعه بجانبه ، ودندن بأغنية ، يحفظ لحنها ، وإن غابت الكلمات ..

غالب تردده ، ثم قام ..

ارتدى القميص والبنطلون ، ودس قدميه فى حذاء صيفى ، كان يستعمله فى الحقانية . لاحظ نشعاً لم يكن رآه من قبل ، أعلى الطرقة الموصّلة الى الحمام ، وحجرتى النوم . قرر أن يتأكد منه ..

فتح الباب ، ونزل إلى الطريق بخطوات متمهلة ..

اتجهت قدماه ــ بتلقائية ــ إلى باب جامع سيدى البوصيرى ، المقابل ..

صلّى العصْر ، وقرأ الفاتحة لصاحب المقام ، وأعاد قراءة أجزاء من البردة المحيطة بأعلى الصحن ..

مضى خطوات الى الباب الرئيسى فى شارع التتويج ، ثم عاد الى الباب الخلفى ..

واجه التردد فى السير الى الميدان ، أو ناحية الترام حتى الميناء الشرقية . فضل السير فى شارع الأباصيرى . اعتاد السير فيه إلى الحقانية كل صباح ، والعودة بعد الظهر . تعمد إبطاء خطواته ، فلا شئ يشغله . حتى ذهنه كان خالياً مما يسلم إليه تفكيره ..

طالعه ميدان الخمس فوانيس باتساعه ، وجامع سيدى على تمراز ، وبقايا سوق العيد . الفوانيس الخمس توسطت الميدان ، لم يعد منها إلاّ التسمية . تحطمت الأغطية الزجاجية ، وانتزعت اللمبات . وقفت بالقرب منها عربة حنطور ، خلت من سائقها ، ودس الحصان وجهه فى مخلاة الطعام . فى أقصى اليسار شارع الأباصيرى ، ينتهى إلى سيدى البوصيرى وميدان المساجد . يسبقه شارع الشيخ البنا ، وشارع سراى محسن باشا ، يفضيان إلى الموازينى . ثم شارع رأس التين ، إلى الحجارى وأبو وردة وباب الجمرك رقم واحد ، ثم الشارع الخلفى لسيدى على تمراز ، وعلى اليمين شارع إسماعيل صبرى ، يمتد من الكورنيش إلى

شارع الميدان والترسانة البحرية ، وشارع فرنسا ينتهى إلى ميدان المنشية ..

تابع خناقة بين سيدتين أول شارع سراى محسن باشا . قذفت إحداهما الأخرى بحذائها ، ففضل السير بعيداً ..

مضى إلى قهوة المهدى اللبان ..

اختار كرسياً على الزاوية بين شارع رأس التين وإسماعيل صبرى ، وجلس ..

ألف رؤية القهوة فى ذهابه إلى الحقانية ، والعودة منها . حفظ أبوابها ، ونقوشها ، والنصبة ناحية الشارع الخلفى ، والكراسى ، والطاولات المصفوفة فى الداخل والخارج . ألف حتى سحن الجالسين . غالبيتهم يرتدون القمصان والبلوفرات والبنطلونات والبدل وجبب المشايخ ..

مسح المكان بعينين متأملتين ..

أحس بالوحدة وسط مناقشات الجالسين وصيحات الجرسون . كيف أصبحوا أصدقاء ؟ هل هم أصدقاء من الأصل ، أو جيران ، أو زملاء عمل ، أو أن القهوة كانت بداية تعارفهم ؟ وهل بوسعه أن يجلس بالقرب منهم ، يشارك

فى المناقشات ، يرد على الأسئلة المثارة ، يأتى ــ فى الأيام التالية ــ إلى أصدقاء يعرفهم ، ويعرفونه ؟..

قطع الأف المتململة ، صوت هامس :

ــ أستأذن ..

كان الرجل قد جلس بالفعل على الكرسى المجاور . فى نحو الخامسة والخمسين . يرتدى فانلة قطنية رمادية وبنطلوناً ، وينتعل شبشباً جلدياً . أهم ما يميزه حاجبان كثيفان ، وشارب اختلــط سواده ببياضه ، وتهدل على فمه . وعلى جانب وجهه الأيسر وحمة ، امتدت إلى قرب العين . لما تكلم ، بدا غياب السنتين الأماميتين أعلى الفم ، سبباً فى لثغته الواضحة ..

ــ أول مرة تجلس فى القهوة ؟

غالب ارتعاشة فى صوته :

ــ هذا صحيح ..

أشعل الرجل سيجارة ، ونفث دخانها :

ــ بداية .. أم مرّة والسلام ؟

قال فى ارتباكه :

ــ لم أتخذ قراراً ..

تهلل وجه الرجل بانبساط :

ـــ اذن حلّ بيننا صديق جديد ..

سأله عن اسمه ، ثم اتجه بصوت مرتفع نحو الجالسين:

ـــ عبد الله أفندى الكاشف .. صديق جديد ..

فاجأه التصرف ، وضايقه ، وإن لم تفارقه ابتسامة مجاملة شاحبة ..

قال الرجل :

ـــ إبراهيم سيف النصر .. موظف بمعهد الأحياء المائية ..

أردف وهو يومئ إلى الجالسين :

ـــ هذه القهوة تكاد تقتصر على الموظفين .. ومن الواضح أنك كذلك ..

داخل صوته تهدج :

ـــ كنت .. قبل أربعة أيام ..

زوى إبراهيم سيف النصر ما بين حاجبيه :

ـــ كيف ؟

ـــ المعاش !

ثم وهو يحاول إلخفاء انفعاله :

ـــ كنت رئيساً للعاملين .. تابعت ـــ بحكم عملى ـــ خطوات إحالتى إلى المعاش .. لكننى فوجئت بالخطاب .. كأنه ورقة إعلان وفاة مثل التى نقرأها على الجدران !

قال إبراهيم سيف النصر :

ـــ الحياة تبدأ بعد الستين !

أغمض عينيه فى تأثر :

ـــ كلام نعزى به أنفسنا .. الحياة على الهامش مما لا يطيقه انسان اعتاد العمل ..

لم يفاجئه خطاب إحالته إلى المعاش . يعرف تاريخ ميلاده ، وتاريخ التحاقه بالحقانية ، ومدة الخدمة بالسنين والأشهر ، وتاريخ الإحالة الى المعاش ، وموعد تسلم خطاب إنهاء الخدمة .. لكن الشعور الغريب الذى انداح داخله ، فاجأه . يعرف أن راتبه سينقص كثيراً ، بعد أن يصبح معاشاً . لم يجد فى ذلك ما يخيفه . المرتب الأقل يكفيه وزيادة ، وإيراد الفدانين فى بركة غطاس ، يكفل له الأمن من احتمالات المستقبل . أكد فى رسائله إلى أختيه ، وقال لمن معه فى سراى الحقانية ، إنه أدى رسالته ، ومن حقه أن يستريح ..

مع أنه كان يحفظ الصيغة جيداً ، فإنه أعاد قراءة الخطاب . بدا له مختلفاً عما اعتاد كتابته وقراءته . عبد الله أفندى محمود الكاشف . هذا هو اسمه . الخطاب يبلغه بالإحالة إلى المعاش ، بالرفت ..

الرفت ؟!.

كتب التعبير عشرات المرات ، وقرأه . لم يلحظ سخفه إلاّ هذه المرة . هل تنتهى خدمة خمسة وثلاثين عاماً بالرفت ؟! لماذا لا تكتب صيغة أكثر تهذيباً ؟!.. نهنئكم ببلوغكم سن الستين .. نتمنى لكم حياة جديدة موفقة .. نشكركم على خدماتكم .. أى شئ أفضل من هذا التعبير الصارم ..

الرفت ؟!..

إيقاع فعل الموت ، ونفس عدد الحروف ..

فاجأه تهامى بائع الخبز :

ـــ أريد خدمة من الحقانية ..

تشاغل بعدّ الأرغفة :

ـــ لم أعد أذهب إلى هناك ..

ثم بصوت متقطع النبرة :

ـــ أحلت هذا الأسبوع إلى المعاش ..

قال تهامى وهو يلقى بقفة الخبز على كتفه :

ــ هل أظل على هذا الموعد أو أتأخر ؟

تساءل فى دهشة :

ــ لماذا تتأخر ؟

فى لهجة مترفقة :

ــ ربما تريد النوم براحتك ..

ضايقته الكلمات . تنبه ــ فى اللحظة التالية ــ إلى خطئه : ماذا لو استكمل الرجل تعريفه ؟ وما شأن الجالسين إن كان موظفاً أم أنه خرج إلى المعاش ؟..

هز إبراهيم سيف النصر رأسه فى فهم ، وقال :

ــ أطال الله عمرك !

وأعاد الكلمات :

ــ الحياة تبدأ بعد الستين .. هكذا يقولون !

سرحت عيناه فى الفراغ :

ــ إذا وجد الانسان شيئاً يشغله ..

قال سيف النصر بلهجة مستحثة :

ــ وما يمنعك ؟.. كما أرى ، فأنت بصحتك .. ابحثْ عن وظيفة مناسبة ، أو شارك فى تجارة ..

رفت على شفتيه ابتسامة مهزومة :

ـ أما التجارة ، فليس لى فيها .. وأما الوظيفة ، فيدى على كتفك ..

حدجه بنظرة مستفهمة :

ـ أين كنت تعمل ؟

وهو يشير بيده ناحية شارع فرنسا :

ـ فى سراى الحقانية ..

ـ عرضحالجى ؟

ـ لا .. رئيس قلم ..

وهو ينفض بإصبعه دخان السيجارة :

ـ لك خبرة إذن بالقانون والقضايا .. قد تجد وظيفة مناسبة فى مكتب أحد المحامين ..

ـ وكيل المحامى وظيفة لها شروطها ..

ارتفع صوته بالدهشة :

ـ ومن يتوظف على شروط الوظيفة ؟! ..

واقترب بفمه من أذنه :

ـ حكومة السعديين ستذهب إلى حالها ، وتجرى انتخابات جديدة ..

أضاف فى صوته الهامس :

ــ يتردد أن خمسة محامين على الأقل ينوون الترشيح لدائرة الجمرك .. إذا لجأت الى أحدهم ، فلن يتردد فى إلحاقك بمكتبه أو بمكتب محام زميل ..

ــ لا بد أن أدخل إلى المحامى المرشح من باب السياسة .. ولا شأن لى بها ..

علا صوته بنبرة محرّضة :

ــ هو لن ينتظر منك إلا أن تعطيه صوتك .. وتدعو الآخرين لإعطائه أصواتهم ..

وربت ظهر كفه :

ــ لا تغلق الباب قبل أن تحاول فتحه .. ودعنا نر !

تعالى أذان الظهر من جامع سيدى على تمراز ..

صمتا ، واكتفيا بتأمل حركة الميدان ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ أنا أسكن هذا البيت ..

وأشار الى الناحية المقابلة . ثلاثة بيوت متلاصقة ، تعانى القدم ، وتساقط الطلاء ، وتآكل قطع الطوب . النوافذ

خشبية ، أقرب الى المشربيات ، وإن أطلت مناشر ، تدلت منها قطع الغسيل ..

أشار ــ ثانية ــ إلى الناحية المقابلة :

ــ أوسط البيوت الثلاثة ..

أعاد النظر ..

البيت فى مواجهة الباب الرئيسى لعلى تمراز . من ثلاثة طوابق . شكل الطوب الأحمر تكوينات من طلائه المتساقط . وثمة مقرنصات متكسرة ، وأفاريز تشوشت كتاباتها بطمس الكثير من الحروف والكلمات ..

قال الكاشف :

ــ أسكن فى شارع الأباصيرى .. أمام الباب الخلفى لجامع البوصيرى ..

قال سيف النصر :

ــ كان موظفاً مثلنا .. لكن الرسول خصّه ببركته ، فصار من الأولياء ..

وأسند ظهره إلى الكرسى :

ــ أرتاح قليلاً بعد الغداء .. ثم أنزل الى القهوة .. لا أغادرها قبل السلام الملكى فى الراديو ..

خمّن حياة الرجل الأسرية . تصوره زوجاً لسيدة لزمت البيت ، وأباً لثلاثة أبناء . ولدين وفتاة ، أو فتاتين وولد . دخلوا الجامعة ، وإن لم ينهوا التعليم ..

قال الكاشف وهو يحتسى ما تبقى من فنجان القهوة الثانى :

ــ أسعد الله أوقاتك !

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ وسيسعدنا بك إن شاء الله !

ثم وهو يتأهب للقيام :

ــ ألن تصلى الظهر ؟ ..

وأبطأ من قومته فى تذكر :

ــ أين تؤدى صلاة الجمعة ؟..

ارتبك الكاشف فى مفاجأة السؤال :

ــ فى أبو العباس أو البوصيرى .. وأحياناً فى نصر الدين !..

وهو يهز إصبعه :

ــ إذا صليت الجمعة القادمة فى على تمراز .. فستحرص على سماع خطب الشيخ عبد الحفيظ ..

ووشى صوته بإعجاب واضح :

ــ لولا أنه لا يدعى الولاية .. لاعتبرناه ولياً !..

رحلة الاتجاه الواحد

" وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى ولا يشركون بى شيئاً "

قرآن كريم

***

" وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تفعلون "

قرآن كريم

***

" إن المتقين فى مقام أمين ، فى جنات ونعيم ، يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين "

قرآن كريم

***

قال أبو العباس : " يكون الرجل بين أظهرهم ، فلا يلقون إليه بالاً . حتى إذا مات قالوا : كان فلان . وربما دخل فى طريق الرجل بعد وفاته " .

وقف على رصيف سيدى المسيرى المواجه لقهوة الزردونى ..

تظاهر بالتمشى ، عندما رمقته عين مستريبة . عاد ، فأطال نظراته إلى الرجل الجالس على رصيف القهوة ..

تعددت رؤيته للرجل فى جلسته على قهوة الزردونى . فى باله أعجب الحكايات التى رويت عنه . ظل قوّته يغطى الناس والبيوت والجوامع والشوارع والدكاكين ومراكب الصيادين . يحترم الجميع السير أمامه ، وربما مال البعض إلى شارع جانبى ..

روى عم محجوب ما فعله فى سرادق مرشح حزب الشعب : قذف الكلوب الرئيسى بكرسى . خفت الضوء . ذعر الناس لما حدث . توالت الضربات فى الكلوبات الأخرى واللمبات . تلاشى النور ، وحل الظلام . اصطدمت

الأجسام المتدافعة ، وارتفعت الهراوات ، نزلت على الخوف واللهفة والصراخ ..

قيل إنه كان يأكل دجاجة على ريق النوم . وقيل إنه كان يذيب الفص تحت لسانه ، ثم يجرع زجاجة طافية كاملة ، فى بار البوستة ، ويعود إلى بحرى ، دون أن تهتز المرئيات أمامـــه . إذا انساق لمعركة ، تظل رجلاه تحملان جسمه ، وتطيح شومته بالأجسام العفية ، فلا تخطئ طريقها . وقيل إنه كان يحمل على ساقه ، فى جراب جلدى ، مطواة حادة ، يلجأ إليها إذا واجه الخطر . يهوش بها ليجبر خصمه على التراجع ، يستخدمها لإسالة الدم ، لا للقتل . يذعـــر الخصم لمرأى الدم ، فيحبط ، يخشى الموت . وكان يحرص ــ إذا توجس الشر ــ على ارتداء بونية من الحديد ، يوجهها إلى رأس خصمه ، أو وجهه ، أو ذقنه . واشتهر عنه الضرب بالروسية . تميت ــ إذا أحسن تصويبها ــ من تصل إليه ..

أكد المعلم أحمد الزردونى أن حنفى قابيل اضطر إلى الفتونة . فرضت عليه معارك فخاضها . دافع عن نفسه . لم يجعل قوته ــ حين قدم من الصعيد ــ مورداً للرزق ،

ورفض البلطجة ، وفرض الإتاوات . وحين مالت نفسه إلى المعلمة أنصاف تزوجها ، ورفض أن يعمل حامياً لها ، ثم طلقها بعد أن أصرت على ما فى رأسها ..

قال الزردونى :

ــ حنفى قابيل فتوة .. أما الشاطر فبلطجى ..

التمعت عينا عباس الخوالقة بالدهشة :

ــ وما الفرق ؟

قال الزردونى :

ــ هو الفرق بين من يأكل بعرق جبينه ، ومن يفرض الإتاوات على الناس ..

ذهل لما رأى اليوزباشى نبيل قرة ضابط نقطة الأنفوشى ، ينحرف إلى القهوة . يلقى السلام ، ويجلس . يدور بينه وبين الرجل كلام . لم يتبين ــ على البعد ــ ماذا قالا ، لكن الحديث تخللته همسات ومداعبات وضحكات مقهقهة ..

سمع الكثير عن الفتوات : التماع الخناجر والسكاكين ، والصرخات ، والتأوهات ، وقرقعة العظـــام ، وصليل السلاسل الحديدية ، وضربات الشوم ، وقطع الحجارة ،

والزجاجات الفارغة ، وتهاوى الأجسام ، وانبثاق الدم ، وافتراشه مساحات فى الأرض ، وعلى الجدران ..

تمنى أن يصبح أبو أحمد ، فتوة ، يؤكد هيبته الرجال الذين يسيرون خلفه ، أو يحيطون بمجلسه . يعمل له الآخرون حساباً ، يقفون احتراماً ، ينفذون ما يطلب . يفرض الإتاوات على تجار الحى ، وعلى الميسورين من السكان . لن يكون شيخاً للصيادين مثل الحاج قنديل وعباس الخوالقة وبقية المعلمين ، ولن يكون درويشاً مثل أبيه ..

لم يكن قد رأى الفتوات ، وإن أتته أخبارهم ، فتمنى أن يصبح فتوة ..

استهوته حكاية أمين عزب . طرد الرجل الغريب من القهوة ، فصار موضع إعجاب أبناء بحرى ، وقرر أن يتعلم الفتونة ..

جلس إليه فى زاوية خطاب . استمع إلى كلماته ، ووقف بالساعات فى شارع إسماعيل صبرى يتابع تصرفاته ...

قال له قاسم الغريانى :

ــ لم يكن الشيخ أمين عزب فتوة ولا مارس الفتونة ..

ولكزه فى كتفه :

ــ إذا أردت الجلوس إلى فتوة ، فهو حنفى قابيل ..

كان أبو أحمد زمانه .. ثم هدّته الأيام !..

روى له عن معاركه فى بحرى منذ بداياتها . خاض فى تفصيلاتها ومنمنماتها . كيف استحالت الدعوة معركة عنيفة قاسية . أضاف ، وحذف ، وضعه فى إطار البطولة . رد السلام على شاهين عبد الفتاح ، تاجر العلافة بالموازينى ، وقال :

ــ تفضل ..

واصل شاهين سيره ..

لحق به :

ــ إذا عدت إلى فعلتك .. قتلتك ..

قال شاهين :

ــ أنا لم أفعل شيئاً ..

ــ رفضت دعوتى ..

ــ عندى شغل ..

طقت نظرته بالشرر :

ــ قبول دعوتى أهم ..

دفعه ناحية القهوة ..

أجلسه إلى جانبه على الرصيف ، تفصل بينهما طاولة صغيرة . لاطفه ــ بمجرد جلوسه ــ ودعا له بكوب سحلب وكرسى معسل ..

لم يفوّت شاهين عبد الفتاح ما حدث ..

ترصد لحنفى قابيل فى انحناءة الطريق من سراى رأس التين . فوجئ حنفى قابيل بما جرى . ظفر بحياته وبهزيمة شاهين ، وإن خرج من المعركة بطعنة سكين . لزم البيت ، فلم يذهب إلى المستشفى . عاده الحاج محمد صبرة ، وعالجه . إذا عرف خصومه أن المعركة أدخلته المستشفى ، كيف له أن يمشى فى الطريق ، ويدخل الحلقة ، ويجلس فى القهوة ، ويتكلم ، فينصت الرجال ؟..

شغله أن يتعرف إلى الرجل ، يجالسه ، ويحادثه . تاقت نفسه لمصادقته ، والتعلم منه . التعرف إلى أصول الفتونة . يصبح ــ على يديه ــ فتوة ، أبو أحمد . كيف يدخل عراكاً ، فيتركه دون أن يصاب بأذى . تبلورت أمنياته فى أن يصبح واحداً من الذين يخشاهم الرجال ، يقفون لهم احتراماً ، يخاطبونهم بود وأدب ، يتلفتون إن جاءت سيرتهم ..

يرتدى جلباباً من الحرير ، ويضع على رأسه طاقية بيضاء ، وينتعل خفاً مغربياً ، واستندت راحة يده على عصا من الأبنوس . لم يكن وجهه يعبّر عن سنه ، وإن امتد جرح غائر فى خدّه الأيمن ، ربما من طعنة سكين . له أنف أقنى ، وشارب خفيف فوق شفته العليا ، وشفتاه غليظتان ، وعيناه تصدران نظرات نافذة ، تحت حاجبين كثيفين وإن غلب عليه الاستغراق . إذا أراد التحية ، مال بأعلى كتفه ، ولامست أصبعه جبهته ، وتمتم بكلمات هامسة ، مدغمة ..

غالب تردده :

ــ أريد أن أتعلم الفتونة ..

كتم حنفى قابيل ابتسامة مشفقة :

ــ لماذا ؟..

أربكته نظرة الرجل الملتمعة . أشاح بعينيه ، فلا يواجهه :

ــ أريد أن أصبح فتوة .. أبو أحمد .. مثل حميدو فارس وأبو خطوة وأمين عزب .. ومثلك ..

علا حاجباه بالدهشة :

ـــ من أخبرك أنى فتوة ؟.. عندما تضطر إلى خوض معركة ، فذلك لا يعنى أنك فتوة ..

وسرح فى الفراغ أمامه :

ـــ انتهى عهد الفتوات .. الظروف هى الفتوة الآن ..

ثم بلهجة متصعبة :

ـــ أما شيوخ المنسر فهم مشايخ الحارات !..

ـــ لكننى أريد أن أتعلم ..

وابتلع ريقه :

ـــ لا أريد الفتونة .. بل لأحمى نفسى ..

قال الرجل فى دهشته :

ـــ من ماذا ؟..

ـــ أذى الناس ..

حدجه بنظرة متأملة :

ـــ ما اسمك يا ولد ؟..

ـــ محمد على الراكشى ..

برقت عينا قابيل باهتمام :

ـــ ابن الشيخ على الراكشى ؟

نكس وجهه فى الأرض :

ـــ كان صياداً ..

قاطعه الرجل :

ـــ لكنه الآن أحد أولياء الله الصالحين .. والرجل يبشر في قبره بصلاح ولده من بعده ..

لملم جرأته :

ـــ لم يترك لنا مانحيا به ..

هز الرجل رأسه بما يعنى التأسف :

ـــ الشيخ البعيد سره باتع !..

روى جابر برغوت أن الراكشى زاره ، قبل وفاته بيوم ، قال له :

ـــ أودعك لأنى أريد أن أسافر ..

نسب برغوت كلمات الراكشى إلى ماكان قد طرأ على أقواله وتصرفاته ، فلم يعقب . لما عرف بموت الراكشى ، أدرك أن السفر الذى كان يتحدث عنه هو الموت . وروى برغوت أنه شاهد العشرات من الرجال ، لم يرهم من قبل ، ولا يعرف من أين أتوا . يزاحمون الصفوف التى وقفت لصلاة الجنازة . لما حاول تبينهم ـــ عقب انتهاء الصلاة ـــ فوجئ باختفائهم .

حين سأل الجد السخاوى أم محمد ، عن الخفى من أحوال على الراكشى ، ما لاحظته من كراماته ومكاشفاته ، روت ما كان الجد السخاوى يرفض تصديقه ، لولا اقترابه من كرامات الجنازة ، فى غسله وحمله ودفنه ..

كان إذا بقى فى البيت لزم حجرته ، ينشغل بقراءات ودعوات وابتهالات . تقدم إليه الطعام من انفراجة الباب . يأكل القليل ، ويعيد الباقى . تحل فيه البركة ، فيظل ، والأولاد ، يأكلون منه أياماً ، حتى ينفد . وعندما ترى حجرته ــ آخر الليل ــ منوّرة ، توارب الباب برفق . تجده ساجداً ، يطيل سجدته ويطيل ، وعلى رأسه قنديل من النور معلق فى هواء الحجرة . أحواله تظهر على وجهه ، تتغير بتغير الرؤى والمشاهدات . وكان ينزل البحر ، فيسبــح . ما يكاد يمضى خطوات حتى تطفو الأسماك من كل الأنواع والأحجام ، حتى المفترسة منها ترافقه فى سياحته . ثم لم يعد ــ فى أيامه الأخيرة ــ يتردد على الحلقة ، ولا على الساحة الحجرية وراء مساكن السواحل ، ولا يحمل السنارة فى طريق الكورنيش ، لكنه كان يذهب بالطعام ــ آخر النهار ــ إلى عياله . يأتيه بالبركة من الكون ..

روت أنه كان ينقلب له اللون الواحد ، فى صحن واحد ، أنواعاً مختلفة من الطعام . يجد الأولاد كل ما يشتهون أكله . وكان يأتى للبيت بفاكهة الشتاء فى الصيف ، ويأتى بفاكهة الصيف فى الشتاء . وأتى برغيف من فرن السيالة . وضعه على الطبلية ، وغطاه بمنديل ، وقال : كلوا باسم الله . اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وأنت خير الرازقين . وأكل الأولاد من تحت المنديل حتى شبعوا ، وظل الرغيف كما كان ..

طالت غيبته ، أسبوعاً كاملاً . فبدأ القلق يناوش المرأة ..

عاد إلى البيت ، والإنهاك باد عليه . قال وهو يمضى إلى حجرته :

ــ كنت أتلو القرآن على الملائكة ..

وعاد إلى الشقة ــ ليلة ــ فأحزنه أن المرأة والأولاد بلا غداء ولا عشاء . رفع يديه بالقول :

ــ إلهى .. ضمنت رزقاً تسوقه لنا ، فلماذا تحجب عنا الرزق ؟..

انتبهت الأعين إلى أرغفة من الخبز الساخن ، الشهى ، على الطبلية ، لم تكن موجودة ..

صادق رجلاً من عباد الله فى البحر ، كان يخرج إليه من الماء ، يعطيه من الأسماك ما يعود بها إلى بيته . وكان الماء يقذف السمك ناحيته ..

اشتهى الأولاد حلواً ، فدخل إلى المطبخ . وضع قطعاً من الخبز الناشف فى حلة بها ماء . أوقد عليه النار ، ثم قدمه إليهم . فأكلوا حلواً لم يتذوقوا أطعم منه ..

حين علا صراخ عثمان بطلب قطعة هريسة من صينية عم محمد الطوشى ، واجهته نظرات أم محمد المتحيرة . أخذ قطعة من جير الحائط . هرسها فى يده ، ودفعها إلى عثمان ، فأكلها ملتذاً ..

عندما طلب منه هاجس أن يدعو على الأولاد الذين يعاكسونه ، فتقبض أرواحهم ، تذكر محمد وأبو بكر وعمر وعثمان ، فأشفق على الأولاد ..

كان يخرج إلى صلاة الجمعة فى أبو العباس . يخترق الشوارع المحيطة . يتأمل حركة الميدان . يصعد الدرجات الرخامية . يمضى بين المصلين ، لا يرونه ولا يسمعون دعواته ، ولا يشعرون بملامسة ثيابه . يقف فى موضع خال ، فى جانب أحد الصفوف . وكان إذا قام إلى الصلاة ، شاهد

الكعبة ، وصلّى فى حرمها . فإذا انتهت الصلاة ، سار إلى مقام السلطان ، يقرأ الفاتحة ، ويردد الأدعية ، ثم يتجه إلى السيالة من الباب الملكى ، لا يراه إلاّ الخواص . وكان يطير إلى قبر الرسول كل ليلة ، يقرأ صحيح البخارى على الأذن الشريفة ..

قال قاسم الغريانى إن على الراكشى زاره فى المنام ، قبل ليلة واحدة من موته ، وطلب منـــه أن يحضر غسله . وحين دنا الموت ، رأى ملائكة بيض الوجوه ، كأنّ وجوههم الشمس ، معهـــم أكفان وحنّة من الجنة . وقال ملك الموت فوق رأسه : أخرجى أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من الله ورضوان ، ثم نام وعيه فى تسبيح الملائكة . واتجهت الأعين إلى مصدر ارتطام ، أو انفجـــار . رأوا الصخرة المواجهة لكورنيش الميناء الشرقية ، بالقرب من الموضع الذى غرق فيه على الراكشى ، قد تفتّت تماماً . تحولت إلى صخور صغيرة وتراب ، ثم ابتلعتها الميـــاه ، فلم يبق منها على السطح شئ . وتلبست عسكرى السواحل حالة من الجذب ، خرجت به عن نفسه . تركه رؤساؤه لحاله ، بعد أن

ألقى البندقية ، ونزع بدلته الميرى ، ومضى إلى حيث لا يدرى أحد ..

لما وضع على الخشبة ليغسل ، راح يحرك إصبعيه بالتسبيح . وسقطت الخرقة الساترة للعورة على فخذيه ، مد يده ، وعلا بها ، فغطت ما كان مكشوفاً . وأخذ محمد صبرة من ماء غسله . وضعه على جراح المترددين عليه ، فعافاهم الله . وارتفع صوته ــ بعد أن وسد جثمانه التراب ــ : الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض ، نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين . وأخطأ القارئ فى تلاوة آية من سورة الرحمن ، فرد عليه خطأه من داخل القبر

تمنت أن تراه فى المنام . جاءها ، فى الليلة نفسها . كان يرتدى جلباباً أبيض ، ويلف حول رأسه تلفيعة بيضاء . أوصاها أن تقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها ، وقال :

ــ وعدت أن يغفر الله لمن تبع جنازتى ..

سألته :

ــ ما الذى سمعته عندما حضرك الموت ؟

قال :

ــ هتف فىّ هاتف : يا على أن أحبب داعى الله ، فأجبته ولبيت أمر ربى ..

ــ بماذا أجبت منكراً ونكيراً ؟..

ــ سألانى من ربك ؟.. قلت : هو الذى نذرت دنياى لآخرته ..

استطرد فى لهجة مطمئنة :

ــ ليس قبرى ما رأيتموه . أفسحت الملائكة فى قبرى مد البصر ، وفرشته بفراش من الجنة ، وتغطيت بغطاء من الجنة ، واستضأت بنور قنديل من الجنة . سيظل ــ كما أخبرنى الملائكة ــ فى موضعه ، حتى يبعثنى الله من قبرى ..

حبست المرأة نفسها ــ إلى ما بعد الأربعين ــ فى حجرتها ، لا تخرج إلاّ لقضاء حاجة ، ولا تتكلم إلاّ معه . يأتيها فى اللحظات التى يختارها . يحدثها عن عبر الحياة الدنيا ، وما يلقاه فى الحياة الآخرة من سعادة وهناء ..

ظلت تتردد على قبره ، يتلو القارئ سورة البقرة ، تجعل ثوابها لأهل المقابر . اعتادت وجود حمامة بيضاء على الشاهد الحجرى . إذا أحست باقتراب أحد ، طارت ،

واستقرت فوق السور ، حتى يخلو الحوش ، فتعود إلى مكانها على الشاهد .

قالت :

ــ أين أنت الآن ؟..

قال على الراكشى :

ــ مع أولياء الله فى الجنة ..

ــ كيف تحيا ؟

ــ فارقنى الحزن .. عرفت الراحة أخيراً ..

همست مؤنبة :

ــ هل أنت راض عما تركتنا فيه ؟

أتاها الصوت من داخل القبر :

ــ تركتكم فى رعاية الله .. ولو أنى عدت إلى الحياة فلن أبدل طريقى ..

روى أنه استقبلته ــ حين خرج من القبر ــ نوق بيض ، لها أجنحة ، عليها رحال الذهب ، ويتلألأ شرك نعالهم كل خطوة منها كمد البصر . وصعد به ملكان ــ فى أصوات الصلاة والتسبيح والتحميد والتكبير ــ إلى السماء الثانية

والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ، إلى سدرة المنتهى . ينتهى إليها كل شئ من أمر الله ، لا يجاوزها ..

علا صوت بسورة الرحمن ، فاهتز كل شئ فى الجنة . قال أهل السماء : روح طيبة جاءت من قبل الأرض ، صلّى اللـــه عليك ، وعلى جســد كنت تعمرينه . أعيد إلى الأرض ، لتجهيزه ، وتكفينه ، ودفنه . وروى أنه لما قبضت روحه ، جعلها الله فى قنديل من زبرجد وياقوت ، وعلقت وسط الجنة ، ضمن قناديل معلقة أخرى ، لا تنتهى . لا ليل ولا نهار ، العرش سقف الجنة ، ومن السقف ينداح النور ، فيغطى كل شئ ، فهو ضوء أبدى ، والحجرات ليست معلقة ، ولا هى مشيدة على أعمدة ، والأنهار تجرى بالماء والعسل والخمر ، عليها قباب من الياقوت ومن الزمرد ومن المرجان ، والأشجار متجاورة متشابكة الأغصان ، متدلية الثمار ، بلا أفق ، عليها أجراس من الفضة ، تهب عليها ريح الهفهافة من تحت العرش ، تحرك الأجراس بأصوات لم يسمع أجمل منها فى الدنيا ، والأجواء تتضوع بأريج عبق ، والطيور فوق الرءوس تغرد بأنغام جميلة ، وتنفض أجنحتها ، فينتشر المسك والعنبر . نادى مناد : لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً

، ولكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، ولكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً ، ولكم أن تنعمــوا فلا تيأسوا أبداً . ودخل عليه الملائكة مسلمين مهنئين له ، حاملين الهدايا والمواهب والخلع . قالوا : سلام عليك بما صبرت فنعم عقبى الدار . وقالوا : أنت حى بحياة أبدية . يلتقى أهل الجنة ، بعضهم ببعض ، يختلط ذوو المكانة المرتفعة ومن هم أدنى ، يسقطون الفوارق كأنهم فى الصلاة . لا خوف ، ولا حزن ، ولا إصابة بهم ، ولا كراهية ، ولا وسواس ، ولا مرض ..

قال إنه تزاور مع أبو الحسن الشاذلى والمرسى أبو العباس وياقوت العرش والبوصيرى والسيوطى وكظمان ونصر الدين وجمعة العدوى والشيخ عرفة الأنصارى وسباعى سويلم وغيرهم ممن سبقوه إلى نعيم الجنة . انتقل إليهم ، وانتقلوا إليه ، على خيل مسرّجة ، لا تروث ، ولا تبول ، يركبونها إلى حيث يلتقون . أقبل عليهم بفرحة الغائب عن أهله . وثمة أســواق لا بيع فيها ولا شراء ، يتحلّق المترددون عليها فى مجموعات ، يتذاكرون كيف كانت الدنيا ، وكيف أخلصوا فى عبادة الله ، وكيف كانت أحوال الفقراء

فى الدنيا ، وأحوال الأغنياء ، وكيف جاء ملك الموت ، فبشر بالنعيم الدائم ..

قدمت له الأطباق ، فأكل منها ، ثم قدمت له أطباق أخرى ، رأى أنها مثل الأولى . قال : هذا الذى رزقت من قبل . قال ملك : كل .. فاللون واحد ، والطبق مختلف . ما يكاد يضع الثمرة فى فمه حتى يتبدل مكانها مثلها ، وأكثر . تردد على الأماكن المباحة للصيد ، لا يقتل ، ولا يكسر ، ولا يسلخ ، ولا يجرح ، ولا ينزف دماً ، ولا يتعب نفسه . يمسك الطير بيده ، أو بكفَّة نور ، أو شبكة نور ، أو ماشاء الله ، بلا خوف منه أو منها . تصبح فى يده لحماً مطبوخاً أو مشوياً . يأكل منه حتى يشبع ، ثم يعود الطير إلى حالته الأولى ، ويعاود الطيران . ويريد الشرب من إبريق . يطير إليه ، فيشرب ، ويعود الإبريق إلى موضعه . يأكل ــ مثل كل أهل الجنة ــ ويشرب . لا يبول ، ولا يتغوط ، ولا يتمخط ، إنما هو عرق ينفذ من جلده مثل ريح المسك ..

قال لها فى تأكيد :

ــ لا تنشغلى بى ، فأنا أرعى فى الجنة ..

وقاومت المرأة خجلها ، ثم همست :

ـ قال لى الشيخ على : إذا أردت أن تكونى زوجتى فى الجنة فلا تتزوجى من بعدى ..

ثم بصوت منسحب ، كأنه يبتعد :

ـ اهتمى بنفسك ، وبالأولاد ..

أعفى عم سلامة ، صاحب البيت ، أم محمد من دفع المائة والثمانين قرشاً قيمة الإيجار . قال إن لعلى الراكشى أفضالاً فى عنقه ..

اتجه الرجل إلى محمد على الراكشى متأملاً :

ـ تريد الفتونة إذن ؟

علا صوته دون تدبر :

ـ ما يهمنى أن أدافع عن نفسى ..

خمن من صمت الرجل وشروده ، أنه انصرف عنه ..

فاجأه الرجل وهو يتهيأ للابتعاد :

ـ قابلنى غداً بعد صلاة العصر فى حديقة سراى رأس التين ..

أصوات الأحلام القديمة

أمـــــن تَذَكـــــر جيـــران بذى َسلَمِ
مَزَجْت دمعـــاً جـــرى من مُقْلةٍ بدم
أم هبّت الريـــح من تلقـــــاء كاظمة
وأومض البرق فى الظلمـــاء من أضم
فما لعينيـــك إن قلت اكففُـــا هَـــَمتاً
وما لقلبـــــــك إن قُلْتَ استفـــق يَهِمِ
أيحســـــبُ الصـّــبٌّ أن الحب منكتم
ما بيـــن منسجـــــمٍ منه ومضطـــرم
لولا الهوى لم تـــُرِقْ دمعاً على طلل
ولا أرقت لذكـــر البـــان والعلـــــــم
من " بردة البوصيرى "

صعد الدرجات الرخامية ، المفضية إلى الباب الرئيسى ، المطلة على شارع التتويج . مال إلى غرفة الضريح .

المقصورة الخشبية ، تتداخل فيها قطع النحاس المزخرف . قرأ الفاتحة والشهادتين ..

كان يحلو له أن يزور ــ عقب صلاة العصر ، فى يوم يختاره ــ جوامع الحى ومساجده وزواياه ، وأضرحة أولياء الله الصالحين . تشغى بهم ميادين الحى وشوارعه وأزقته . يبدأ بصلاة العصر فى البوصيرى المواجه للبيت . يصعد الدرجات ، ويعبر الحاجز الخشبى القصير من الخشب المعشق . يخلع حذاءه فى نهاية الصحن المكشوف ، والقباب الثلاث الملحقة به . صحن الجامع الواسع ، مغطّى بسقف مزين بالنقوش العربية ، وفى الوسط قبة على أعمدة من الحديد الزهر . يتلمس طريقاً إلى الضريح فى غرفته الجانبية ، بين الأدعية ، والابتهالات ، وطلب المدد ، ولثم العتبات ، وتقبيل النوافذ والحوائط والمقصورة ، وتقديم النذور ، يلقى السلام على صاحب الضريح ، ويقرأ الفاتحة . تعلو حوائط الصحن والضريح ازارات زرقاء ، مكتوب عليها برقائق الذهب ، بخط فارسى بارز أبيات البردة ، وبالخط الثلث آيات من القرآن . يغادر الجامع من الباب الخلفى إلى أبو العباس . ينزل إلى أسفل الصحن الواسع . يقرأ الفاتحة ــ فى الجانب

الغربى ، أمام المقابر الثلاثة للسلطان ، وولديه أحمد ومحمد ، ويقرأ الفاتحة ــ فى الجانب البحرى ــ أمام الأضرحة الستة لأولياء الله . يصعد الدحديرة إلى المسجد الصغير خلف جامع السلطان ، يضم أضرحة الأولياء الثلاثة : سيدى بركات ، سيدى على الفتح ، السيدة رقية الشاذلية ، ومنه إلى أضرحة الأئمة الإثنى عشر ، جمعها ــ فى المكان ــ الشيخ صالح ، رجل ذو كرامات ، استمع فى رؤيا منامية إلى صوت يقول : أنا محمد إمام الحرمين .. أريد أن تبنى مقبرة للشيخ محمد بن وكيع . بعد بضعة أشهر ، قال الصوت : أنا محمد إمام الحرمين .. أريد أن تبنى مقبرة للشيخ محمد أبو وردة . ظل الصوت يتناهى كل بضعة أشهر ، باسم ولى جديد ، حتى وصلت الأسماء إلى إثنى عشر من أولياء الله الصالحين : محمد أمام الحرمين ، محمد أبو وردة ، يوسف الجعرانى ، محمد الشريف المغربى ، محمد الغريب ، ابن وكيع ، محمد إجابة ، محمد المطرودى ، محمد الشريف ، محمد بركة ، محمد الغريب اليمنى ، محمد الحلوانى . يمضى ــ من الناحية القبلية ــ إلى ياقوت العرش ونصر الدين والمسيرى وعلى تمراز وطاهر بك .. يطيل الوقوف

أمام كل ضريح . يقرأ الفاتحة ، ويتهدج بدعوات . حتى سيدى كظمان ، كان يتهدج أمامه بالتلاوة والأدعية . شلت الأيدى التى حاولت أن تطول مقامه . ترفعه من موضعه لتفسح الطريق . عاملوه كما عاملوا سيدى أبو الدرداء . أضيئت على مقصورته الشموع ، وقدمت النذور ، واطمأن الناس إلى مكانته مع أولياء الحى ..

كان بلا مسجد . كلها بيوت الله ..

زار أضرحة أولياء الله فى أحياء الإسكندرية : الشاطبى وابن الحاجب والقبارى وجابر الأنصـــارى والطرطوشى وعبد الله الراس والسماك وغيرهم . إذا تعالى الأذان ، قصد المسجد القريب ، لكن التردد على جوامع الحى ومساجده . كان همه الذى يحرص عليه . يحرص على زيارة المساجد ذات الأضرحة . يتأمل فى مدد أولياء الله وشفاعتهم . يطيل الوقوف أمام مقام السلطان . أولياء الله فى الميدان الفسيح نجوم ، لكن لا ضوء لهم فى ضوء الشمس . سيـــدى المرسى أبو العباس . فى يمينه تلميذه البوصيرى ، وفى يساره تلميذه وخادمه وزوج ابنته ياقوت العرش .. عم مدد السلطان سائر الورود ، فائتنس الأولياء ــ فى النومة

الأخيرة ــ بقربهم من ضريح القطب المبجل ، يرتوون من بركاته ومكاشفاته . يزورهم بعد زيارته للمرسى . البركة الجماعية تتحقق بالمجاورة ..

عرف أن أولياء الله ــ سيدى محمد صلاح الدين ، سيدى محمد المنفعى ، سيدى محمد مسعود ــ أبناء سيدى على زين العابدين ، أحفاد الإمام الحسين ، السلالة الطاهرة العطرة . أصبح يطيل الوقوف أمام النوافذ المطلة على أضرحتهم ، يقرأ الفاتحة ، ويدعو بما يسعفه به لسانه ..

ــ أنسية !..

لمحها تخطو فى الميدان ، من الموازينى إلى قلب السيالة . تبدلت ثيابها ، وإن عرفها من خطواتها الطفلة ، وجسمها الذى تؤكد الملاءة استدارته ، والمنديل بأوية يغطى الرأس ، وتتزلق منه خصلات الشعر الأسود ..

كانت ترتدى ملاءة ، أحكمت لفها حول جسمها ، فلا يبين إلا الوجه . وغطى البرقع ملامح وجهها فلا يكاد يبين منها شئ . ودست قدميها فى حذاء من الكاوتش ..

عرف ــ لا يذكر الراوى ــ واقعة ظهور المرسى للإمام وجلساء درس المغرب . غابت أنسية بعدهـــا . ذهبت

بها الشائعات إلى أكثر من مكان . لما رآها تصحب سيد الفران فى زحام شارع الميدان ، تأكد من شائعة زواجهما . ألف ترددها ــ فيما بعد ــ على كشك سيد فى ناصية الموازينى والدحديرة الخلفية لجامع أبو العباس ..

حين التقى بها فى شارع سراى محسن باشا ، جاءت عيناها فى عينيه . سألها عن حالها . تمهلت فى خطواتها وهى تحدثه عن زواجها من سيد ..

قال بعفوية :

ــ لم تعودى إذن تعملين فىالبيوت ..

كأنه وارب باباً مغلقا :

ــ أنا لا أرفض أى عمل أساعد به زوجى ..

سبقته الكلمات :

ــ لماذا لا تعودين ؟..

تمنى لو أنه تدبر السؤال قبل أن يوجهه إليها ..

فاجأته بصوت هامس :

ــ متى ؟

جرى بالفرشاة على أسنانه ــ للمرة الأولى ــ منذ أيام ، وضبط ياقة القميص والكرافتة ، واطمأن إلى انسجام لون الكرافتة مع البدلة ، وعنى بكيّ الطربوش ، وتلميع الحذاء ..

انتظرها فى المــوعد . تشاغل بالقراءة فى الشرفة . حاول أن يمتطى التذكر ، أو الشرود .. لكن أذنيه استكانتا لحركة المرأة داخل البيت ..

زاد ما كانت تتقاضاه من قبل . أعد نفسه لتلقى شكرها ، أو سؤالها ، لكنها دست النقود فى صدرها ، دون أن تراها..

توقع المفاتحة ، فى المرة التالية ، لكنها لم تشر إلى الأمر . دخلت ، وأغلقت عليها الحمام . خلعت الملاءة والشبشب ، وظهرت بالفستان المشجر ، الطويل . استبدلت به الجلابية الباتستة ، وانصرفت إلى عملها داخل الشقة ..

لم يعد ينظر إليها ، أو يكلمها . يلزم حجرة النوم ، أو البلكونة المطلة على سيدى البوصيرى . يقرأ ، أو يستمع إلى الراديو . ربما ترك لها الشقة ، فيعود بعد نزولها . وكانت تأتى بخضار ، تعدّه له ، ويصر على دفع ما أنفقته . تظل حتى تغسل الأطبــاق ، وتستأذن . أغنته عن الكثير مما كان

يصعب عليه فعله ، ولا يتصور أنه يفعله . غسلت الملابس والأطبـــاق ، وكنست الشقة ، وأزالت الغبار المتراكم على الأثاث ..

آخر النهار ، دست ما أعطاه لها ــ دون أن تنظر إليـــه ــ داخل صدرها . عدّت المبلغ ــ لابد ــ فى الســلم ، أو فى الطريق ، أو فى بيتها ، لكنها لم تتكلم فى الزيادة ، حتى لا تفتح ــ ربما ــ باب الكلام بينها وبينه ..

لم يكن سيد يشكو الحال ، ولا أظهر ضيقاً .. لكن تعبيراته الساكنة ، الحزينة ، كانت تشى بما يمور فى داخله..

أصحاب البلانسات يشترون من متاجر وكالة الليمون . لا يقصده إلاّ صيادو السنارة ، أو الذين يتعجلون رحيل البلانس . حرص أن يملأ الكشك بكل أدوات الصيد : اللبانات ، المخاطيف ، الحبال ، الكنار ، الغزل ، المدارى ، الملخ ، البوص ، السنار ، الطعم ، القفف ، القار ، البكر ..

غالبت الحيرة ..

لن يسهل عليها دخول بيت يعرف أصحابه ما كانت تفعله . لم تحادثه فى الأمر حتى لا تثير ما قلبت عليه ماجوراً . اجترت المرارة ، وتطلعت إلى المستقبل . رنت ــ بالأمل ــ

إلى عبد الله الكاشف . شجعته ــ بابتسامة ــ على السؤال والكلام . زغردت الفرحة فى أعماقها ، عندما انتزع السؤال من ارتباكه الواضح ..

انقطعت عن التردد عليه ، فشك أنها سرقته ، واختفت .. لكنه التقى بسيد فى طريقه إلى الحقانية :

ــ حضرتك عبد الله أفندى الكاشف ؟

حدجه بنظرة متسائلة ..

ــ أنا سيد .. زوج أنسية ..

أومأ برأسه يستحثه على الكلام :

ــ أعرف ..

قال سيد :

ــ أنسية مشغولة فى البيت ..

لا يذكر إن كان قد أعطى الشاب نقوداً أم لا ، لكنه تمنى لأنسية التوفيق فى حياتها ..

تــوالى تــردد النساء على الشقة . يهمس بملاحظاته ، فتبدى المرأة التذمر . يعلن غضبه ، فتغادر البيت ، ولا تعود . يبعث له الجيران ــ أو سعاة الحقانية ــ بمن يترددن على الشقة لأوقات ، تطول أو تقصــر ، ثم تنقطع أرجلهن . أهمل

التفكيـــر فى أن يستقدم امرأة من بركة غطاس . تعددت الزيارات ، وتعدد التلميح والمصارحة بأن زواج علية ونبيلة ينهى المسئولية ..

كان قد أهمل الشقة . ظلت النوافذ مغلقة ، والغبار متراكماً على الأثاث والجدران . حتى الأكلمة علاها التــراب ، وتناثرت فى الجدران ــ بتأثير الرطوبة ــ بقع ملحية ، وتقشّر الطلاء عن أشكال وتكوينات ، وترامت رائحة عطن من ناحية الطرقة المفضية إلى المطبخ والحمام ودورة المياه وحجرتى النوم ..

أقبلت أنسية ناحيته ..

زايله الحرج حين قالت فى صوتها الهامس :

ــ ازيك يا عبد الله أفندى !..

شجعه تصرفها ..

سأل عن صحتها ، وأحوالها ، وزوجها ، وهل أنجبت . قال مدفوعاً بالجرأة التى تلبسته :

ــ لماذا لا تعودين للخدمة عندى ؟..

المسافر بلا زاد

قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

" اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنـــا الباطـــل باطلاً وارزقنا اجتنابه "

* * *

قال عبد السلام بن مشيش لأبى الحسن الشاذلى :

" ياأبا الحسن . اهرب من خير الناس أكثر من أن تهرب من شرّهم ، فإن خيرهم يصيبك فى قلبك ، وشرّهم يصيبك فى بدنك . ولأن تصاب فى بدنك ، خير من أن تصاب فى قلبـــك . ولعدو تصل به إلى ربك ، خير من حبيب يقطعك عن ربك "

* * *

قال أبو العباس المرسى :

" والله لا يموت هذا الشاب ، حتى يكون داعياً يدعو إلى الله "

فز من كرسيه ــ بلا توقع ــ أمام دكان الحاج محمد صبرة . اكتفى بتحية من يده ، وأشار إلى سيارة تاكسى :

ــ محطة الرمل ..

بدت له القعدة كابوساً عليه أن يتخلص منه . لطمت الأمواج جزيرته التى أخفاها بسنى عمره ، فكادت تعلن أسرارها ..

قال المعلم أحمد الزردونى :

ــ لماذا لا تزوج محمود ؟..

ومضت على شفتيه ابتسامة :

ــ داير مثل الدايخ فى شوارع بحرى ..

ربت عباس الخوالقة صدره :

ــ إذا حدث زواج فى أسرتى .. فسأكون أنا المتزوج !

قال حمادة بك :

ــ ربما الولد يحب الصرمحة .. ولا يريد الزواج ..

قال عباس الخوالقة :

ــ أعرف صديقاً خان زوجته مع العالمة ليلة الزفاف !

قال الزردونى :

ــ هذا أهون من رجل أعرفه يترك فراش زوجته ويتسلل إلى الخادمة فى المطبخ ..

قال عباس الخوالقة :

ــ حب الخادمات مبدأ يقتضيه حب التنوع !

جاراهــم فى الضحك ، وإن تراقص ــ فى الأفق ــ سره الذى أخفاه بأعوام العمر . شقة الزردونى قبالة البيت المهجور . هل رأى تسلل أنسية إلى داخل البيت وهو يتبعها ؟.. هل يلمّح بما يورّطه ، فيروى ، ويفضح نفسه . أحس باختناق ، شئ لم يتبينه ، ضغط على صدره ، واعتصره ..

بدت له الجلسة مقبضة ، فانصرف ..

ميز جابر برغوت ــ فى ميدان أبو العباس ــ يحرص على ارتداء زى المشايخ ، القفطان والجبة والحزام الأخضر . ويلقى على كتفه شالاً متآكل الأطراف من الكشمير ، ويضع على رأسه ــ موضع العمامة ــ طاقية شبيكة ، ويدس قدميه فى قبقاب خشبى يصدر صوتاً ذا ايقاع ، وإن تألق الوجه ، والتمعت العينان ، وتبدت النشوة فى المشية والتصرفات ..

* * *

تبدل حاله منذ ظهر له سيدى ياقوت العرش . انقلب وقته سكينة ، لا يخترقها الزحام ولا الأصوات المتلاغطة من حوله . نوع من التبتل والتوجه إلى الذات المطلقة . الزهد الحقيقى هو فراغ القلب مما سوى الله . بادر إلى الطاعة ، والانتهاء من كل ما قد يحمل شبهة المعصية . أكثر من الندم والاستغفار والتوبة على كل مافعل فى أيام سالفة ، ما يذكره وما لا يذكره ، ما اعتبره صواباً ، لكنه ــ ربما ــ كان عين الخطأ . صفت الأوقات عن شوب الأكدار ، وتطهرت السريرة ، فلم ير آثار نفسه ، ولا تعلق بالأسباب أو العلائق الخارجية . تجرد لعبادة الله ، وانقطع لذكره ، يذكره بقلبه لا بلسانه ، ويؤدى الصلوات لأوقاتها ، ويسجد فيطيل السجود والدعاء . يركب سفينة النجاة ، تمضى فتستوى به على جودى الوصول ، مسلوب الحول والقوة والإرادة والاختيار . زهد فى الدنيا ، وأعرض عن لذاتها ، وعمرت النفس بحب الله تعالى ، وعانى التألم من الذين أسرفوا على أنفسهم ..

حرص على طلب العلم ، ومجالسة العلماء ، وصحبة أئمة المساجد ، حتى يتعلم منهم ويسمع الخير . تنقل بين دروس المغرب فى أبو العباس والبوصيرى ونصر الدين

وعلى تمراز وعبد الرحمن وغيرها من جوامع الحى . حتى الزوايا التى عقد أئمتها حلقات الدرس ، اختلف إليها . سأل ، وأنصت ، وناقش ، وخرج بما يفيد ..

بعدت به قدماه عن جامع ياقوت العرش . فى باله صورة ولى الله ، وإلحاحه فى أن ينشد سيدى الأنفوشى .. لكن نفسه منعته من العودة إلى الجامع بعد أن تكررت الرؤيا ، تطلب المجاهدة والاشتغال بما هو أهم من فتح الجامع ، وإغلاقه ، والعناية بالمقصورة والصحن والميضأة ..

لم يشغل نفسه بالقضية التى أمره سيدى ياقوت العرش أن يلتقى بولى الله الأنفوشى من أجلها : هل تخص عامة المسلمين ، أو أهل بحرى ، أو ناساً يعرفهم أو لا يعرفهم . قال القطب كلمته . عليه ــ وإن لم يكن فى مراتب الصوفية ــ أن يلزم الإنصات والخشوع والتلبية ..

تألقت فيوضات من النور لا يدرى مصدرها ، ولا إلى أين تتجه . غطس فى بحر من الأضواء المتماوجة . أدرك أنه فى قلب البحر دون أن يعرف السباحة . اجتذبته التصورات اجتذاب المغناطيس للحديد . انطلقت أمامه ــ بلا حدود ــ عوالم التجلى والمكاشفة والطوالع واللوامع والتمكين ، احتوته

تماماً ، وإن فضل أن ينسحب على نفسه . وقف عند حظه من رحمة اللـــه تعالى فى مقام المعاملة والرياضة . مجرد سالك لا تؤهله ذاته لمشيخة ولا ولاية . تتستر عنه الأشياء ، فلا يشاهدها ..

لم يتمن أن يشاهد الملائكة ، ولا أرواح الأنبياء ، أو يستمع إلى أصوات علوية . ولا دار فى باله أنه يطير ـــ يوماً ـــ أو يمشى على الماء ، أو يكلم الحيوان ، أو يفعل المعجزات ، ولا شغله إقبال الخلق ، وتربية المهابة فى قلوبهم . زهد فى الدنيا ، فلا يطلب الكرامة أو خوارق العادات . لم يعد يشغله حتى البعث والقيامة والحساب والصراط والميزان والجنة والنار . هو ليس من الأولياء ، ولا من الأبدال ، ولا يملك القدرة على خيـــر ولا شر ولا نفع ولا أذى . ما يأمله ، ويسعى إليه ، أن ينفذ أوامر أولياء الله بالكلية ، لا ينقص منها ولا يضيف إليها ، ولا يبتدع ..

استفرغ جهده وطاقته فى طلب ولى الله الأنفوشى : ضريحه ، أو مقامه ، أو ما ينبئ عن وجوده بين أولياء الله فى الحى . يشقيه أن ولى الله الأنفوشى لم يعلن له عن موضعه ـــ ولو فى رؤيا منامية . لو أنه ظهر ـــ حقيقة أو طيفاً ـــ وقدم

طلباته وأوامره ، فسيفعل ما يؤمر به . ثمة رموز وإشارات لا يفهمها إلاّ الأقطاب ــ لهم الإجلال ، والإعظام ، والمحل الرفيع ، والقول الجميل ــ ولا تفشى إلاّ لهم . أجادوا السباحة فى البحار العالية ، ترشدهم منارات الأسرار الإلهية ..

رحل قلبه من دنيا الناس . لم يبق فيه إلاّ محبة العلى القدير . لزم العزلة والصمت والجوع والسهر ، وانفرد عن مخالطة أسرته . من تعود أفخاذ النساء لا يفلح . نهى الأقطاب السائر فى الصوفية عن الزواج ، فلا يخلو من علقة ، ويمنع الهمة على الحق تعالى . المرأة تمنع من كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار ، بتمكن خواطر النساء من باطنه . يتسلــط على المرء خوف من الفقر وخشية على الأبناء ، ويركن إلى الدنيا . أدرك أنه ليس من أهل التصرف ، فلا تعنيه مقامات يدخلها ، ولا أحوال يغازلها ، أو يسكن إليها ، ويعتنقها . أبقى على المرأة . تركها كأنها أرملة . أوكل أمرها وأمر عياله إلى الله تعالى ، وإن حرص على القيام بفرضهم . ترك لها ما يعين الأولاد على مواجهة أيامهم ، وانطلق إلى حيث ينشد تحقيق أوامر ياقوت العرش . تعلق بأكابر الأولياء . دخل تحت حضانتهم ، ولزم عشّهم ، وتحبب إليهم ، بدوام زيارة

الجوامع والمقامات والأضرحة . قرأ الفاتحة ، وطلب الرأى السديد أمام مقامات أبو العباس والبوصيرى وياقوت العرش ونصر الدين وكظمان وبكير والعدوى والواسطى والراس والمسيرى وأبو الفتح وعبد الرحمن وكشك والشوربجى والشيخ إبراهيم والشيخة مدورة . حتى مجموعة الأولياء الذين جمعوا فى مقام واحد ، أطال التوقف أمامهم ، وطلب الرأى والمشورة . أرواحهم طيور الحضرة ، تطير فى الملكوت ، يسكنون فيه ، لا يخرجون منه أبداً . لا يراهم ، وإن لامسته أنفاسهم . مال إلى الذلة والانكسار والخشوع والسكينة والتخلص من رق الشهوات . أهمل ما تشتهيه النفوس من أنـــواع المآكل والمشارب والملابس والمراكب ، حتى يلتقط أصـــدق الثمار . وعزف عن اللحم ، خوفاً من عارض شهوة النساء . وكان يأخذ ما يعطيه الناس له . لا يمد يده حتى يتيقن أن المعطى هو الله . يرفض اعتبار ما يأخذ صدقة أو هبة . هذه هى الطريق التى اختارها أولياء الله . عليه أن يسلكها ، لا تشغلـــه أسئلة الناس ، ولا مؤاخذاتهم ، ولا ملاحظاتهم المعيبة ..

رأى فى إدبار الخلق عنه ما يدفعه إلى الإقبال على ما يحياه من المجاهدة . انقطع إلى العبادة ، وتجرد إلى الصلاة والذكر والتلاوة ، وأكثر من قراءة الأوراد والأحزاب . عنى بتنقية باطنه من الشواغل ، وعود نفسه رياضة النفس ومجاهدة الطبع ، وتهيأ لقبول ما يقوى على تحمّله مـــن الأسرار والمواهب . هو من أهل الظاهر ، ليس بوسعه أن يفهم ما لدى أهل الباطن . أفعالهم وأقوالهم أسرار لا يفهمهما إلاّ أهلها ، لكنه إذا جد فى السر وصل ، وانتقل من ضيـــق الأكـــوان ، ورحل إلى حيث ينبغى أن يذهب ، فيظفر بما تطلع إليه من أنوار المواجهة ، أنوار المجاهـــدة والمكابدة ، أنوار المشاهدة والمكالمة ، أنوار الحقيقة ، تكشف ظلمة البطالة والتقصيـــر والمساوئ والعيوب . صـــار على المحجة البيضاء . انفرد القلب بالله . خلص مما سواه . حاول فهم الدقائق والغوامض التى لا يحسن استجلاء غوامضها . تتفضل القدرة بالنور . تشرق شموس الفهم والمعرفة ، وينكشف الغطاء ، وتتنزل الرحمة ، وترافقه الطمأنينة ، وتتحقق المحبّة ، ويسرى الصدق فى الكلمة . تنفرط حبّات الضوء من عناقيدها ، فيتألق المكان كالنهار ..

خلّف السيالة وراءه ، ومضى إلى طريق الأحياء المائية وقلعة قايتباى ..

كان الجو شتويا . السماء ملبدة بالغيوم ، والأمواج ترتفع عالياً ، تتكسّر فوق الحواجز الأسمنتية ، وسور الكورنيش . يتناثر رذاذها على الرصيف ، وامتداد الطريق ، وطيور النورس تشكل قوساً يندفع بامتداد الساحل ..

قال له على الراكشى :

ــ عرفت من الجد السخاوى أن ولى الله الأنفوشى يرقد فى الضريح المسمى باسمه فى قلعة قايتباى ..

وهو يداعب ذقنه بأصابعه :

ــ قلبى يحدثنى أن الضريح بلا ولى يرقد تحته ..

بدا عدم الفهم فى بحلقة عينيه :

ــ لماذا ؟..

قال جابر برغوت :

ــ لابد لكل ولى من كرامات فى حياته ، ومكاشفات بعد موته ..

بطّن الراكشى صوته بالود :

ــ لعلها حدثت وتحدث دون أن نعرف ..

استعاد ما قاله على الراكشى وهو يمضى إلى الضريح ..

طال استناده إلى جدار غرفة الضريح الغارق فى الظلمة . الضوء يغيب إلى مدخل القلعة . ظل ــ لدقائق ــ فى زيارته الأولى ، حتى توضحت ــ بالكاد ــ ملامح المكان . فتحت الغرفة عن آخرها ، فهى بلا باب . والضريح ــ فى المدخل ــ من الحجر الجيرى . تواصلت الأيام دون أن يبين الساكن فى الضريح عن المعنى الذى يترقبه . يشرق المكان من نور ولى الله . تملأ بدنه ، وتنبعث من وجوده . يمضى به فى طريق الخصوص والعموم والحقائق والأسرار وحلاوة اللفظ ووجازته ، والاشتمال على المعانى الكثيرة . يعرف ما لايعرف من علم الأسماء والحروف والدوائر . تكوم زاد الترقب بتردد النسوة وقت صلاة الجمعة ــ شغلته الرسالة المرتقبة ، فلم يعد يؤديها ــ ينشدن الإنجاب والبرء من العلة والنصفة والمدد ..

أهمل قول الموظف الشاب فى جلسته على البوابة الخشبية الهائلة لمبنى القلعة . هو ولى الله الأنفــوشى ، يقصده الناس لطلب الكرامات . يرى ما لا يراه الناس ، تتكشف له خبيئات نفوسهم ، ويدلهم إلى الطريق : المعرفة بالله والخشية

ودوام المراقبة والمتابعة والثقة بالله والمسارعة لامتثال أوامره وصدق التوكل عليه ..

وهو يحاذر فى عبور الطريق عند انحناءة الترام ، ترامت الأصوات من ناحية القلعة . رأى الزحام والطاولات والطبالى . هنا كان يقف على الراكشى يبيع ويشترى . لو أنه ظل فى الدنيا ، لأصبح قطب غوث ، يأخذ بأيدى المريدين وطالبى المدد ، يدلّهم على الطريق الصحيحة ، وما يجب فعله . لو أنه ظل إلى جواره ، ربما منح أخذ العهد على يديه ، وصار له أستاذاً ، شيخاً يهتدى به ، يرسم له طريق الوصول إلى الله . الأسرار الإلهية لا تهب نفسها إلاّ لمن حفظ الألفاظ والإشارة والسر . يسانده فى مهمته الصعبة ، وينصحه ، ويرشده إلى ما فيه الصواب . هو ولى الله . دلّه يوسف بدوى على الطريق ، وإن سار فيها بمفرده ، يتلقى الفيوضات من مصادر لا يراها أحد ..

* * *

نزل من التاكسى فى طريق الكورنيش ، قبالة حديقة سعد زغلول ..

تأمل ــ بعفوية ــ مئذنة أبو العباس وامتدادات البيوت حتى قلعة قايتباى . ماذا قال جلساء القعدة بعد انصرافه المفاجئ ؟.. هل جاسوا فى اتهامات سعيد النقيب ، فتبدى المعنى الذى يضنيه ، ويحرص على إخفائه ؟.. ولماذا لحقه عباس الخوالقة بالقول " الدنيا لن تطير " وهو يتابع خطواته السريعة ، بعيداً عن الساحة الترابية ؟..

غاب عنه المكان الذى يقصده : هل يذهب إلى الشقة المغلقة فى الشاطبى ، أو إلى بيت العائلة بالقرب منه ؟ أو يكتفى بالجلوس ــ منفرداً ــ فى على كيفك ، أو التريانون ؟..

منذ صحت ــ فى داخله ــ فكرة الترشيح للانتخابات ، قصر جلساته على قعدة العصر أمام دكان الحاج محمد صبرة ، ودرس المغرب فى أبو العباس ، وربما تردد على قهوة الزردونى . غاب عن أماكنه القديمة فى أثينيوس والتريانون وديليس وباسترودس ومونسنيور . تعرف فيها إلى صداقات ظلت قائمة ، أو تفرقت . بدت ــ بتوالى الأيام ــ كالأصداء البعيدة ، لا يذكر ملامحها الواضحة ..

عبر الطريق إلى الناحية المقابلة ..

خلّف وراءه الحديقة وموقف الحنطور وقضبان الترام والسيارات العابرة . مال ناحية مبنى الغرفة التجارية ، إلى شارع سعد زغلول . بدا كمن يبحث عن شئ محدد ، وإن لم يدرك طبيعته تماماً . توقف أمام الدكاكين الصغيرة المتجاورة . دفعه المعروض فى الفاترينات إلى دخول الدكان المجاور لكافيتريا البن البرازيلى . طال تأمله للملابس المعلقة على الشماعات ، أو على الموديلات الخشبية . أهمل النظرات المتسائلة ، وهو يتنقل بين الممرات الضيقة ، على جانبيها فساتين وبلوزات وجونلات وبدل نسائية ..

داخلته نشوة وهو يتحسس ــ بأصابع مترددة ــ قميص نوم من الحرير . انداحت مشاعر موارة لا يدرى كنهها ، ولا كيف يتصرف ..

تنبه لقول البائع :

ــ هل تريد شيئاً محدداً ؟..

لحقته صورة جلسته مع سعيد النقيب وسط الرجال ، أمام دكان محمد صبرة ، يفضحه بالثياب النسائية فى دولاب غرفة نومه . تراخت يده الممدودة إلى جانبه ، وعاد إلى الطريق ..

تلفت ــ على الناصية ــ إلى صفية زغلول وامتداده إلى الكورنيش ، وامتداد سعد زغلول إلى الميدان الواسع ، يبين فى زحام المدى مئذنة القائد ابراهيم ..

لمح ــ من بعد ــ ترام الرمل ، يتوزع ركابه فى المحطة النهائية ..

أسرعت خطواته ليلحق ــ بصدره ــ استقبال راكبى الترامويات التالية ..

أنس المحبـــة

قال البوصيرى :

" كنت قد نظمت قصائد فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منها ما كان اقترحه علىّ الصاحب زين العابدين يعقوب بن الزبير . ثم اتفق بعد ذلك أن أصابنى خِلْطٌ فالج أبطل نصفى ، ففكرت فى عمل قصيدتى هذه البردة ، فعملتها ، واستشفعت بها إلى الله فى أن يعافينى ، وكررت إنشادها ، وبكيت ودعوت ، وتوسلت ونمت ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فمسح على وجعى بيده المباركة ، وألقى علىّ بردة ، فانتبهت ، ووجدت فىّ نهضة ، فقمت وخرجت من بيتى ، ولم أكن أعلمت بذلك أحداً ، فلقينى بعض الفقراء ، فقال لى : أريد أن تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلـــت : أيّهـــا ؟ فقال : التى أنشأتها فى مرضك ، وذكر أولها ، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهى تنشد بين يدى رسول الله ، فرأيت رسول الله يتمايل ، وأعجبته ، وألقى على من أنشدها بردة ، فأعطيته

إيّاها ، وذكر الفقير ذلك ، وشاع المنام ، إلى أن اتصل بالصاحب بهاء الدين بن حنا ، فبعث إلىّ ، وأخذها ، وحلف ألاّ يسمعها إلاّ قائماً حافياً مكشوف الرأس ، وكان يحب سماعها هو وأهل بيته ، ثم إنه بعد ذلك أدرك سعد الدين الفار فى الموقع رمد ، أشرف منه على العمى ، فرأى فى المنام قائلاً يقول له : إذهب إلى الصاحب ، وخذ البردة ، واجعلها على عينيك ، فتعافى بإذن الله عز وجل . فأتى إلىّ الصاحب ، وذكر منامه ، فقال : ما أعرف عندى من أثر النبى صلى الله عليه وسلم بُرْدة ، ثم فكر ساعة وقال : لعل المراد قصيدة البردة التى للبوصيرى . يا ياقوت افتح الصندوق الذى فيه الآثار ، وأخرج القصيدة التى للبوصيرى ، وأْت بها ، فأخذها سعـــد الدين ، ووضعها على عينيه ، فعـــوفى .. ومن ثم سميت البردة ، والله أعلم " .

صحا ، فوجد العتمة قد ملأت الحجرة ..

تحسس المنبه على الكومودينو . دقق ، فلم يستطع تبين الوقت ..

فز متسائلاً :

ــ هل جاء الرجل ؟..

مضى ناحية الباب ..

ضغط زر النور ، فتوضحت المرئيات . إكتشف أنه لم يبدّل ملابسه . نام بالقميص والبنطلون والحذاء ..

وجه الدعوة إلى إبراهيم سيف النصر لمجرد المجاملة . لم يتصور أنه سيلبيها . انقطعت الزيارات عن البيت ، منذ أصبح وحيداً . حتى زيـــارات الأقارب من بركة غطاس ، تباعدت ، ثم انتهت ..

شغله التفكير : كيف يستقبل الرجل ؟ أين يجلسان ؟ ماذا يقدم له ؟ وهل يبدأ الكلام ، أو ينتظر البداية التى يحددها إبراهيم سيف النصر ؟ وماذا ستكون نظرة الرجل إلى الشقة ؟ هل تبدو مرتبة ، أو أنه سيلحظ ماغاب عن انتباهه ؟ هل يؤكد على أنسية فتأتى فى موعد الزيارة ، وتزيل ارتباكه ؟..

اعتزم دعوته ــ بمجرد أن يدخل الشقة ــ للجلوس فى الشرفة المطلة على سيدى البوصيرى . مدخل للتحدث عن صاحب المقام : قرأ عن ولى الله ما يعينه على الكلام لساعات متواصلة . إذا جاءت سيرة السياسة ، خاض بحارها وهو لا يقوى على مجرد العوم . ينصت إلى أحاديث

الرياضة والفن . حتى قضايا الدين يفضل الإنصات حين تناقش أمامه ..

قال إبراهيم سيف النصر وهو يتأمل ما حوله :

ــ شقة واسعة ..

ثم وهو يتجه إليه بنظرة متصعبة :

ــ تحيا بمفردك ..

اغتصب ابتسامة :

ــ من كانوا يقيمون معى .. استقلوا بحياتهم ..

ــ أصدقاء ..

ــ لا.. أختان .. تزوجتا ..

ــ عقبى لك ..

أطلق من أنفه ضحكة مبتورة :

ــ فات القطار ..

وتهدج صوته :

ــ يبدو أنى سأظل فى هذا السجن حتى الموت ..

شعر بالرذاذ يتناثر من فمه . مسح شفتيه بظهر كفه ..

أعاد سيف النصر الكلمة :

ــ الموت !..

وقطب جبهته :

ــ كلمة قاسية !..

ــ إنه الصديق المتوقع لمن يحيا وحيداً ..

بعد أن أغلق الباب ، مضى إلى داخل الشقة ــ بخطوات متباطئة ــ ووقف وحيداً فى الصالة . كانت كل لمباتها مضاءة ..

لم يتصور أن حياته مع أختيه تنتهى بهذه السرعة ، هذه البساطة ..

الزواج ؟.. ماذا يعنى ؟.. وماذا تعنى البداية والاستمرار إن كانت هذه هى النهاية ؟.. وماذا تعنى الحياة والموت ؟.. تسربت أعوام العمر . غافلته ومضت ، كأنها سرقته ، أو سرقت منه ..

أخلى سيف النصر وجهه للدهشة :

ــ السجن .. الموت .. تسمى هذه الشقة الواسعة سجناً؟..

وهو يضغط على الكلمات :

ــ ما دمت تحيا بمفردك ، فأنت فى سجن ..

وتنهد :

ـــ هذه تجربتى ..

كان يرتدى بنطلونا أزرق ، وفانلة من الصوف سوداء بلا رقبة ، وبأكمام طويلة ، ويضـــع طربوشه على الترابيزة بجانبه . فإذا ارتداه ، حرص أن يطمئن إلى اتّساقه على رأسه ، وأن يكون الزر فى الخلف تماماً . يمد إصبعين ـــ بين حين وآخر ـــ إلى جيب البنطلون العلوى ، الصغير ، يخرج الساعة ذات الكاتينة ، يتأكد من الوقت ، ثم يعيدها . وكان الرجل ـــ مع لثغته الواضحة ـــ يخطف الكلمات . أعطاه انتباهه . وربما اكتفى بالمعنى الكلّى لما يقول ، لا يتوقف عند كلمة أو عبارة ..

هز رأسه ، وسرح فى الفراغ :

ـــ مفروض أن أبدأ فى زيارة مقبرة العائلة فى العامود ..

هتف إبراهيم سيف النصر :

ـــ يا رجل .. يأخذك الموت وأنت حى ؟!

قال الكاشف :

ـــ ما دمت قد فصلت من الحياة ، فإن على أن أعنى بالموت !..

ثم بلهجة متصعبة :

ــ منذ أحلت إلى المعاش .. بدأ العد التنازلى !..

قال سيف النصر :

ــ كيف تواجه الأمر لو طال العد ؟..

قال الكاشف :

ــ خيل الحكومة تواجه القتل فى نهاية أيامها .. أما موظفو الحكومة فإنهم يكتفون بإحالتهم إلى المعاش ..

استطرد سيف النصر :

ــ لأن الله يحرم قتل البشر ..

ــ يعنى لولا التحريم ، فالمفروض أن نُقتل !

تدلّت يداه المضمومتان :

ــ زرتك للمسامرة لا للتكلم فى الموت ..

ورسم على شفتية بسمة عابثة :

ــ هل قرأت الصحف ؟..

ــ لا .. لماذا ؟..

ــ صدر أمر عسكرى بإلغاء البغاء ..

جاراه فى الابتسام :

ــ الزنا مكانه كوم بكير وليس فى حى أولياء الله !..

* * *

وجد فى مكتبة البوصيرى ما لم يكن قرأه . أزمع أن يقضى الوقت ــ منذ صلاة الظهر إلى موعد الوظيفة ــ للعودة إلى البيت . المكتبة مبذولة لمن يريد القراءة . مكتبة أبو العباس فى حجرة مغلقة ، المخطوطات وكتب التراث وضع القفل عليها ، فلا يتيسر إلاّ قراءة القرآن ، وبعض كتب الأوراد ..

كان يفضل الوضوء فى البيت ..

ينزل بكامل ثيابه إلى الجامع . يدخل من الباب الخلفى ، المطل على شارع الأباصيرى . يا دوب يعبر الشارع الضيق من البيت إلى الباب المواجه . ربما أطال الوقفة أوسط الصحن المكشوف . يتأمل الميضأة السداسية الشكل من رخام المرمر الأبيض ، ثبتت فى جنباتها الحنفيات . يعيد قراءة آيات القرآن ، والبردة المنقوشة فى الجدران الأربعة أعلى صحن الجامع . مكتوبة بخط فارسى جميل ، موشّى بالذهب ، فى إطارات مستطيلة ، ذات إزارات زرقاء . عرف ــ لطول تأمله أبيات البردة ــ موضع كل بيت فى مكانه . الخدوش التى لحقت به ، وتساقط الطلاء ..

أعادته سيرة البوصيرى ــ بقوة ــ إلى أيام الوظيفة القريبة . هل بدل مضى مئات الأعوام بين الوظيفة ، وما صارت إليه ؟.. هل كانت وظائف الدولة مطلوبة ، مثلما هو الحال عليه فى هذا الزمان ؟..

تمنى لو أتيحت له الحياة فى رحاب الماضى الجميل ، العهود التى مضت ، وفراديس الأسلاف . القرن السابع الهجرى ، قرن اليقين الدينى والصوفية والأقطاب : الشاذلى وأبو العباس والدسوقى والبدوى والصباغ والدرينى وغيرهم . حتى الارتحال بالذاكرة عشقه ، امتدادات التصور إلى ما لا يدرك كنهه . دخل صحن الجامع . هدوء ما بعد صلاة الظهر . مسحت عيناه أعلى الجدران :

يا أكرم الرسل مالى من ألــوذ بـــه

سواك عند حلول الحـــادث العمـــم

ولن يضيق رسول اللـــه جاهــل بى

إذا الكريـــم تحلى باســم منتـــقــم

فإن من جدك الدنيـــــــا وضرتهـــا

ومن علومك علم اللـــــوح والقلـــم

الكواكب الدرية فى مدح خير البرية ..

لم يعرف أن البردة هو اسمها . حفظه الأول فى المطولات . استمع إليها فى ليالى المولد النبوى ، وفى موالد البوصيرى وأبو العباس وياقوت العرش ، وتمايل بها الذاكرون فى الحضرة . يفرغ المصلّون من صلاة الجمعة . يبقى المريدون . يتقابلون جلوساً فى صفين ، فى يد كل مريد نسخة من البردة ، مطبوعة بخط النسخ ، ومشكولة بخط واضح . تعلو الأصوات بتلاوتها . الصوت خفيض فى البداية . يعلو ويعلــو . تردد صداه جدران الصحن الواسع . قرأ الأبيات التى حفظها . عرف أن ما حفظه هو البردة . تقرأ فى الفجر ، وفى المساء المتأخر ، وتقرأ فى كل حين . هى البرأة لأن تلاوتها تشفى من الأمراض ، وتفرّج الكروب . شرط قراءتها الطهارة والوضوء واستقبال القبلة . تعقد لقراءتها الحلقات فى المســاجد ، وفى حفــلات عقد القران ، وحفلات الزفاف ، وفى الجنازات ، تسير الجنــازة فى شارع الميــدان إلى نهايته . تؤدى الصلاة على الميت فى جامع الشيخ إبراهيم ، ثم تمضى إلى مقابر العامود ، يتقدمها المنشدون ، تعلو أصواتهم بأجزاء من " دلائل الخيرات " وبردة البوصيرى ، تنشد فى لحظات دفن الموتى . حتى

العتاقات التى يقيمها أهل الموتى فى ليلة الأربعين ، كانت قراءة البردة هى التالية لتلاوة القرآن ودلائل الخيرات ..

تخلى عن حرصه فى الوضوء قبل أن يغادر البيت . استعاذ بالله من الشيطان ، وبسمل وحوقل ، وتوضأ بغير عجلة . لم يكن الوقت وقت صلاة . ولم يدخل الجامع لهدف . بدت الأمور فى داخله غامضة ، ومشوشة . يعانى الوحدة ، والحزن الذى لا يدرى بواعثه . ما يشبه الهم يناوش النفس ، خواء يمتد بالتآكل إلى داخل الصدر ..

طاف حول المقام ، وقرأ الفاتحة ..

من تحدث للمرة الأولى عن الحدث الذى لم يشهد بحرى ــ وربما الإسكندرية كلها ــ قبله ، ولا بعده ؟.. إمام أبو العباس ؟ إبراهيم سيف النصر ؟ أدهم أبو حمد ؟.. من أضاف إلى الحدث ، وحشاه بالتفصيلات التى ربما لم تحدث ؟..

لم يعد حلماً أو يشبهه . هو معجزة ، كرامة ، تضاف إلى الكثير الذى تحقق فى حياة سلطان الإسكندرية ، وبعد وفاته ..

هل استغاث به السلطان ــ فعلاً ــ فلم يجبه ؟ هل طلب العون من ياقوت العرش ونصر الدين والأولياء فى الميدان ، فلم يغادروا أضرحتهم ؟..

رفض التصور أن ولى الله يرفض الغوث . هو الذى أمضى حياته محروماً من العمل ، أو منفياً فى قرية نائية ، يعانى الوظيفة الصغيرة ، ومؤامرات الموظفين الكبار . يخشون أذاه ، يحرضونه أن يكون واحداً منهم ، يواجهون رفضه بالتآمر ، حتى يواجه ــ وأسرته ــ مصيراً مؤلماً . لم تكن الحياة مركباً يسهل الإبحار فيه . كانت تثقله المطالب ، ونفقة العيال ، وجذب خيط الرزق من ثقب إبرة . حتى حمارته الصغيرة ، استعارها ناظر الشرقية ، فلم يعدها . أيقن أنه يستطيع أن يحصل على ما يريد من موظفيه . لم يدركه خوف ، وكتب قصيدة على لسان الحمارة ، تعترض على ما فعل الناظر . تابعت قراءاته سعيه الدعوب للالتحاق بوظيفة فى الدولــة ، حتى أصبح مباشراً فى بلبيس . بعد أن دفع وظيفته ثمناً لدعوته إلى تطهير الدواوين والإدارات ، أعيــد إلى الوظيفة ، كاتباً مباشراً بالمحلة الكبرى ، ولم تتغير صورة الوظيفة عما كانت عليه فى بلبيس . دواوين

الدولة قضية البوصيرى التى سبقت ما عداها من قضايا . همه مهاجمة الموظفين والولاة ، كشف المفاسد والانحرافات ..

الأوابد ..

قصائد لم ينظم مثلها شاعر . تعبير عما شعر به الناس فى زمان حياته . أثمرت القصائد فى أيام المنصور قلاوون ، ثم جفت الثمار بعد وفاته . خمسة عشر سلطاناً ، توالت عهودهم ، والبوصيرى يمارس الوظيفة ، وينتقدها :

وما أخشى على أموال مصـــر سوى من معشـــر يتأولونـــا

حين يظهر الرسول فى منام امرئ ، فإنه يكون قد ظهرفعلاً ، لا حلم ولا توهم . هو الرسول حقيقة ، وما يقوله هو قول الرسول . من رآنى فى المنام ، فقد رآنى حقاً ، فإن الشيطان لا يتمثل بى . يصدق رواية التوسل بالقصيدة للشفاء من الشلل الذى أصاب جنب البوصيرى الأيمن ، هى أقرب إلى الصواب . وشفى كذلك كثيرون ممن أوشكوا على العمى ، فهى البردة لأنها باعث شفاء . يسلم نفسه لتصور النبى وهو يخلع على البوصيرى بردته . ينشده القصيدة ، فيخلع

عليه البردة ــ فى الحلم ــ مثلما فعل مع كعب بن زهير فى اليقظة . كان الشلل قد هد الجسد المتعب ، وأبطل نصفه . عجز عن التقلب فى الفراش من جانب إلى آخر . فكر فى أن يكتب بردته . كتبها ، واستشفع بها إلى الله أن يعافيه ، وكرر إنشادها ، وبكى ، ودعا ، وتوسل ، ونام ، فرأى الرسول فى رؤيا كالحلم . أنشد البوصيرى أبياتاً من البردة ، وعندما بلغ القول : فمبلغ العلم فيه أنه بشر ، توقف . هل أتم الرسول بعض أبيات القصيدة ــ بالفعل ــ فى الرؤيا ، حين لاحظ إخفاق الشاعر فى إتمامها ؟ .. فماذا عن قول القرآن " وما علمناه الشعر وما ينبغى له " ؟..

قال الرسول :

ــ قل يا إمام ..

قال البوصيرى :

ــ إنى لم أوفق للمصراع الثانى ..

قال الرسول :

ــ قل يا إمام : وإنه خير خلق الله كلهم ..

ومسح وجه البوصيرى بيده ، وتفل فى عينيه ، وخلع عليه بردته . صار ــ بما حدث ــ إمام الواصلين . رقّى إلى

مرتبة لم يبلغها أحد من السادة الأولياء ، أو ذوى الكرامات . رؤية الرسول لا يدانيها شرف ..

قام من نومه معافى البدن . لقيه صوفى ــ صباح اليوم التالى ــ فقال :

ــ أريد أن تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله ..!

تساءل بالدهشة :

ــ أيها ؟..

قال الرجل :

ــ التى أنشدتها فى مرضك ..

وأعاد الأبيات الأولى من البردة ، وقال :

ــ والله لقد سمعتها البارحة وهى تنشد بين يدى رسول الله ، ورأيت رسول الله يتمايل ، وأعجبته ، وألقى من أنشدها بردة ..

أعطى البوصيرى البردة إلى الصوفى . مضى فى الشوارع والأسواق كما لو لم يكن المرض أقعده شهوراً ..

ذاعت البردة فى مصر والشام والمغرب والحجاز واليمن . هى العمدة فى حلقات الذكر والمدائح النبوية

والإنشاد . صارت البردة ، والبرأة . أسرف الناس فى تبجيلها ، وإن استحقت ماهو أفضل من التبجيل ..

أشفق على هؤلاء الذين يضيعون الوقت والجهد فى الطواف على الأولياء الذين يشغى بهم الميدان ، والشوارع القريبة . لو أنهم قصدوا مقام سيدى البوصيرى ، عرضوا شكاياتهم وأحوالهم ، وما يطلبون ، فإن ولى الله سيقدم لهم من فيض كراماته ومكاشفاته ومدده ، ما يحقق المأمول . لم يكن شيخ طريقة . هو صاحب البردة . بلغ بها مقام الغوثية الكبرى .. لكل بيت منها فائدة . بيت أمان من الفقر ، وبيت أمان من الطاعون ، وبيت يشفى من الصداع والأوجـــاع ، ولها فوائدها فى التمائم والأحجبة . تعلق على الرءوس ، وتحقق الكثير من أنواع البركة ، وتلتمس الفرج من كل ضيق ..

رفض التصور أن البوصيرى يرفض إغاثة السلطان . حرص أن ينتقل إلى الإسكندرية ، ليلزم أستاذه المرسى ، يحضر مجالس شيخه ، يفيد من علمه وفيوضه ..

* * *

قال إبراهيم سيف النصر :

ـــ ولدت فى بحرى .. ولا أتذكر أنى التقيت بك !..

كان يكره الجلوس فى القهاوى . لم يجلس الاّ على قهوة وادى النيل بميدان المنشية ، مرتين أو ثلاثاً ، حين فاجأه بالزيارة ــ فى الحقانية ــ أقارب من بركة غطاس . حتى سكان البيت لم يكن يدخل معهم فى كلام . يلقى السلام أو يرد عليه ، ويمضى . لا يزور ولا يزار . وإذا فتح الباب جعله موارباً . وكان يحرص على النظر إلى الأرض ، فلا تقع عيناه على من يفاجئه بالتحية . يعقب التحية كلام ، بداية طريق لا يعرف نهايتها ، وإن كان ــ فى كل الأحوال ــ لا يحبها ..

قال :

ـــ أنا من بحرى .. ولست منه !..

قال له أبوه ــ يوماً ــ عن الأصول . تبدأ فى المغرب ، ثم قدمت بالحج إلى مصر ، فاستقرت . هل ينتسب إلى أصول واحدة مع البوصيرى محمد بن سعيد حماد ، المكنى بشرف الدين ؟..

حدجه بنظرة متسائلة :

ـــ كيف ؟..

ـــ أحيا فى الحى منذ مولدى .. لكننى لم أخرج إلاّ إلى العمل ..

تذكر أن أباه كان يرسله إلى شارع الميدان ، منذ أيام قليلة . يمنحه تعريفة ليشترى بقالة البيت من الخواجة ميخاليدس ، على ناصية وكالة الليمون . هل غافله الزمن ، وسرقه دون أن يدرى ؟!..

ثم وهو يمسح اللعاب من جانبى فمه :

ـــ أنا فى الحقانية منذ المحاكم المختلطة ..

قال سيف النصر كالمتذكر :

ـــ ليس بعيداً نقل سلطة المختلطة إلى المحاكم الوطنية..

وتأمله بنظرة دهشة :

ـــ أليس لك أصدقاء ؟!

افترت شفتاه عن ابتسامة هادئة :

ـــ تعرفت إليهم فى الفترة الأخيرة !..

طيور الخريف

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ متى ينتهى هذا العنف ؟.. اغتيال النقراشى واغتيال حسن البنا ونسف بيت النحاس ومحاولة اغتيال النحاس .. وابراهيم عبد الهادى ــ منذ تولى الوزارة ــ لا يتحرك إلاّ فى حماية المدافع الرشاشة ..

قال عبد الله الكاشف :

ــ العنف يجلب العنف !

ترامى صوت المهدى اللبان من مجلسه داخل القهوة :

ــ الإخوان هم الذين بدأوا ..

كانت العتمة تزحف على الميدان . تتلاشى بقايا الشمس أعلى الجدران ، وتذوى الظلال ، وتتلاشى ، فيما عدا التكوينات التى تصنعها اللمبات المضاءة تباعاً . وكانت طيور السمان قد ظهرت فى سماء الإسكندرية ، وفى شوارعها ، قادمة من الشمال فى هجرتها السنوية . وترامت من اتجاه البحر رائحة رطبة . وثمة أولاد يلعبون تحت

فانوس الشارع ، وقطان علا مواؤهما بالتخويف أمام بقايا سمك ، وباعة غزل البنت والنبق والحرنكش والدوم ، وماسح أحذية يدق بالفرشاة على الصندوق : تمسح !

حرص أن يمارس الطقوس التى اعتادها ، عند الذهاب إلى الحقانية كل صباح . يصحو فى الموعد . يحلق ذقنه . يتناول كوباً من الشاى بالحليب . يقرأ الجريدة التى يدسها له البائع من تحت الباب . ثم يرتدى ملابسه . يطيل التأمل فى المرآة . ينزل السلم متباطئاً ، يتمتم بدعاء الخروج من البيت . يلقى السلام على مقام سيدى البوصيرى ، ويقرأ الفاتحة . يمضى فى شارع الأباصيرى إلى ميدان الخمس فوانيس . يطالعه الميدان باتساعه وهدوئه . بدلاً من المضى فى شارع فرنســا إلى ميدان المنشية ، يتجه ناحية قهوة المهدى اللبان . ربما الجرسون نجاتى ــ فى تلك اللحظة ــ يرش الرصيف والجزء من الشارع أمام القهوة بخرطوم الماء ، ويعيد ترتيب الكراسى والطاولات لصق الجدران والأبواب المغلقة . يختار الكرسى الذى اعتاد الجلوس عليه ، أو كرسياً بالقــرب منه . يلقى الســلام ، ويجلس ..

استقر فى داخله شعور بالألفة . يشارك فى ما تشرق به الأحاديث وتغرب : السياسة ، وأحوال الجو ، والترقيات والدرجات والمرتب الأساسى وإعانة الغلاء والأجر الإضافى والبدلات والعلاوات والأقدميـــة والتنقلات والانتدابات ، وخطب الشيخ عبد الحفيظ إمام جامع على تمراز ، وارتفاع إيجارات الشقق بعد الحرب ..

تأمل البحارة الأجانب الثلاثة الواقفين أمام القهوة ، يتكلمون بلغة ليست الإنجليزية التى يجيدها الجالسون ، ولا الفرنسية التى يعرفون الكثير من مفرداتها . تشاغلوا بتخمين جنسية البحارة . هم من الروس .. وهل تأذن الحكومة للروس بالنزول إلى الإسكندرية ؟!.. بل هم من الألمان .. الألمان مهزومون ولا يحق لهم ارتداء الزى العسكرى .. القامة الطويلة تشى بأنهم أمريكان ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ خيّبهم الله جميعاً ..

قال عبد الله الكاشف :

ــ ميزة هذا الحى أن كل شوارعه تأتى من البحر وتنتهى إليه .. أينما سرت لابد أن ينتهى بك الطريق إلى البحر ..

هز أدهم أبو حمد رأسه ، وهو مغمض العينين ، وظل صامتاً ..

مع أنه يحيا بجوار البحر ، فإنه لم يتأثر به . لم يشغله النظر إليه ، أو النزول فيه ، أو السير على الكورنيش . وأحسّ ــ أحياناً ــ أنه يكرهه . وكان دائم التذكر لدوريات الجنود الإنجليز على طريق الكورنيش ، وبطاريات الأضواء الكاشفة ، والمراكب الراسية وسط الميناء الشرقية ..

قال الشيخ أحمد أبو دومة :

ــ قررت بعون الله أن أضيف اللغة الإنجليزية الى دروس كتّاب ولى العهد ..

قال فهمى الأشقر :

ــ ولى العهد أصبح ملكاً ..

قال الشيخ أحمد :

ــ والتلاميذ .. أليسوا أولياء عهد لآبائهم ؟..

قال سيف النصر :

ـــ وتسميه الإسكول ..

قال الشيخ أحمد :

ـــ هذا ليس كتاباً عادياً .. إن تلاميذه من أبناء الموظفين ..

وعلا صوته بنبرة تفاخر :

ـــ لولا أنه ـــ حتى الآن ـــ يخلو من هيئة تدريس لاعتبرته روضة أطفال ..

قال فهمى الأشقر :

ـــ وأين العريف ؟..

ـــ أى عريف ؟

قال الأشقر فى دهشته :

ـــ ألا يوجد فى الكتاب عريف يساعدك ..

قال عبد الله الكاشف وهو يضع على شفتيه ابتسامة مجاملة :

ـــ الأولاد يأتون للتعلم على الشيخ أحمد ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـــ يعلّمهم وهو نائم ..

واتجه إلى الرجال :

ــ شيخنا يترك الأولاد وينام .. لا حفظ للقرآن ولا يحزنون !

صرخ الشيخ :

ــ هذه فرية !

واصل سيف النصر كلامه :

ــ لا يصحو الشيخ من نومه إلاّ إذا التقط صوت أقدام على السّلم .. يشخط فى الأولاد فيرفعون أصواتهم ..

قال أدهم أبو حمد فى تأثر :

ــ السن له أحكام ..

قال الشيخ أحمد أبو دومة محتجاً :

ــ بلغة موظفى الحكومة .. فأنا لم أبلغ سن المعاش ..

كان قد ادخّر من المال ما يؤمن له شيخوخة غير متعبة . وقيل إنه شارك كمال مصباح تاجر المنيفاتورة بشارع الميدان فى رأس ماله ليضمن إيراداً ثابتاً . يشقيه أن غالبية الرجال فى عائلته إذا جاوزوا الشباب أصيبوا بارتخاء فى أعصاب الساقين ، تضمران ، وتعجزان عن السير إلاّ بواسطة عصا ، ثم تتحولان إلى ما يشبه العصاتين المتهدلتين ، فيلزم الرجل الفراش ، أو ينتقل على كرسى متحرك ..

لم يفلح فى المدرسة الأولية . أحب الذكر والموالد والمدائح والإنشاد الدينى . أتقن أصول تجويد القرآن : المد والغن والإخفاء والإدغام ، وأتقن المد الكلمى والحرفى ، والمد الثقيل والخفيف . وضع أبوه أصابعه فى الشق ، فأهمله . عمل لفترة صبيتاً فى الموالد والمناسبات الدينية . ودار بتلاوة القرآن على البيوت . ثم شغل نفسه بقراءة التواشيح والابتهالات فى نصر الدين . وتوسط له أمين عزب ، فعمل مؤذناً بياقوت العرش . عندما فتح الكتاب ، زاوج ــ لفترة ــ بينه وبين رفع الأذان . ثم تفرغ للعمل فى الكتاب ..

الحجرة واسعة . تطل على شارع فرنسا . أرضها من البلاط . تجاورت فيها التخت . فى الجانب دولاب ، وضعت فيه المصاحف والأقلام والألواح والدوى . خلت من سبورة ، فمهمة الشيخ تلقين الأولاد آيات القرآن . يتلو الآيات فيرددونها وراءه . وكان يعلمهم قواعد الوضوء والصلاة ، وقواعد الإسلام الخمس ، ويلقنهم بعض الحكم والأمثال وأبيات الشعر . يعلو صوته بطريقة غنائية ، حتى لا ينساها الأولاد . بيده عصا من الجريد ، يهش بها ولا يضرب ..

عرف عنه أنه يتعمد ألاّ يضحك مع الأولاد ، أو يباسطهم ، فلا يأخذون عليه . يزول حاجز الرهبة بينهم وبينه . وكان يرفض استخدام الأولاد فى حاجاته الشخصية ، أو فى الخدمة فى بيته القريب من الكتاب . يمضى خطوات فى شارع فرنسا . ثم يميل إلى شارع سيدى خضر ، المتقاطع مع شارع الميدان . بيوته متساندة ، واطئة ، به سكان كثيرون ، لا يتكلم عن أى شقة يسكن ، أم أنه يسكن ــ مع أسرته ــ فى حجرة ، أم أنه بلا أسرة . يقول الولد : أشيل عنك يا أستاذ . يحتضن ما يحمله بيديه ، ويهز كتفيه رافضاً . يتجه إلى داخل البيت . وكان يظهر ضيقه إذا مد أحد الجالسين يده فى جيبه ليدفع الحساب . ربما أقسم ، ثم يهمل القسم ، ويترك دفع الحساب لسواه . وكان أشد ما يعتز به أنه سافر إلى القاهرة لمشاهدة موكب المحمل ، فاستطاع أن يتبرك بملامسته ..

قال فهمى الأشقر :

ــ وهل ستعلم الأولاد الإنجليزية ..

تفكر للحظة ، ثم قال :

ــ لن تبخلوا علىّ بإنجليزيتكم !

قال الكاشف فى نبرة مجاملة :

ــ الكتاب خدمة عظيمة للقرآن الكريم ..

وسرحت نظرته فى المدى :

ــ سيدى البوصيرى افتتح ــ لأعوام ــ كتّاباً لتحفيظ القرآن ..

تنبه إلى ضرورة الجلوس على القهوة بما يتحدث عنه : خبر فى الراديو ، حادثة فى جريدة ، معلومة فى كتاب . يعتزم استعادة تعبير التقطته أذناه . ربما رأى فى الطريق ما يصلح لحكاية ، وربما سجل ما استوقفه فى ورقة صغيرة ، يدسّها فى جيب الجاكتة العلوى . يشد انتباههم ، طرف خيط ينسجون منه حوار القعدة ..

قال الشيخ أبو دومة :

ــ نعم .. أيامه كانت كلها حفظاً لكتاب الله !

قال إبراهيم سيف النصر:

ــ البوصيرى هو الموظف الوحيد الذى صار ولياً .. ولو أنصفوا لجعلوا كل الموظفين أولياء ..

قال الكاشف فى لهجة معتذرة :

ــ لكن البوصيرى الموظف فعل ما لم نستطعه نحن ..

وأعاد كوب الشاى إلى موضعه على الطاولة ، وأضاف :

ـ أتدرى أنه طالب منذ ألف عام بقانون من أين لك هذا ؟..

وجاشت عواطفه :

ـ الرجل أمضى حياته الوظيفية بلسانه وشعره حتى فصل من عمله ..

وتنحنح ليزيل حشرجة فى حلقه :

ـ كانت الوظيفة هى الصراط الذى مشى عليه سيدى البوصيرى إلى الصوفية ..

ونقر على الطاولة بأصبعه :

ـ سيدى أبو الدرداء ولى فاضل .. لكن الطوربيد الذى تلقاه بيده ، وألقى به فى البحر .. لم يكن الكرامة الوحيدة التى أنقذت الإسكندرية من دمار محقق .. فعل البوصيرى الشئ نفسه أكثر من مرة ..

علت وجه سيف النصر ابتسامة واسعة :

ــ رفض أبو الدرداء أن ينتقل من مكانه ، فوسّعت البلدية الشارع من جانبيه لكى يسير الترام .. كرامة لا تقل عن كرامته فى إنقاذ الإسكندرية من الطوربيد !..

فوت الكاشف الملاحظة :

ــ من حق سيدى البوصيرى أن يصبح ولياً ..

أفاد من قراءاته عن ولى الله ..

منذ ولد فى البهنسا حتى أسلم الروح ــ وهو قطب ذائع الصيت ــ فى الإسكندرية : شرف الدين البوصيرى ، حاول أن يجمع بين نسبه إلى دلاص وبوصير ، سمى نفسه الدلاصيرى ، لكن الناس درجوا على تسمية البوصيرى : محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن أبى سرور بن حيان بن عبد الله بن ملاك الصنهاجى . امتداد الانتماء إلى فروع قبيلة صنهاجة العربية فى بلاد المغرب . هل كان افتقاد العدل هو الدافع للتصوف ؟.. وهل كان تصوف الناس رفضاً للواقع أو فراراً منه ؟.. لماذا رفض وظيفة محتسب القاهرة ؟ لماذا أبى أن يتقلدها ؟..

يغمض عينيه . يتخيل نفسه مريداً فى مسجد الظاهر ، يستمع إلى مدائح البوصيرى النبوية . ينشغل ــ مثل الآخرين

ــ بتدوينها وروايتها . المطولة النبوية ، البردة وغيرها ، فرار من واقع لا أمن فيه . يعانى الإحباط والعجز والقهر . بدت غريبة دعوته ترك جهاد المغول والصليبيين ، ومواجهة عدو الداخل : الفساد والظلم . قال : إن اصلاح البلاد ينبغى أن يبدأ من الداخل . عورضت البردة عشرات المرات ، وشرحت مئات الشروح ، وترجمت إلى ما يصعب تذكره من اللغات . لها من الكرامات ما يفوق الحصر ، ما يجاوز تصديق العقل البشرى . تقرأ فى الخلوات ، وفى حلقات الذكر . شرط قراءتها الطهارة والوضوء واستقبال القبلة . اتخذها الناس تمائم تمنع ، أو تشفى ، من الأمراض ، أو من أذى طوائف الجن . قيل إن الضريح كان متواضعاً ، بنى بالحجر الجيرى ، وغطى بالأعشاب . زار البوصيرى ــ فى المنام ــ محافظ الإسكندرية فى عهد الوالى محمد سعيد . دله على مكان قبره ، وطلب منه بناية الجامع فوقه . اعتذر المحافظ إلاّ إذا وافق الوالى . زار البوصيرى محمد سعيد فى الليلة التالية ، فشيد الجامع ..

أضاف قراءة البردة إلى سور القرآن . صوت خافت منغّم ، يتوسل بهما حتى يخلو نومه من الأحلام المزعجة والكوابيس ..

قال المهدى اللبان :

ــ مدد يا بوصيرى ..

ثم وهو يميل طربوشه إلى الوراء :

ــ لا تنسوا ياحضرات .. الليلة سهرة أم كلثوم ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ ربما استمعت إليها فى بيت صديق .. الصحبة حلوة!

قال عبد الله الكاشف :

ــ منذ بدأ السنباطى فى التلحين لها .. أظهر أجمل ما فى صوتها ..

قال سيف النصر :

ــ لا أحد ينكر قيمة ألحان زكريا والقصبجى ..

قال الكاشف :

ــ خلقت موسيقا السنباطى من أجلها ..

غمز فهمى الأشقر بعينه :

ـ الأغنية الوحيدة التى أحبها : حمامة بيضا ومنين أجيبها .. طارت ياعينى عند صاحبها..

الراحة والألفة . هؤلاء الجالسين قريبون منه ، وأصدقاؤه . لا يتصور أنه يحيا بدونهم . بدوا طيبين . أحاديثهم تنقله من جزر الوحدة إلى عوالم يتعرف إليها للمرة الأولى ، وتدهشه ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـ صفيرك لاسترجاع الحمام ، يصلنى فى بيتى ..

فى حوالى الثامنة والأربعين . أهم ما يميزه عينان صغيرتان تنطقان بالطيبة ، وملامح منبسطة . مفلفل الشعر . على جانب وجهه خيط أسود طولى . خمن عبد الله الكاشف أنه من تأثير عملية . له شارب نحيل ، يميل إلى الصفرة . يضع فى عرقة جاكتته قرنفلة حمراء . عندما يتكلم ، تغلب عليه حماسته ، ويكثر من الإشارات . يمسح جبهته بجانب يده ، ثم ينتر العرق حقيقة أو وهماً ..

جعل فهمى الأشقر الحمام هوايته . يستهويه هديله . يجيد التفرقة بين أنواع الحمام اليمانى والهزازى والشقلباظ وحمام الزاجل . بنى له بنية فوق سطح البيت المطل على

شارع التتويج . يفتح عصـــر كل يوم ــ عقب عودته من عمله ببورصة مينا البصل ــ أبواب الكوات المغلقة . يقضى ساعة فى ترتيب البنية ، ينظفها ، ويغيّر ماءها ، ويستبدل الحب إن اختلط بالوسخ . يقف على كتفيه ، ورأسه ، ويأكل من يده . ثم يتوزع فى أسراب ، تعلو البيوت والقباب والمآذن . ربما تمضى إلى السلسلة ، أو قلعة قايتباى ، أو حاجز الأمواج فى مدخل الميناء . يصفر بنغمة تعرفها ، فتعود . ربما عادت بحمائم من بنيات قريبة ، وبعيدة . وكان دائم التردد على العطارين . يشترى أزواجاً من الحمام ، أو يوفق بينها وبين ما عنده . يضيفها إلى البنية الخشبية ذات الكوات المستديرة ..

لاحظ عبد الله الكاشف أنه يكثر من القسم بالطلاق تأكيداً لكلامه ، أو لانتزاع موافقة محدثه ..

ــ أصارحكم بأنى أنظر إلى الحمام وهو يحلق فى الجو ، فأحسده ..

زاد فى فضوله همس إبراهيم سيف النصر وهو يتلفت حوله :

ــ أدهم أبو حمد .. حكم عليه الإنجليز بالإعدام ..

أعاد تأمل الرجل الصامت فى كرسيه . ممتلئ الجسم ، ذا وجه أبيض مشرب بحمرة . ملئ باللحم . تناثر النمش فى جبهته وخديه . يرتدى نظارة طبية فوق عينيه ، وإن بدت فى سواد إحداهما نقطة بيضاء . يميل بذقنه على صدره ، ويغمض عينيه . يتصور من ملامحه المسترخيـــة ، الساكنة ، أنه أغفى . تشرق الأحاديث وتغرب ، فلا يبدو أنه يدرى بما يجرى من حوله ، ثم يفاجئه ــ ألف الباقون التصرف فلا يفاجئهم ــ برأى أو تعقيب ، ثم تميل ذقنه على صدره ثانية ، ويغمض عينيه ..

برقت عيناه باهتمام :

ــ الإعدام ؟!.. ولكنه ..

قال سيف النصر :

ــ ظل مختفياً حتى وقعت اتفاقية الاستقلال ..

قال الكاشف فى حيرته :

ــ لماذا ؟

ــ أتهم بقتل عسكرى إنجليزى ..

التفت ــ بتلقائية ــ ناحية أبو حمد :

ــ لا يبدو أنه يستطيع قتل دجاجة ..

ـــ كان من أنشط أفراد الجهاز السرى للوفد ..

ثم وهو يدارى تأثره :

ـــ أصيبت عينه من تعذيب الإنجليز فى معسكرات كوم الدكة .. وزاد من تألمه أن السجن ضيع عليه فرصة إتمام تعليمه .. غادره ليعين ـــ بعد وساطات ـــ فى وظيفة صغيرة بديوان المحافظ ، حتى أحيل إلى المعاش ..

كانت نظراته محايدة ، ووجهه خلا من انفعال ما ، لا حزن ولا غضب ولا فرحة . عينان باردتان ، لا تعكسان أى تعبير . ربما لأنه قد جرّب ـــ فى حياته ـــ كل الانفعالات ، فهى لا تبين فى أقواله وتصرفاته ..

قال له فى نفسه : لماذا تحتفظ بهذا القناع الجامد ؟.. هل المناضل السياسى يجب أن يكون عابساً ؟..

لم تكن ملامحه تشى بالتأييد أو الرفض لاختلاف الرأى ، يحتفظ بمشاعره وآرائه ، لا يعلنها ، وإن بدا مهموم النفس دائماً ، وذهنه مشغول بمشكلات لا يبوح بها . الجهامة التى تكسو وجهه لم تكن تأذن له بأن يتعرف إلى أسرار حياته . إذا تحدث اتجهت كلماته إلى العموميات ، لا تنحاز إلى وجهة نظر محددة ، ولا تؤكدها . مرة وحيدة علا صوته بالغضب

لدفاع إبراهيم سيف النصر عن موقف النحاس فى حادثة ٤ فبراير . قال :

ــ لم يعد الوفد وفداً منذ خان سعد القضية !

وخالط صوته نبرة حزينة :

ــ أفندية الوفد أصبحوا باشوات أيامنا !..

أدرك أنه يأخذ على الوفد ما يسخطه ، وإن لم يحاول التعقيب بملاحظة أو برأى . هل هو التألم مما أصبح فيه ، وما كان يتوقعه ؟. لم يكن يحدثه بالبساطة التى يتجه بها إلى الباقين . ثمة مشاعر غامضة تمور فى داخله . ليست مشاعر نفور ولا كراهية ، لكنها مغايرة لمشاعره نحو باقى جلساء القهوة . زادها حرص من الرجل فى إضفاء الهيبة على ملامحه ــ أو أنها طبيعية ــ وتصرفاته ، علا الحاجز بين الرجل وبينه ، لا يأخذ منه ولا يعطى . قرر أن يتقبله على علاته ، دون محاولة للفهم أو التفسير ..

خمن من انتفاخ ركبتى البنطلون ، أن الرجل يحرص على الصلاة . وكان يكثر من الضغط بأصبعه على النظارة فوق أنفه ..

تحدث ابراهيم سيف النصر عن نجاح معهد الأحياء المائية فى نقل زريعة البلطى إلى مياه العيون والمصارف بسيوة . عرفت الواحة ــ للمرة الأولى ــ صيد السمك ..

قال بلهجة العارف :

ــ هذا ما فعله المعهد أيضا فى مريوط وإدكو والمنزلة وبحيرة قارون ..

ثم بنبرة متشكية :

ــ نأمل فى حكومة مستقرة تساعد المعهد على أداء رسالته ..

قال المهدى اللبان :

ــ أية انتخابات قادمة ــ مادامت نزيهة ــ لابد أن تأتى بالوفد ..

تململ أبو حمد فى جلسته :

ــ الوفد ؟ أى وفد ؟.. وفد سعد ومكرم والنحاس وسينوت حنا .. أو وفد سراج الدين وعبد اللطيف محمود وعبد الجواد حسين ؟!..

لاحظ عبد الله الكاشف أن زكى بشارة يستمع إلى المناقشات فى صمت ، كأنها لا تعنيه . سحنته جامدة ، لا

تبين عن انفعال بما ينصت إليه ، أو يتكلم فيه . لا يتكلم إلا لضرورة . لم يكن أحد يتجه إليه بالحديث إلاّ إذا تدخل بحكاية تذكرها ، أو بالرأى ، أو بالتعقيب . يتقبل ما يستمـع إليه بالصمت ، دون أن يظهـر انفعالاً . إذا فاجأه سؤال ، أو ملاحظة تنتظر كلماته ، تعثرت الكلمات بطيئة على شفتيه ، بما يتصور أنه يحمل الإجابة ..

كان يجلس فى القهوة فترة العصر . يلقى السلام ـ بعد أذان المغرب ـ ويمضى فى شارع فرنسا . لا يدعو أحد الجالسين إلى مرافقته ، ولا يتكلم عن المكان الذى يقصده ، وإن روى إبراهيم سيف النصـر أنه رآه ـ فى ليال كثيرة ـ يجلس فى بارات شارع البيار ، وشارع السبع بنات ، وشارع البوستة . يسند كرسيه إلى الجدار ، على الرصيف ، وأمامه زجاجات بيرة ، وطبق ممتلئ بقطع الجبنة التركى والفول السودانى والترمس والخيار المخلل والخس ..

عندما اطمأن إلى إنصاته ، مال على أذنه بصوت هامس :

ـــ لن أنسى المشهد .. كنت عائداً من مشوار بمحطة الرمل .. فوجئت بالرجل يستند إلى نخلة فى طريق الكورنيش ، ويفرغ ما بجوفه ..

قال الكاشف فى تأثر :

ـــ ربما أثقل فى الشرب ..

سكنت ملامحه بالدهشة :

ـــ وما يدفعه إلى هذا ؟!

قال سيف النصر :

ـــ الله أدرى بالظروف ..

ـــ وماذا فعلت معه ؟

ـــ لا شئ !.. صعدت معه إلى شقته ، وفتحت الباب بنفسى .. لم أتركه حتى نام ..

مصمص شفتيه فى تأثر :

ـــ المصادفة ألقت بك فى طريقه .. فماذا عن الأيام القادمة ؟..

أعاد تأمله : الوجه القمحى الشاحب ، والعينان من وراء النظارة الطبية فى إطار ذهبى ، دائرتان سوداوان صغيرتان ، والشفتان المزمومتان على بسمة هازئة ، تأكدت

فى أنصاف الدوائر الرقيقة على جانبى الفم . فى يده خاتم يتوسطه فص من العقيق ، وفى صدره دبوس ذهبى ، واصفرار أصابعه يشى بأنه يكثر من التدخين . يرتدى بدلة كحلية ، يطل منها قميص أبيض ، وكرافتة منقوشة بزهور ملونة ، صغيرة . نادراً ما يضع الطربوش على رأسه ، فهو يكتفى بالإمساك به ..

قيل إنه بلا عمل محدد . يحيا من إرث تركه له أبوه فى مديرية البحيرة . أطيان وعقارات وودائع فى البنوك ، وإن لم يكن يعرف عنها إلاّ ما يبلغه به موظف عهد إليه بذلك كله . له شقة تطل على الميناء الشرقية ، يحيا فيها بمفرده ، ويسافر إلى أسرته فى دمنهور كل أربعاء ، ويعود صباح الأحد . زاره الجميع فى شقته المطلة على الميناء الشرقية . وكان يسافر إلى دمنهور بمفرده . وروى فهمى الأشقر أنه التقى به فى محطة مصر ، فاكتفى بمصافحته ، ومضى إلى القطار ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ هل قرأتم : روسيا أجرت تجربة على القنبلة الذرية..

قال فهمى الأشقر :

ـ مثل التى ألقيت على هيروشيما ؟

قال عبد الله الكاشف :

ـ لعلها أخطر ..

قال زكى بشارة :

ـ هل ننتظر حرباً ثالثة ؟

قال الكاشف :

ـ ستكون آخر الحروب !

ارتعاشةالحلم المنطفئ

نفضت الداية يدها ، وغادرت البيت مولولة :

ـــ الحقوها بالحكيم !..

جرى سيد بالقلق داخل الحجرة . هذه ثانى مرة ينبئ الجنين عن وجوده فى بطنها ، ثم يخذله . البخار يتصاعد من الأوعية المتناثرة فى أركان الحجرة ، يساعد على سرعة الوضع ..

نقلها إلى مستشفى الملكة نازلى ..

قال الطبيب :

ـــ هذه حالة إجهاض ..

وسأل سيد :

ـــ متى بدأ الحمل ؟..

قال سيد :

ـــ هذا شهرها الثالث ..

ووشت ملامحه بالقلق :

ـــ هذا ثانى سقط لها ..

استطرد متذكراً :

ــ أجرت فى المرة الأولى عملية كحت وتوسيع لعنق الرحم ..

أكدت الداية زمزم أنها لم تصادف ــ من قبل ــ ما رأته ...

لما تأخــر الحمل ، نصحتها زمــزم . ارتدت حول وسطها غزل صيد ، لا تخلعه إذا استحمت ، ووضعت حول وسطها قفلاً ، حتى يحدث الحمل . ملأت زمزم فمها من كوب ماء ، ونفخت على رأسها ، وبين ثدييها ، وقالت :

ــ اللهم إنى أعيذها بك من الشيطان الرجيم . اللهم هب أنسية بنت أنور المدفع ما ترجوه من ذرية صالحة !..

حين تأخر دم الحيض ، عرفت أنها حامل . انداحت فى أعماقها مشاعر ترفض الاطمئنان ، وتتوجس من المجهول..

علا صوت زمزم بالنصيحة :

ــ احذرى أكل الكرفس .. خطره أكيد فى حدوث السقط !..

وبسملت ، وحوقلت ، وأطلقت البخور فى أرجاء الشقة:

ــ ابتعدى عن المرضى ، فخطرهم أشد ..

قالت أنسية فى استكانة :

ـــ أنا لا أترك البيت !..

توحمت ..

اشتهت نفسها للحم والعنب والرمان وطين إبليس . لم يحرمها سيد من كل ما اشتهته ، وتوحمت عليه ، حتى لا تنعكس آثاره على جسم المولود . حتى الفاكهة فى غير أوانها ، أوصى قاسم الغريانى وحمودة هلول ومحيى قبطان أن يأتوا بها من المدن التى تسافر البلانسات إلى سواحلها . وأتى لها بأطعمة تفيد الحمل : الزيتون والجبن والخيار والجرجير . وأهداه الغريانى نجم بحر يتفاءل به ، يجلب الحظ ، ويمنع الشر ، ويحدث المأمول ..

شدد عليها ، فأكثرت من أكل الخيار المخلل والبلح والخوخ واللحوم البيضاء والكبد والطحال ، وأكلت البيضة كلها . امتنعت عن شرب الشاى والقهوة ، وأكثرت من شرب الحلبة ، وأكل لحم الضانى والشمبرى . نصيحة عم محجوب حارس حمام الأنفوشى ، كى تنجب ذكراً ، ولداً يحمل اسمه..

أعفت نفسها من واجبات البيت . قام سيد بأدائها عن طيب خاطر . منعها من الوقوف فى المطبخ . لم تعد حتى

تطهو له ، ولنفسها . يدخل المطبخ ، أو يعود بطعام من السوق . أراحها من غسل ثيابهما ، وكنس الشقة ، ومسحها ، وترتيبها ، فلا تتعى هماً . حرص ، فلا يسرد الحكايات الحزينة أمامها ، أو الأخبار السيئة ، أو قصص الولادات المتعسرة . شدّد عليها ، ومنعها من التردد على مناسبات العزاء ، أوزيارة المقابر ، أو ارتداء الألوان الحزينة . وكان يحرص على اعتدال مزاجها ..

أشفق على قعدتها فى البيت :

ــ الشباك أمام الشباك .. لماذا لا تدعين جاراتك لزيارتك ؟..

ــ لا أحب !

ــ لماذا ؟..

ــ افضّل أن أكون فى حالى ..

ــ الناس بالناس .. وقد تملّين الوحدة ..

شوحت بظهر يدها :

ــ اعتدت عليها ..

تمنت ــ فى الأيام الأولى ــ أن تزور وتزار ، لكن معايرة جارة الطابق الأولى صدّت نفسها . أزمعت أن يظل

الباب مغلقاً ، لا تفتحه ولا تواربه ، فتصدمها المفاجأة بما تصورت أنهم لا يعرفونه ، أو تناسوه ..

علا مواء قطة من أسفل البيت . صرخت ــ داخل الحجرة ــ بأعلى ماعندها . فهم ، دون أن يسأل عن سبب الصراخ . نزل ، فطرد القطة ..

حرصت على أن تظل اللمبة المعلقة على باب الشقة مضاءة ، فلا يتسلل الشر إلى الداخل . علقت فى صدرها ما شاء الله زرقاء . دلت رأس بصلة نيئة وحجاباً فوق سريرها ، وحجاباً آخر فوق باب الشقة . وحرصت ــ كل صباح ــ على تبخير الشقة . تبدأ بحجرة النوم ، وتنتهى بالصالة . يظل عود البخور داخل كوب على الترابيزة ، حتى ينتهى ..

قالت للطنطاوى بائع الفول :

ــ لا تلف الطعمية فى هذه الورقة .. أريد صورة الطفل ..

التمعت عينا الرجل بابتسامة . أدرك أنها تتوحم ، تتطلع إلى طفل يشابه ــ فى جماله ــ طفل الصورة ..

قال :

ـــ إذا جاء المولود يشبهك ، فسيكون أجمل من الصورة .. أما إذا جاء شبيهاً لأبيه ، فالعياذ بالله ..

قالت وهى تدارى فمها الضاحك بأصابعها :

ـــ من قال ؟.. أبوه من أجمل الرجال !..

العين لقاطة ..

تعمدت أن تنظر إلى الأطفال والشبان ذوى السحن الجميلة . تلتقط عيناها مناظرهم ، فيأتى الجنين على صورهم..

ابتسمت لتهدئة خطواتها أمام قهوة الزردونى . تطيل النظر ـــ بجانب عينها ـــ إلى قاسم الغريانى : قامته الطويلة ، وشعره الأشقر المنكوش ، وعينيه الخضراوين الملتمعتين ، وبشرته البيضـــاء ، أكسبتها الشمس لوناً برونزياً ، والفم الرقيق الشفتين ، تعلوه ابتسامة طفولية . سبقته إلى بيت سيدى داود ثلاث مرات ، ثم لم تعد تراه . شحبت صورته باقتصار علاقتها على سيد . وتذكرته فى توحمها على الولد . تمنت أن يكون ولدها فى مثل فحولته ووسامته ..

ألقت زمزم بشئ فى صدرها . تحرك ، فصرخت ..

قالت المرأة :

ــ لا تخافى .. هذه ضفدعة ذكر .. لكى يأتى المولود ذكراً !..

وشى انتفاخ صدرها بالحمل الذى تنتظره ..

اعتادا التمشى على الكورنيش إلى السلسلة . تتشابك أيديهما ، ويتكلمان ، ويحلمان بالمستقبل ..

سأل بالقلق :

ــ لماذا ؟..

قال الطبيب وهو يعينها على القيام :

ــ هل كنت تعانين متاعب نسائية قبل الزواج ؟..

فى حوالى الخمسين . يرتدى بالطو أبيض . نحيل القامة ، شعره الأبيض الكثيف يضفى عليه مهابة . أبرز ما فيه حاجبان أسودان كثيفان . يرتدى نظارة طبية مقعرة فى إطار ذهبى ، تبدو عيناه من ورائها دائرتين سوداوين صغيرتين . وجهه ساكن الملامح ، لا يعبر عن انفعال . وعلى شفتيه بسمة ثابتة ، تخفى ما يدور فى داخله .

هل يورطها ، فتحدثه عن أحوالها القديمة ؟..

ــ هل تصعدين سلالم ؟..

قالت :

ــ أسكن فى الطابق الأرضى ..

حدجها بنظرة متأملة :

ــ هل تحملين فى عملك أشياء ثقيلة ؟..

ومض فى داخلها شعور بالتباهى :

ــ أنا ست بيت !..

ــ هل تربين قططاً أو كلاباً ؟

وهى تشير إلى سيد :

ــ لا .. أحيا مع زوجى وحده ..

قال الطبيب :

ــ هل تأكلين بسطرمة أو بولوبيف أو لحوماً نيئة ؟

لوت بوزها بما يعنى التقزز :

ــ لا أحب اللحوم النيئة .. وآكل البسطرمة والبولوبيف أحياناً ..

قاطعها الطبيب :

ــ لاداعى !.. لعلك مصابة بطفيل التوكسوبلازما ..

رمقه سيد بنظرة متسائلة :

ــ ماذا ؟

قال الطبيب :

ــ المهم أنه يؤدى إلى الإجهاض أو قصور نمو الجنين فى الرحم ..

ثم بلهجة تأكيد :

ــ لذلك حدث الإجهاض ..

قالت أنسية :

ــ هل إذا امتنعت عن أكل البسطرمة والبولوبيف يأتى الولد ؟..

قال الطبيب :

ــ هذا مجرد احتمال .. الجرثومة التى تؤدى إلى الإجهاض موجودة .. وأسبابها كثيرة !..

وداخل صوته رنة اشفاق :

ــ لعله مجرد التهاب .. علاجه تناول قرص إسبرين كل مساء ..

أضاف مستدركاً :

ــ أو كل صباح ..

أعاد سيد القول من خلال حيرته :

ــ هذه ثانى مرة ..

قال الطبيب وهو يشير إليهما بالانصراف :

ـــ ما دمنا قد توصلنا إلى السبب .. فلابد أن نتوصل إلى العلاج ..

علقت على باب حجرة النوم خمسة وخميسة ، ونعل حذاء ..

قال سيد :

ـــ ألم يكفك التعاليق على باب الشقة ؟!..

وهى تواجه الفراغ بأصابع مفتوحة :

ـــ حتى ترد العكوسات أمام من يزورنا ..

وغمغمت :

ـــ أنا لا أطمئن إلى نفسى !..

نذرت ـــ إذا أنجبت ـــ أن تتولى التسحير فى شوارع بحرى وحواريه وأزقته . تحمل الطبلة ، وتدعو الناس إلى السحور ..

ابتسم سيد لفكرة النذر :

ـــ هل خلت الدنيا من الرجال ؟..

قالت :

ـــ رأيت بنفسى مسحراتية من النساء ..

أين رأت ؟..

تنبه لسخف السؤال ، فابتلعه .

تصاريف التدابير

سعى إلى أقرب طاولة فى القهوة ، وجلس ..

ماذا لو أنه طلب إجابة مهجة : هل هى تريده ، فيعاود التقدم إليها ، أو أن عباس الخوالقة سيزوجها لآخر ، بعد طلاقها من فؤاد أبو شنب ، فيكتم على الخبر ماجوراً ، وينسى الأمر ..

عانى ، فتمنى الموت حين عرف بزواج مهجة من أبو شنب . ثم صادق اليأس . لم يعد لديه أمل يربطه بها ، ولم يعد يذكر ما حدث إلاّ أن تعيده عبارة ، وربما أعادته رؤيته ــ مصادفة ــ لعباس الخوالقة ، أو محمود ، فى شوارع الحى . لحظات تتباعد ، ثم تختفى . وعرف بطلاق مهجة من فؤاد أبو شنب ، فلم تعد حياته حياته . تبدّل كل شئ . لم يغب وجهها عنه فى الأيام التالية : العينان البنيتان ، الواسعتان ، والشعر الأسود المنسدل عى كتفيها ، والوجه الباسم ، والشفتان الرقيقتان كورقتى وردة . عادت مهجة إليه ، وعاد إليها . تسدل شعرها من البلكونة . يتسلقه . تغلق عليهما باب الحجرة . تكلمه ، ويتبادلان النظرات ، ويتلامسان بالأيــدى ،

ويتمشيان على الكورنيش ، وفى حدائق النزهة وأنطونيادس والشلالات ، ويصحو على عينيها ، ويحاول النوم بعد أن يلقى عليها السلام ..

أظهر المعلم كشك ضيقه من إطلاق لحيته . لم يحلقها منذ فض الشيخ طه مسعود حفل الزفاف . طالت لحيته ، فغطت عنقه . كستنائية اللون بما يناقض سواد شعر رأسه :

ــ هل مات أبوك أو أمك ؟..

قال هشام :

ــ واحد شايل ذقنه ..

قاطعه المعلم كشك بصوت زاعق :

ــ كلم أباك بأدب ..

وتململ فى جلسته :

ــ لم يبق إلاّ أن تتبع الشيخ حماد ، أو تقف على باب أبو العباس !

رحب المعلم عباس الخوالقة بالزيارة . قدم شاياً وبارداً ، وأفاض فى الذكريات الجميلة . أكدت أمه أن مهجة وهشام مخطوبين منذ طفولتهما . لم تشر إلى فسخ القران ، ولا إلى زواج مهجة من فؤاد أبو شنب ..

قال عباس الخوالقة :

ــ ربنا يعمل ما فيه الخير ..

وظلت لهجته على ودّها :

ــ أمهلونا لسؤال البنت ..

أدرك أنها مطلقة ، فأردف :

ــ يجب سؤال مهجة ..

ضربت أمه على صدرها بعفوية :

ــ هل تأخذ موافقتها على ما كانت قد وافقت عليه من قبل؟..

قال الخوالقة :

ــ الظروف تغيرت ..

وفاجأ هشام بالسؤال :

ــ أنت تعود لخطبة مهجة وما زلت طالباً ؟..

قال هشام :

ــ أنا فى السنة النهائية بكلية الحقوق ..

فى سخرية :

ــ لم تعد الحقوق ــ فيما أعلم ــ كلية الوزراء ..

ــ إذا وفقنى الله صرت وكيلاً للنيابة .. أو اشتغلت بالمحاماة ..

ارتفعت نبرة السخرية :

ــ ألتقى بالمحامين على باب المحكمة الكلية .. يعرضون الترافع مقابل خمسة وعشرين قرشاً ..

تدخل المعلم كشك :

ــ جئنا لخطبة البنت ، لا لسماع مثل هذا الكلام الفارغ ..

قال عباس الخوالقة :

ــ من حقى أن أطمئن إلى مستقبل ابنتى ..

قاطعه المعلم كشك :

ــ وليس من حقك أن تهين الناس فى بيتك ..

ونفخ المعلم وهو يتعثر فى ظلمة شارع السيالة :

ــ رجل قليل الأدب ..

ثم وهو يهز رأسه فى دهشة :

ــ يريد الرجل المغفل إقناعى بأن لابنته كلمة فى زواجها..

قال له حسنين الدمنهورى :

ــ مالك ؟..

كان قد ارتدى أفرول محطة البنزين ، وتهيأ للإنصراف..

أشاح هشام بيده :

ــ لا شئ ..

قال الدمنهورى :

ــ هل شاركت فى المظاهرات ؟..

رفع عيناً متسائلة :

ــ أية مظاهرات ؟..

ــ معقول !.. الناس بالآلاف يهتفون ضد الملك ..

ــ أين ؟..

ــ فى كل مكان ..

وضرب الهواء بقبضته :

ــ فاتك نصف عمرك ..

قال هشام فى صوت ممزق :

ــ فاتنى عمرى كله ..

احتواه بحنو واضح :

ــ مالك يا أستاذ هشام ؟.،.

ــ قلت لا شئ ..

ــ أنت تحمل الدنيا بدلاً من الثور ..

وهو يظهر التألم :

ــ أنا قرفان .. هذا كل شئ !..

اتجه بنظرة غير متأملة إلى شارع فرنسا ..

كانت شمس الأصيل تعلو الجدران ، والمارة قليلين ، وشيخ يطل من نافذة لوكاندة دمياط المقابلة . ورائحة المخ واللسان والكوارع والممبار المحشى والكرشة والفشة تترامى من المسمط المجاور . وثمة عربة حنطور تغطت بالكبود ، واهتزت عجلتاها بالسير على قطع البازلت الصغيرة ..

تنبه على قول جنيدى بصوت يعلو عن الهمس :

ــ زار القهوة صباح اليوم أحد المرشحين ..

ثم بصوت ملون النبرات :

ــ عرض مبلغاً لجعل القهوة مقراً انتخابياً ..

قال من بين شروده :

ــ من هو ؟

ــ لا أعرف .. فى حوالى الخمسين ، ويرتدى بذلة وطربوشاً ..

ــ كل المرشحين يرتدون البدلة والطربوش ..

استطرد فى غضب :

ــ ما هو الحزب الذى يمثله ؟..

ــ لا أعرف !

جز على أسنانه :

ــ لا أعرف ! لا أعرف ! .. ما عملك فى القهوة إذن ؟!.

ورمقه بنظرة فاهمة :

ــ أثق أنك وراء مجىء هذا الرجل ..

أشار جنيدى إلى نفسه :

ــ أنا ؟!

مال بظهره إلى الوراء :

ــ هل تحسبنى لا أعرف سبوبة المحكمة الشرعية ؟!..

كانت القهوة بالقرب من المحكمة الشرعية . وكان المترددون على المحكمة من المحامين وأصحاب الدعاوى وموظفى المحكمة ، يلتقون فى القهوة ، للتحدث فى القضايا ، وعقد الاتفاقات والمحاسبة . لم يفت هشام ولا نزلاء القهوة ترحيب جنيدى بالقادمين من المحكمة . يناديهم بأسمائهم ، ويدخل معهم فى مناقشات هامسة ..

بدا غياب جنيدى جزءاً من حياة القهوة . ألف اعتذاره بشراء حاجيات من السوق ، أو أداء الصلاة فى مسجد تربانة ، أو لقاء صديق فى شارع الميدان . ورأى جنيدى وهو يدخل المحكمة الشرعية ، ويخرج . دقائق الغياب فى الداخل يسبقها ، ويليها ، همسات جنيدى وغرباء . المشاريب تبرير لجلوسهم . ربما انصرفوا دون أن يقربوا ما طلبوه . عرف بصلاته مع المحضرين وسكرتيرى المحكمة ووكلاء المحامين . التقط من تعبيراته فهمه لقانون الأحوال الشرعية . وكان يخرج من جيبه نوتة صغيرة ، يسجل فيها ــ لابد ــ مواعيد المحامين ، وأصحاب الدعاوى ، ومواعيد الجلسات .. ذوى الاهتمام بتعويض الرجال ما كان على جنيدى أن يفعله أوقات غيابه . جاوز الأمر لقمة العيش فى المحكمة الشرعية إلى مناقشة جعل القهوة مقراً انتخابياً ..

هل يطول الانتظار حتى يبيع جنيدى القهوة ؟..

قال جنيدى :

ــ يقصدنى بعض المترددين على المحكمة ، فأدلّهم ..

وشت الكلمات بسخرية :

ــ سأدعوك جنيدى المحامى ..

فى لهجة متذللة :

ــ أنا خادمك يا أستاذ هشام .. ما أفعله خدمات للناس ..

شعر هشام أن الموقف أبسط من أن يثير فيه كل هذا الغضب . يعلو بصوته ، ويحرك شفتيه بالأسئلة والاتهامات ، لكن النيران المشتعلة فى داخله تنشد فوهة بركان تنطلق منها ..

الانتخابات !..

لم يكن يحب السياسة ولا الأحزاب ، وحين وجد نفسه وسط مظاهرة غادرت باب الكلية ، مال فى أول شارع جانبى..

هبت نذر الرياح الساخنة منذ أسبوع ..

قال المعلم كشك :

ــ تلقيت أكثر من عرض لجعل القهوة مقراً انتخابياً ..

أظهر هشام دهشته :

ــ وأين يذهب ناس القهوة ؟..

قال المعلم :

ــ النشاط الانتخابى له مواعيده ..

ثم وهو يهز إصبعه مذكراً :

ـــ عملنا فى النهار يقتصر على القهوة ..

دخل ثلاثة يرتدون البدل . جلسوا بالقرب من باب القهوة . خمن هشام أنهم قدموا من المحكمة الشرعية ، القريبة . عاد جنيدى بطلباتهم الهامسة إليه . حدجه هشام بعينين غير متنبهتين ، ثم علا صوته بالسؤال :

ـــ ماذا قلت ؟..

قال جنيدى :

ـــ يريدون جعل القهوة مقراً انتخابياً لمرشح الوفد ..

ـــ هل يتبعون المرشح الذى جاء فى الصباح ..

ـــ لا !..

قال عم محمد الطوشى :

ـــ وناس القهوة ؟! ..

قال أوسط الرجال الثلاثة :

ـــ تعرف أن القهوة لوكاندة أيضاً ..

وأضاف مذكراً :

ـــ لن نحتاج إلى القهوة فترة الليل ..

ماذا جرى فى الدنيا ؟ ..

إعلان موعد الانتخابات ضغطة زر تحرك بعدها الجميع : اللافتات ، والسرادقات ، والبرامج الانتخابية ، واللقاء فى البيوت والدكاكين ، وجلسات القهاوى ، والمشاركة فى المناسبات ..

قال هشام :

ــ والدى من محبى سعد باشا ..

ومد يده للمصافحة :

ــ لكن القهوة مكان أكل عيش ..

قال أوسط الرجال :

ــ نحن نحتاج مكاناً يلتقى فيه مرشح الوفد بناخبيه ..

قال هشام :

ــ أهلا بكم .. وإن كانت الكلمة لأبى .. المعلم كشك ! ..

آفـــاق قريبـــة

فاجأه بالزيارة ..

كانت أنسية قد انصرفت ، وتهيأ للنوم . حدثته ــ للمرة الأولى ــ فيما لم يكن يتصور أنها تبوح به : تأخر الانجاب ، والخوف من المستقبل . وقفت إلى جانب الطرقة المفضية الى داخل الشقة . ترتدى جلابية من الكستور ، وتحيط رأسها بمنديل أسود ، وحافية القدمين ..

قال مهوناً :

ــ الأولاد عطية من الله .. قد يمنحها ، وقد يمنعها ..

قالت أنسية :

ــ سيد لا يعرف ذلك ..

علا صوته بالدهشة :

ــ أليس مؤمناً ؟

قالت :

ـ مؤمن وموحد بالله .. لكنه يعتبرنى مسئولة عن عدم الخلفة ..

ومضت على شفتيه ابتسامة مترفقة :

ـ ربما العيب فيه هو ..

أطل من عينيها تعب واضح :

ـ يرفض حتى إجراء التحليل ..

ـ خطأ .. الخلفة طرفاها اثنان .. رجل وامرأة ..

فطن إلى أنه ربما سار فى طريق غير مأمونة ، فسكت ..

أجهشت فى البكاء فجأة ، بكاء منفعل عال ، تخالطه شهقات متصلة ، تقطّعت فى نشيج مرتفع . لاحظ ارتعاشة نهديها تحت الجلابية ، فأدار وجهه إلى الناحية الأخرى ..

لم يدر كيف يتصرف :

ـ وحدى الله .. سيكون خيراً باذن الله ..

أمسك رأسه لحظات ، ثم رنا إليها بنظرة مشفقة :

ـ اجعلى سيد يقرأ على رأسك بردة البوصيرى .. ربما تفيد ..

ـ سيد يا دوب يفك الخط ..

ـــ لا نريد أكثر من هذا ..

انتزع ورقة بيضاء من كراسة على بوفيه الصالة . كتب فيها كلمات ، ودفعها إليها :

ـــ هذه الكلمات من البردة .. أعرف أنها للجمع بين النافرين من الأحباب ..

استطرد موضحاً :

ـــ الأزواج طبعاً !..

فى لهفة :

ـــ ليت الكلمات تكون حجاباً يأتى بالولد ..

قهره الارتباك . لم يجد ما يقوله :

ـــ هل أكلم سيد ؟

قالت من بين شهقاتها :

ـــ لو عرف انى أشكو .. قد يطلقنى ..

وهو يمسح ـــ بتلقائية ـــ جانبى فمه :

ـــ لى طريقتى فى الكلام معه ..

أن تعانى مع سيد ، يضايقها ويخاصمها ويثور عليها ، أفضل من التلطم فى البيوت ، تسلم جسمها لمن تختلط ملامحهم فى رأسها . تخلى له أكثر من مساحة السرير ، لا

تسلم عينيها للنوم إلاّ إذا أحست باقتـــراب أنفاسه ، والتصاق جسمه . حتى لو أدار وجهه إلى الناحية المقابلة ، تعزت بسماع شخيره العالى ، لا يضايقها . تحيا بالأمل منذ يعلق الجنين فى الرحم . شحذت الطفل من الله تعالى . نذرت إن ولد الجنين فى موعده ، وعاش ، تشحذ له من المصلين على باب المرسى أو ياقوت العرش ..

دفعت بيديها خطراً غير مرئى :

ــ أنت لا تعرف سيد !

خالط صوته حنو واضح :

ــ زوجك طيب .. لكنك تصعّبين الأمور..

رفضها لتدخله ، وشى بالطريق المسدودة . اكتفى بهز الرأس ، والغمغمة بكلمات لم يتدبرها ، ولا قصد بها معنى محدداً . مجرد أن تنتهى اللحظات القاسية ..

داخلته راحة لاتجاه أنسية الى المطبخ . ظل فى مكانه على الكرسى المجاور للبلكونة المطلة على سيدى البوصيرى . أصاخ سمعه لصوت فتح باب الشقة وإغلاقه . ثم تابعها وهى تميل من البيت ، فى طريقها إلى السيالة ..

مع أنه اطمأن إلى إبراهيم سيف النصر ، وتكلم معه فيما لم يكن يتصور أنه يبوح به . أنس إليه ، فأقبل عليه . أفرغ له كل ما فى نفسه . لم يفــرق بين ما يمكن البوح به ، وما هو سر . حتى دخائل بيته لم يكن يجد حرجاً فى روايتها .. مع ذلك ، فإنه كان يجد فى جلساء القهوة معارف ، شركاء وقت ينتهى بانقضائه ، لا تمتد تأثيراته إلى حياته فى البيت ، ولا خارجه ..

لاحظ أن الرجل يحرص على ارتداء البدلة والكرافتة ، ويضع الطربوش على رأسه . لا يبدل حرصه طيلة العام . يمسك فى الصيف مذبة يطرد بها الذباب ، ويخرج ــ من جيب الجاكتة ــ منديلاً ، يمسح به العرق فى وجهه وعنقه ، ويدسه فى الجيب ثانية ..

استأذن ــ لامتلاء جسمه ــ فى الجلوس على الكنبة المواجهة للطرقة ..

ــ هذه موضوعات تهمك ..

دفع له بمجلة لم يتبين اسمها ..

قلب الغلاف وصفحات فى الداخل :

ــ واضح أن موضوعاتها عن الشيخوخة ..

قال أدهم أبو حمد :

ــ هذا صحيح ..

داخله شعور لم يألفه من قبل . قلق غامض لا يدرى مصدره ، وإن حمل إليه شعوراً بأن زيارة الرجل تحمل ما ينغص عليه ..

أضاف أدهم أبو حمد وهو يحك جبهته بظفر إبهامه :

ــ اشتريتها منذ أيام .. تصورت أنها قد تفيدك ..

ولون صوته بنبرة إشفاق :

ــ أنت الآن فى سن الشيخوخة ..

كان الموت دائم الإلحاح فى الفترة الأخيرة . لكن الكلمات ضايقته . كره الوجه الأبيض المستدير ، المشرب بالحمرة والنمش ، والعينين الساجيتين المطلتين من نظارة طبية ، واللغد الذى يغطى الرقبة ، فتبدو مدسوسة داخل الجسم ، والأذنين الكبيرتين ، يتوضح تجويفهما على جانبى الوجه ..

ما معنى الشيخوخة ؟..

إنه ينام ، ويصحو ، ويأكل ، ويقرأ ، ويستمع إلى الراديو ، ويخرج ، ويجلس على القهوة ، ويتمشى على

الكورنيش . لا يشغله العمر ، وما إذا كانت له طبيعة تستدعى المراجعة . خرج إلى المعاش فى السن القانونية . لم يقرن انقطاعه عن العمل بمعنى آخر . الوحدة هى ما يضايقه . أحس بها قبل أن يبلغ المعاش بسنوات ..

الشيخوخة ؟ .. ما هى ؟ وما صورته فى أعين الناس ؟ وكيف يجب أن ينظر إلى نفسه ؟ هل يقرأ ، ويتبع إرشادات ، ويلتزم بما لم يكن مهيئاً له ؟..

اغتصب ضحكة :

ــ بلوغنا سن المعاش لا يعنى الشيخوخة ..

وهو يعالج ربطة الكرافتة :

ــ المكابرة مرفوضة .. علينا أن نحسن مواجهة ما تبقى من أيامنا ..

وأطل فى عينيه أسى :

ــ الشخص البدين يموت دائماً قبل السبعين ..

واحتواه بنظرة متأملة :

ــ قوامك يمنحك فرصة العيش الى سن متقدمة .. أما أنا ..

وأشار إلى جسمه :

ـــ لابد من أن ألتزم برجيم حاد لإنقاص وزنى ..

خشى أن يكون الضيق ظهر عليه . حين أتبع نجاتى جرسون قهوة المهدى اللبان كلامه معه بالقول : يا بركة . بدت الكلمة ثقيلة الوقع . لم يعد هو . لم يعد مثل الأيام الخوالى . لعمره الحالى أسماء وصفات تقال لمن هم فى سنه . مجرد أنه يحيا ، يأكل ، وينام ، ويجلس ، وينقل خطواته ، وينتظر ..

فرضت المجاملة تظاهره بالإنصات . تمنى لو أن الرجل أنهى كلامه ، وانصرف . فكر أن يقاطعه ، يحدثه فيما اعتاد تناوله . بحث عن طرف الخيط مرات ، ثم أفلته ..

قال ليجاوز الإطار الذى وضع فيه الرجل حديثهما :

ـــ أخبرنى صديقنا إبراهيم سيف النصر ببطولاتكم ..

زوى ما بين حاجبيه :

ـــ أية بطولات ؟..

قال الكاشف :

ـــ مشاركتكم فى أحداث ثورة ١٩١٩ ..

غلب على لهجته فتور :

ـــ شقاوة شباب !..

لاحظ عزوفه عن الحديث فى نشاطه السياسى ، مشاركته فى الأجهزة السرية ، ظروف اعتقاله والحكم عليه بالإعدام ، وإفلاته من حبل المشنقة . منطقة يخفيها ، لا يتكلم عنها ، ولا يشير إليها . إذا شعر بتلميح للاقتراب منها ، تقنفذ ، ولزم الصمت ، وإن تناثرت فى عبارات مبتسرة ، لمحات من حياته ، ومضات فى مساحات من السواد . الحياة فى الخطر والخوف وتوقع المجهول : تنقل الإقامة بين أكثر من مكان ، النـــوم بعينين نصف مغمضتين ، الاندساس فى الزحـــام ووسط الناس ، الحذر من الأعين المتسائلة والمتوجسة ، متابعة ما تنشره الصحف . وقائع كثيرة ، كان الفضول يناوشه للتعرف إلى ملابساتها . لكن الجهامة التى كسا بها الرجل وجهه ، تصده ، وإن أعطى انتباهه لكلام إبراهيم سيف النصر عن الرجل ، وللمعلومات الومضات التى يعقب بها الرجل على مناقشات القهوة ..

قال فى لهجة محرضة :

ـــ مقاومتكم للإنجليز لا تسمى شقاوة شباب ..

ـــ خرج الإنجليز ، فكتم أنفاسنا من هو شر منهم !..

ـــ ذلك لا يلغى أنك واجهت الإعدام ؟!..

ـــ وهل يختلف الأمر فيما نحياه الآن ؟..

ـــ طبعاً .. جهاد هذه الأيام يقتصر على المظاهرات وتحطيم الدكاكين والتراموايات ..

بدا له الرجل كارهاً للناس ، عزوفاً عن مخالطتهم ، إلاّ بما يمليه عليه الشعور بالوحدة . فهم بواعث كرهه لحزب الوفد . ظلمته قياداته . أكلته لحماً ورمته عظماً ، لكن الناس ، حتى الذين يترددون على القهوة ، لا يعرفون شيئاً من الماضى الذى رواه له عنه إبراهيم سيف النصر ..

أصاخ السمع لأصوات بعيدة غير مرئية ، بينما الرجل يواصل التحدث فيما لم يعطه انتباهه . داخله ـــ للمرة الأولى ـــ إحساس بالضيق ، وربما الكره ، من الرجل . يتكلم ويتكلم . تعمد ألا يتنبه للتعبيرات والمعانى ، وإن توضحت كلمات لم يحاول وصلها بالسياق ، ولا تدبر دلالاتها . ضايقته ، فأهملها . شوش عليها فى داخله ، فلم تصله ..

أغمض عينيه كالمنصت . يقاوم الرغبة فى إسكات الرجل ، فى دفعه خارج الباب ، هو والمجلة ، ونصائحه ..

أخرج أدهم أبو حمد من جيب بنطلونه الصغير ، الأمامى ، ساعة فضية بكاتينة . تأملها ، ثم أعادها ..

ــ أستأذن !

تنبه للعبارة لما أعادها الرجل بصوت مرتفع . كان قد ألقى بنفسه فى جزر بعيدة ، لا تصلها حتى أصداء كلام الرجل ..

فز بتلقائية ..

سبق إلى باب الشقة . استعصت الكلمات المودعة ، فاكتفى بهز رأسه ، واستعار بسمة ود ..

ظل على صمته ، وهو يغلق الباب .

قوت القلـــوب

" يا ألله ، يا نور ، يا حق ، يا مبين . احى قلبى بنورك ، وأقمنى لشهودك ، وعرّفنى الطريق إليك "

من دعاء الشاذلى

***

" بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم صلى وسلم بجميع الشئون فى الظهور والبطون ، على من منه انشقت الأسرار الكامنة فى ذاته العلية ظهوراً ، وانفلقت الأنوار المنطوية فى سماء صفاته السنية بدوراً ، وفيه ارتقت الحقائق منه إليـــه ، وتنزلت علوم آدم به فيه عليه ، فأعجز كلاً من الخلائق فهم أودع فى السر فيه "

من الوظيفة الشاذلية

***

إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصدقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات

والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات . أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً

قرآن كريم

***

قال ابن عطاء الله :

" لو انقطعت عن الخلق ، لفتح لك باب الأنس به تعالى ، لأن الأولياء قهروا أنفسهم بالخلوة والعزلة ، فسمعوا من الله وأنسوا به ، فإن أردت أن تستخرج مرآة قلبك من الأكدار فارفض ما رفضوا ، وهو الانس بالخلق "

" لا يفُتْك مجلس الحكمة ، ولو كنت على معصية ، فلا تقل ما الفائدة فى سماع المجلس ، ولا أقدر على ترك المعصية ، بل على الرامى أن يرمى ، فإن لم يأخذ اليوم يأخذ غداً "

يا لائمى فى الهوى العذْرىِّ معذرةً   منى إليــك ولو أنصفت لـــم تلم
عدتــك حالى لا سِــرِّى بمستتـــر   عن الوشــاة ولا دائى بمُنْحسم
محضْتَنى النصح لكن لست أسمعه   إن المحب عن العذّال فى صمم
إنى اتَّهمت نصيحَ الشِّيْب فى عَذَلٍ   والشَّيب أبْعَدُ فى نُصْحٍ عن التهمِ

منذ غادر ياقوت العرش للمرة الأخيرة ، لم يعد يتردد على جامع أستاذه السلطان ، ولا جامع ابن عصــره البوصيرى . كان يتردد على حضرة الأحمدية الشاذلية فى جامع سيدى عبد الرحمن بن هرمز بشارع رأس التين ، ومسجد الحامدية الشاذلية فى غيط العنب ، وزاوية الطريقة فى منطقة شماعة وفيكتوريــا ، يكتفى بالإنصات والمشاهدة . ثم ألف جلسة السماع فى مسجد تربانة بشارع فرنســا . واجهته الطوبية تشى برائحة القدم . يختاره لأنه بلا مقام ولا ضريح ، فلا يغضب تصرفه أقطاب الحى من أولياء الله . يصعد السلالم المتآكلة ، يعبر الردهة الصغيرة إلى صحن المسجد ، فرشت أرضيته بالحصير ، وتدلت من سقفه الخشبى لمبات خافتة الضوء . شكل الجالسون ما يشبه الحلقة ، تحدها أعمدة الرخام الثمانية . خلا المسجد إلاّ منهم . حتى مصلى الحريم الخشبى غرق فى ظلمة شفيفة ، ولا صوت سوى حركة الطريق ، تتصاعد خلل النوافذ الأربعة الموازية..

التحاب فى الله خير صحبة ، والأنس بالمريدين والسالكين أنس بالله . لم يعن بالسؤال عن الطريقة التى

ينتمى إليها المشاركون فى السماع ، وما إذا كانوا من الشاذلية ، أم من الرفاعية ، أم من الجيلانية ، أم التيجانية ، أم هم من أتباع السيد البدوى ؟ . لكل صوفى حد محدود ، ومقام معلوم ، ودرجة مفروضة ، لا يستطيع أن يتجاوزها ، أو يسبقه من يتبعه ، وهو يقف قبل الحدود والمقامات والدرجات . لم تكن الصوفية هى الطريق التى تصوّر أن قدراته تؤهله للسير فى طريقها ، ولا الغاية التى يطمح للوصول إليها . غابت عنه مصطلحات الصوفية وأسرارها ، ولم يلتق فى طريقه بما يعرف أن الصوفية يلتقون به : القبض والبسط والهيبة والأنس والوجد والشوق والانزعاج والفناء والبقاء والغيبة والحضور وغيرها من التجارب الروحية . يثق فى عدم القدرة على حضور القلب مع الحق ، ولا مشاهدة فيوضات النور ، ولا التعرف إلى الغائب من الأسرار والأنوار ، ولا يتوقع استقبال الواردات والإلهامات والخواطر . ما يشغله أن يدلّه القطب سيدى ياقوت العرش ، أو سواه من الأقطاب العظام ، على الموضع الذى يستقر فيه سيدى الأنفوشى . يسأله ، فيجيب عليه ، يتعرف منه إلى ما ينبغى فعله ، تشف المـرئيات عن ملامحها الواضـحة .

يبادئه الحق بالكشوف وأنوار اليقين ، فيركن إلى الدفء والحب والملاذ والحنان والرحمة والحماية والوصال والتجدد والانبعاث والتحقق والاهتداء ..

هذه الجلسة هى قوت القلوب ، تشبعها ، وتروى ظمأها . يلتزم السكون وعدم الحركة ، وإن أعطى لسماع حودة بدران والرجال فى دائرة حوله . هم الصحبة والإخوان يبدأون بتلاوة الفاتحة ، ثم تعلو الأصوات بالقول : لا إله إلاّ الله ، ثلاث مرات ، ومحمد رسول الله ، مرة واحدة . وتتلى الآية : " إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليماً " . ثم تعلو الأصوات ـــ ثانية ـــ بالصلاة على النبى ، وتتلى الأحزاب والأوراد والأهازيج الصوفية ومدائح الرســول والتسابيح والأدعية والابتهالات . تصمت الأصوات وتهدأ . يحل السكون المشبّع بالأصـــوات الباطنة ، تعمل على هياج ما فى قلبه من محبة ، وما فى نفسه من مجاهدة . يسحب الشيخ ذو اللحية البيضاء ، والجلباب الأبيض ، من المكتبة الخشبية الصغيرة قرب المنبر والمحراب ، نسخاً من بردة البوصيرى ، يوزعها على حلقة الرجال . يبدأ حودة بدران فى إنشاد البردة ، خفيضاً

منغماً ، ثم يعلو الشدو . التآلف فى وحدة النطق ومقاطع الأصوات ، وعلو النبرات وانخفاضها . لا حركات ولا اهتزازات عنيفة ولا رقصات . حتى الأصوات لا ترتفع أكثر مما ينبغى ، فللمسجد حرمته . يخلص فى فهم ومعرفة معانى الكلمات المسموعة ، الأبيات التى أعطاها الإمام البوصيرى ذوب نفسه ويقينه ، فكافأه الرسول بإلباسه بردته الطاهرة . يحرص على حضور القلب فى السماع ، وعلى عدم الغفلة ، والانشغال بما يصرفه عن الأجواء العلوية فى داخل نفسه ، أو من الخارج . تتهيأ النفس لقبول الأنوار الإلهية والمواهب ، ترفع الحجب التى اكتسبتها النفس . ينصت إلى الأبيات المحمّلة بالتحذير من هوى النفس :

فإن أمّــارتى بالسُّــوء ما اتعظــتْ   من جَهْلها بنذير الشَّيْبِ والهــرم
ولا أعدّت من الفعل الجميــل قرى   ضَيْف ألمّ برأسى غيرَ مُحْتَشــم
لــوْ كُنْتُ أعْلـــَمُ أنّى ما أوقــره   كَتمتُ سِراً لابد لى منه بالْكَتَــم
من لى بـــــرد جماحٍ من غوايتهــا   إن الطَّعام يُقَــوّى شَهْــوَةَ النَّهِم
والنفسُ كالطِّفل إن تُهْمِله شَبَّ على   حُبِّ الرضاع وإن تفطمْهُ ينْفَطِــمِ

لم يعد يعدل عن هذا السماع ، ولا يجد فى يومه ما يشغله عنه . هو شرط فى الإيمان يحرص عليه ، يمارسه من أجل التطهر والصفاء ، يحرص على أداء الصلاة فى مسجد تربانة . ينتحى ــ عقب الصلاة ــ ركناً فى الصحن

المستطيل ، المطل على شارع فرنسا . تستلذ نفسه بالسماع ، وتستروح إليه . يبدأ المنشدون فى التحلق حول حودة بدران ، يبدو بقفطانه البنى الطويل ، والعمامة ذات الطيّات المتعددة ، كأنه غير ذلك الذى يغنى فى أفراح عقد القران والزفاف والختان ، وينشد القصائد والمواليا والأهازيج فى الموالد وحلقات الذكر ، ويرتّل التواشيح والمدائح النبوية وتسابيح السحر . يشدو الصوت الدافئ ، القوى ، بآيات البردة ، تمدح الرسول ، وتعدد مناقبه . يحسن التقطيع والترجيع . تعيد الحلقة من حوله ترديدها :

ظلمت سنة من أحيا الظـلام إلى إن اشتكت قدماه الضـر من ورم
وشـد من سغب أحشاءه وطـوى تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم
وراودته الجبـال الشـم مـن ذهب عن نفســه فأراهـا أيّما شمَـمِ
وأكَّدَتْ زهـده فيـها ضرورتـه إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيـا من العـدم
محمد سيـد الكونين والثقليـن والفريقين من عـرب ومن عجـم

يطوى الأيام المتوالية ، يتقوى بالسماع ، يجد فيه استجماماً من تعب الوقت . يجعله زاده ورفيقه إذا خلا إلى نفسه ، يشغله حتى عن الطعام . لا تتوق نفسه إليه . السماع الصافى يعادل طعام أيام بأكملها . وجد فى السمـاع ما ينهض بنفسه إلى ما يحميها من سيطرة الهوى عليها ، سبيلاً

إلى الحـــق تعالى ، وإلى تحصيل العلــوم والمعرفة والفهم . يشعر بالنور الإلهى فى البردة . الأبيات الحافلة بالإشارات والإيحاءات ، تصفّى نفسه من وساوس النفس وخنسها . يحاول التنبه إلى المعانى ، وفهمـــها . القلب هو الذى يصغى ، والنفس تتأمل ، والسماع طريقه إلى التطهر والصفاء ، والتشوق إلى الجنـــة ، والرهبـــة من النار . يتملكه حال من الوجد تغيب آفاقه . ينتقل من شهود الخلق والأغيار إلى شهود نور الحق .

السماع الصافى أورد فى نفسه غذاء الروح ..

هو ليس من أولياء الله ، وإن غبطهم على مطلق المعرفة بالأسماء والصفات الإلهية . اكتفى بعالم المشاهدة وتلبية الأمر والخضوع ، فهو لا يسير فى طريق الصوفية من الغيبة والحضور والصحو والسكر والوجد والهجوم والغلبات والفناء والبقاء . قصرت نفسه عن مجرد التمنى بأن تحصل على التجلى ، وتتنور بالأنوار الإلهية . ذلك فضل من الله ، يخص به أنبياءه ورسله وأولياءه ..

لم تعد له إرادة . ترك أمر تصرفاته ، حركاته وسكناته ، لتوجيه أولياء الله . هو بشر ، وللبشر طاقة احتمال . كل

يسر لما خلق له . لا مفاضلة ولا اختيار . حبس نفسه عن المخالطات . تخلى عن صحبة الخلائق ، والاتصال بهم . فتح المعاملة مع الحق . عمر قلبه بذكر الله وحبه ، وصفت نفسه من الشهوات والأهواء والأكدار ، واجتنب التبعات . استعاض بعبادة الليل والنهار عن كل عادة . صار أكثر انعزالاً ، وأشد رغبة فى السكون ، وإلى التأمل الهادئ . ينصرف الذهن عن كل الموجودات ، يغيب حتى عن حواسه ونفسه ، وتهيم روحه فى نور العشق ، ويلامس برد الرضا والتسليم ..

***

مضى ــ بعد السماع ــ ناحية ميدان الخمس فوانيس ، ومنه إلى شارع الأباصيرى . أعطى فكرى جرسون قهوة مخيمخ بقجة الثياب المتسخة . يعود بها ــ ثانى يوم ــ مغسولة . دس فى يده مبلغاً . ما قدمه له الناس . لا يسأل ، وإن قبل ما وهبه له الله بواسطة عباده . يذهب فكرى بها إلى أم الأولاد . تنفق منها على احتياجات البيت ، لا ذنب لها ، ولا لأولادها فيما أعد له نفسه ..

اخترق الزحام ، جسده مع الخلق ، وعقله وباطنه مع الله تعالى . قطع العلائق واليأس مما فى أيدى الناس . تخلص من حظوظه وأوصاف بشريته ، وغسل قلبه من العوارض ، وحبس نفسه من الاحتراق بأمور الدنيا وزخرفها ، وحرص ألاّ يملك شيئاً ، فلا يملكه شئ . ينظر إلى الأمام ، لا يلتفت ، ولا يعنيه ما حوله ، لا يلحظ حتى ما يجرى له ، أو عليه . أقبل بالهمة على ما أمره سيدى ياقوت العرش بالاتجاه ناحيته . لا يصطنع المجاهدات ولا الرياضات الشاقة . ألقى القياد إلى أولياء الله ، وترك نفسه سلماً بين أيديهم . لا يشقيه إقبال من أقبل ، ولا إدبار من أدبر . ترك الإرادة والفعل ، وترك الاعتراض فيما لا يلائم . يتطلع إلى تجليات الإشارات الربانية ، يكتفى بالإشارات المقتضبة ، لا يجاوزها إلى التصريح فى لحظات ــ لا يتوقعها ــ تنداح فى داخله ، عاطفة صاخبة ، تملأ نفسه ، ويهتز لها قلبه . يشعـــر بميل إلى احتضان من حوله ، يعرفهم ، أو يلتقى بهم للمرة الأولى ..

* * *

في ميدان الخمس فوانيس ، بدّل طريقه إلى شارع الأباصيرى ، بدلاً من رأس التين . دهمه شوق إلى المرأة والأولاد . تمتم ــ ليصرف الخاطر ــ بآيات وأدعية ، لكن الأمواج علت فلم يقو على دفعها . اخترق ميدان أبو العباس إلى شارع سيدى كظمان . بدت له الشوارع الضيقة ، الملتوية ، المتشابكة ، مغايرة لما تركها عليه قبل عام . أطال الوقفة أمام البيت ذى الطابقين والنوافذ العالية ، المغلقة ..

ارتبك لصوت مفاجئ فى مدخل البيت ..

عاد إلى الشوارع الضيقة ، المتشابكة ..

الصورة خارج الإطار

سراى الحقانية ..

عجب للشعور داخله بأنه غريب عن المكان . النخيل الملكى ذو اللون الأبيض والقامة المعتدلة فى ميدان المنشية ، والحدائق الواسعة ، وتمثال محمد على الكبير ، ومبنى البورصة ، والبحارة الأجانب تدلقهم السفن ، فيتوزعون فى الشوارع القريبة من الميناء ، يتبعون أقدامهم إلى كوم بكير فى اللبان ، وإلى البارات المتناثرة فى شارع البوستة ، وشارع السبع بنات ..

تردد على السراى خمسة وثلاثين عاماً . استند إلى الأعمدة الرخامية الهائلة . صعد على السلالم العالية ، اعتاد الأسقف المنقوشة ، والجدران ، وصورة الفتاة المعصوبة العينين تحمل ميزاناً متساوى الكفتين . تنقل بين الحجرات . تعامل مع القضاة والمحامين والوكلاء والعرضحالجية وأصحاب الدعاوى والمتهمين . حتى السطح صعد إليه للبحث فى ملفات القضايا القديمة ، داخل حجرات الأرشيف..

لحقه ــ وأسعده ــ صوت الساعى عبد الفضيل :

ـــ حمد الله على السلامة ياعبد الله أفندى ..

كان يحرص على الوصول إلى سراى الحقانية فى الثامنة صباحاً ، أو قبلها . يطمئن ـــ فى الساعة ـــ إلى سلامة التوقيت . إذا كانت متوقفة ، أو غير مضبوطة ، كتب الوقت بالساعة والدقيقة إلى جانب التوقيع . ينتظر ـــ بعد الظهر ـــ حتى يوقع الجميع . لم يعد مرتبطاً بأى موعد ، ولا أى عمل . ليس ثمة إلاّ الجدران ، والصمت ، وأصداء الذكريات . بوسعه أن يصحو فى الوقت الذى يختاره ، وينام دون أن يخشى تأثير السهر على موعد استيقاظه . يسبح ـــ بمفرده ـــ فى بحر العزلة . فراغ عريض ممتد ، بدايته منذ غادر السراى للمرة الأخيرة ، ونهاية تبدو غائبة الملامح . هل يقضى بقية حياته وحيداً داخل الشقة ، فى الحجرة المطلة على المنور الداخلى ، والمطبخ ، ودورة المياه ، والحمام ؟ هل تمضى الحياة فى طريقها الوحيدة ؟ هل تقتصر على مجرد الأكل والنوم وانتظار مجهول لا يعرف ملامحه ؟..

المكاتب متجاورة ومتقابلة بامتداد الحجرة المستطيلة ، فوقها أكداس عالية من الملفات وأعداد " الوقائع المصرية " ، وفى الأركان دواليب خشبية ، تفز منها الملفات ..

نظر ــ بطرف عينه ــ إلى موقع مكتبه ..

جلس عليه جمال عيسى نائب الإدارة . كتب بنفسه ــ فى أسبوع العمل الأخير ــ خطاب ترقيته إلى منصب مدير الإدارة . هنأه ، وتمنى له التوفيق .. لكن المشاعر الغامضة الغريبة المحيرة ، انداحت فى داخله ..

مضى عليه فى هذا المكان ، فى هذا المكتب ، مع هؤلاء الموظفين ، أو من سبقوه إلى المعاش ، معظم سنوات عمره . لم يكن يختلط بجيرانه من سكان البيت ، ولا أصحاب الدكاكين القريبة ، لكنه كان يدخل مع الجالسين حوله وأمامه مناقشات متسعة الآفاق . الأوضاع السياسية والأحزاب والعلاوات والترقيات والأسعار وأحوال الجو وأخبار الجرائم .

ابتسم لرؤية عبد المحسن فوزى وهو يأكل ساندوتشاً على مكتبه . ظل ــ إلى قعوده فى البيت ــ يصر على تطبيق التعليمات : المكتب للعمل .. أما الأكل والشرب ، فمكانهما البيت أو القهوة . اقتصرت إجازاته على وفاة أبويه ، وزواج الأختين ، واشتداد المرض عليه . واشتهر بحفظه للقوانين واللوائح والتعديلات والأوامر المصلحية . وكان

يساعد زملاءه ويعطيهم خبرته . يستعيد من الذاكرة أرقام اللوائح والمنشورات والقوانين ، ومضمونها ..

لا يذكر أنه جلس على قهوة ـ فيما عدا مرات قليلة لمجالسة زائر ـ أو شارك فى غير أحاديث العمل . يثق أن الموظف المسئول يبتعد عن القيل والقال ومواطن الشبهات . عرف عنه حبه للعزلة ، فلا علاقة له بالجيران فى البيت ، أو أصحاب الدكاكين . ينزل الطريق ليذهب إلى الحقانية ، ويعود منها . ربما اخترق شارع الميدان ، يشترى احتياجات البيت . فإذا دخل الشقة لا يغادرها إلى صباح اليوم التالى ، أو يخرج لقضاء ضرورة ، كالحلاقة ، أو التردد على الطبيب ، أو صلاة الجمعة ..

قال لبسيونى البتانونى ، لما عرض فكرة إقامة حفل تكريم له :

ـ أفضل أن يهدى المبلغ إلى عبد الفضيل حتى يذكرنى بالخير ..

أطلق البتانونى ضحكة :

ـ عبد الفضيل لا يذكر أحداً بالخير ، حتى لو منحه مال قارون !..

فاجأه عرض فراج توكل :

ـــ كيف عرفت أن لى أختين لم يسبق لهما الزواج ؟

قال توكل بلهجة باردة :

ـــ أعرف !

كان فراج توكل قد قارب الستين . وكان ملفه قد انتقل من الدواليب إلى مكتبه . يعد لحساب مدة الخدمة ، وخطاب الرفت ..

نقل عرض الرجل إلى نبيلة ، فلم ترد ..

حدجها بنظرة متأملة ، يخمن بها صمتها . فضل أن يرفق عرضه بالسؤال :

ـــ هل أبلغه بالموافقة ؟..

حياه فوزى سمعان ، من خلف الدوسيهات والمستندات والأوراق ، فى مكتبه آخر الحجرة الواسعة ..

قال :

ـــ قلبى عندك يا فوزى أفندى ..

قال فوزى سمعان :

ـــ يبدو أن التلميذ لم يستفد من أستاذه كما يجب ..

قال فى تواضع :

ــ أنا فى خدمتك .. إذا أردت شيئاً فاطلبه .. حتى لو شرفتنى فى البيت !..

أسند ملف الخدمة على صدره ، وهو يهبط درجات سراى الحقانية ..

هل هذا هو آخر عهده بالمكان ؟..

صداقـــة

بدا مختار زعبلة سعيداً وهو يسبق البحار الأجنبى فى شارع أبو الوجاهة ..

قال بالفرنسية وهو يشير إلى طاولة على جانب باب قهوة البحر :

ـــ تفضل !..

غالب البحار تردده ، وأعاد النظر فيما حوله ، قبل أن يجلس ..

قال مختار لنظرة حمودة هلول المتسائلة :

ـــ صديق .. التقيت به خارج الميناء ..

قال هلول فى عجب :

ـــ هل لأنك التقيت به فى الشارع أصبح صديقاً ؟..

وهو يشيح بيده :

ـــ إذا لم تكن صداقتى لرجال البحر .. فلمن تكون ؟

قال قاسم الغريانى :

ـــ إذا لم تكن قد تعبت من البحر ، فإن البحر قد تعب منك ..

والتمعت على شفتيه ابتسامة مترفقة :

ــ من حقك أن تستريح بعد إصابة ظهرك ..

تململ مختار زعبلة :

ــ وهل شكوت إليك ؟!..

مصمص الغرياني شفتيه ، ومضى ..

قدم زعبلة للبحار كوباً من الليمون المثلج . ارتشفه فى تمهل ، ونظراته تحاول التعرف إلى المكان ..

فى حوالى الثامنة والعشرين . يرتدى زى البحارة . لم يحلق ذقنه ، أو حلقها بالمقص ، فبدت متناثرة الشعر . وتخللت بياض بشرته شعيرات دموية دقيقة . وجهه هادئ الملامح ، وعيناه زرقاوان ، وأنفه طويل ، مقوس . وثمة وشم لعصفور أزرق اللون أعلى صدغه . تدلت فى عنقه سلسلة طويلة من الذهب ، تنتهى بصليب صغير ..

كان مختار سعيداً وهو يترجم إلى الرجال فى القهوة ما يرويه البحار . أتقن العديد من اللغات ، وباع الممنوع واشتراه . يعلو صوته بأحداث الرحلات إلى الموانى ، والمدن ذات الأسماء الغريبة . الأفق الذى بلا حدود ، العالم الذى بلا نهاية ..

التقى به على باب نمرة ١٠ . يقايض البحارة وعمال السفن ، على علب الطعام المحفوظ ، والسجاير ، وزجاجات الخمر . خمن من وقفة البحار المتلفتة ، أنه يبحث عن مغامرة . لا يخطئ فى التعرف إلى جنسية البحار . يعرف بلده من سحنته : هذا إنجليزى .. هذا أسترالى .. هذا هندى .. هذا من إفريقيا ..

كان يطيل الوقوف على رصيف باب نمرة واحد . يتأمل الزرقة الممتدة فى الأفق ، والبواخر الضخمة والأرصفة المزدحمة بالمسافرين والعمال والبضائع . يلقى على نفسه السؤال : متى ترفع السلالم ، ويسافر إلى الأماكن التى كلمه عنها ثروت زلابية ، ورآها فى خياله ؟ هل يجوب البحار والجزر والموانى ، ويرى المدن والميادين والشوارع والبنايات والناس المختلفى السحن واللغات ؟.. تثيره حكايات المدن التى لا يعرف منها غير الأسماء : شنغهاى ، ليفربول ، نابولى ، بيريه ، جزر الأوزور .. أسماء يلتقطها من ثروت . يستعيدها ، ويحفظها . يضيف من خياله إلى ما يرويه ثروت لتبين ملامحها ..

سأله البحار ــ بالفرنسية ــ عن قلب المدينة ..

قال زعبلة :

ــ هل تريد مكاناً محدداً ؟

قال البحار :

ــ أبداً .. أريد أن أتعرف إلى المدينة ..

ــ هل أنت بمفردك ؟

لاحظ التماع الخوف فى عينى البحار . قال فى لهجة متوددة :

ــ كنت بحاراً مثلك .. لكن ظروفى تمنعنى الآن من ركوب البحر ..

وأشار بامتداد يده :

ــ هل تريد أن أعرفك بالمدينة ؟

حدجه الرجل بنظرة متشككة ، كمن يحاول سبر مشاعره . تأمل حركة الطريق من حوله : الدكاكين والوكالات والقهاوى وعربات اليد المكدسة بالبضائع على الأرصفة ووسط الشارع . أسبتة الخضار ، وأقفاص الفاكهة ، وبراميل الزيتون ، وقوالب الجبن التركى ، والعطارة ، وطاولات السمك ، والذبائح المعلقة ، والأقمشة ، والنداءات ،

والصيحات ، وروائح الشواء والعطن والمياه الراكدة والمخلفات ..

أخرج عوداً من علبة الكبريت . تشاغل بتسليك أذنه ، وتأمل الصملاخ العالق بعود الكبريت . قلب الأمر فى ذهنه . لاك فى فمه كلمات ، لم ينطقها ..

ثم تبع مختار ..

دار به على بارات العطارين والسبع بنات والمنشية . باع له ساعة فى دكان ساعاتى على ناصية وكالة الليمون . جلسا تحت تمثال سعد زغلول . تمشيا على شاطئ الكورنيش . تلذذ البحار بطعم الفول عند الطنطاوى ..

حين بدا التعب على وجه البحار ، عبر به الطريق إلى الجهة المقابلة . اخترقا ميدان أبو العباس ، وحوارى السيالة ، إلى قهوة البحر فى شارع أبو الوجاهة ..

تحدث قاسم الغريانى عن امرأة مالطية تعرف إليها فى كوم بكير . ظلت العلاقة بينهما ، فزارته فى بيته . لم يختتها أهلها كعادة النصارى ، فكانت تعلن بالصراخ عن إحساسها باللذة ..

قال محيى قبطان :

ـ مصيرك إلى جهنم ..

أطلق شخرة :

ـ جميل .. حتى لا أشعر بوحشة ..

ولجأ إلى التعبير بيديه :

ـ بنت المرة !.. كنت أضع يدى على فمها حتى لا يأتى الناس على صراخها ..

ثم وهو يتجه نحو مختار بنظرة محرضة :

ـ اسأله يا مختار .. هل تختتن نساء النصارى ؟

هم مختار أن ينقل السؤال إلى البحار المشغول بالحكى ، والرد على الأسئلة ، يلجأ إلى هزة الرأس ، وتعبيرات اليدين ، فى إحداث لغة ترافق الكلمات التى يثق أن الرجال لا يفهمونها ..

تبين مختار سخف الكلمات ، فقال :

ـ زار كل بلاد الدنيا ، فاسألوه عن رحلاته ..

قال محيى قبطان ليبدّل الكلام :

ـ أمضيت الليل بمفردى .. كان الأولاد فى فوزى منيب ..

قال الغريانى :

ـــ ولماذا لم تذهب معهم ؟

ـــ ليس فى الفرقة من فوزى منيب إلاّ اسمها ..

قال خميس شعبان :

ـــ قيل إن فرقة أحمد المسيرى بدأت عروضها أمس ..

قال محيى قبطان :

ـــ كان الفن فى تلك الفرق .. زمان .. أيام حامد مرسى وعقيلة راتب وسيد سليمان وحمادة العطار ..

وقال فى سخرية :

ـــ رأيتها العام الماضى .. بدأت بأغنية " ياللى زرعتوا البرتقان " ، وانتهت بها .. فيما عدا الأغنية ، لا أذكر شيئا ..!

لمح جابر عم محمد الطوشى قادماً فى أول الشارع ، قامته القصيرة النحيلة ، وخطواته السريعة . يسبقه النداء بلهجة شامية منغمة :

ـــ هات للخواجة بسبوسة ..

لم يعد الطوشى يحمل صينية البسبوسة على رأسه . استأجر دكاناً فى التقاء شارع إسماعيل صبرى بشارع فرنسا . اطمأن إلى انتظام حالها ، فتركها لشاب نوبى الأصل . ثم

كلف نجاراً فى سوق الدقاقين ، صنع له عربة ، جزؤها العلوى زجاجى . أضاف إلى البسبوسة أنواعاً أخرى من الحلويات : كنافة ومعمولة وحلاوة مولد ..

استأذن حمودة هلول :

ــ إلى أين ؟..

ــ سأخطف رجلى إلى الحلقة .. أوصيت على أقتين لحم ترسة ..

قال محيى قبطان :

ــ ربما تفوتك صلاة الجمعة ..

وربت كتفه :

ــ انتظر إلى الأحد .. تذبح الترسة فيه الآن مثل الجمعة ..

ــ صباح الخير يا مختار ..

التفت بألفة التعرف إلى الصوت :

ــ ثروت ..

نسى ما حدث فى انشغاله بالقهوة . غابت الأسئلة عن يسرية ، هل ماتت ميتة ربها ، أو أن ثروت قتلها ؟..

لم يعد يقف على شاطئ الأنفوشى ، يترقب الإشارة ، يصعد السلمات التسعين . الأسماء الجميلة تومض فى عينيه من رسائل ثروت . يعطى سمعه للحكايات عن البحار والموانئ والمدن البعيدة . كنوز الحكايات تنسيه اللحظة التالية ، يتمنى امتدادها واتساعها ، فلا يشغله حتى ما أعدت له يسرية نفسها ، يتوقع ما لا تتوقعه . هو ــ وحده ــ ما يطلبه ، يعطيه انتباهه . لم يعد كذلك يلتقى بثروت . كأنه سافر بلا عودة ، أو أنه عاد فأغلق عليه باب بيته . ذوت الحكايات ، وإن تمناها ، وتمنى السفر . يركب البحر فلا يظل فى ترقب ما لا يتوقع رؤيته . غابت كل الملامح ، فلم يعد إلاّ حب السفر والإبحار ..

ــ قلت أسأل مادمت لم تسأل أنت ..

ثم وهو يحرك بإصبعيه ياقة الجلابية :

ــ عدت ــ مثلك ــ من أهل البر ..

بحلقت عينا مختار :

ــ ألن تعود إلى البحر ؟..

أشاح بيده :

ــ تبت عن السفر ..

ــ لماذا ؟..

ــ شبعت من البحر ..

ــ هل البحر أكلة تملأ بطنك ؟!

ابتسم للعبارة :

ــ تساوت عندى كل المدن .. وتعبت من المغامرة ..

ــ ركوب البحر مغامرة ؟!..

وشى صوته بانفعال :

ــ لا أطيق البعد عن بحرى ..

أنت لا تتوسل الحكايات عن عوالم لا تراها . أقعدتك الإصابة ، فهل نسى ثروت زلابية ــ أو تناسى ــ زمالتكما فى ركوب البحر ، إلى ما لم تعد تتذكّره من الموانئ والمدن ..!؟

همس فى نفسه :

ــ يسرية ؟..

قال لها :

ــ ألم يلاحظ ثروت شيئاً ؟..

هزت كتفيها :

ــ لا يوجد ما يلاحظه ..

باحت عيناه بكلمات ، فقاطعته :

ـــ لا تعد إلى هذا الكلام ..

هل ماتت ؟.. هل قتلها ؟.. قراءة الرسائل جرّتنى إلى مالم أكن أتصور أنه يحدث . احتلت يسرية رأسه ، وإن لم يتحدث عنها ، ولا تحدث ثروت ..

قال ليجاوز الحرج :

ـــ لابد أن سحر عروس الآن ..

ـــ فى الابتدائية ..

ـــ تقيم معك ؟..

ـــ عند أمى فى العصافرة ..

بدا على ثروت أنه يغالب التأثر :

ـــ أصارحك بأنى كنت ألقى على نفسى السؤال ـــ على البعد ـــ فى الفترة الأخيرة : هل سيقدّر لى رؤية بحرى مرة أخرى ؟..

وقت للأمـــل

فتحت النافذة ، فاقتحمت الحجرة جلبة الطريق . صيحات الباعة ، ونداءاتهم ، وصوت الراديو فى القهوة القريبة ..

اعتمدت بكوعها على الإطار السفلى ، وأسندت ذقنها على راحتها ، وشردت فى المدى الصاخب ..

طالت أوقات تمددها فى السرير . تسلم عينيها للنوم . تضع يديها مشتبكتين تحت رأسها . تحدق فى السقف والجدران . تتأمل تكوينات تساقط الطلاء تسند خدها على راحتها ، وتتجه ــ من الضلفتين المواربتين ــ إلى الطريق بعين سارحة . تشرد بذهنها فيما تتذكره ، وما يفد إلى بالها . تختلط الخيوط . أشد ما يضايقها نظرات النساء المتصعبة ، والمصمصات ، والدعوات : ربنا يعوض عليكى ، والتأكيد على الوصفات الناجحة ..

أحست بما صعب عليها تبينه : غيرة ، أو حرج ، أوضيق ، عندما رأت سيد يلاعب طفلاً فى الشارع . لم

تعرف الطفل ، ولا إن كان من أبناء الجيران . جاشت مشاعرها ، وغالبت الدموع . اختنق صدرها بضيق ، همهّا أن تتخلص منه . تشممت رائحة البركان الموار داخلها ، يريد أن يقذف بحممه ..

لو أن الطفل ابنها ؟ ابنهما ؟..

شدد عليها الطبيب ، فلا تتحرك فى السرير حتى تلد :

ــ إذا قمت سيسقط الجنين ..

تمددت على ظهرها . عيناها تحدقان فى الظلام ، تشرد فى آفاق غير مرئية . لا صوت إلاّ تنفسّها . تبدو الحجرة زنزانة ضيقة ، مصمتة . لو أن سيد أمامها . يدور بينهما كلام ، مجرد أن يتبدد الصمت من حولها ..

حاولت أن تتقى العين الحاسدة بتلاوة آيات القرآن والرقى والأدعية ، ورش الملح والأرز والحمص . علقت فى صدرها ، وفوق السرير ، تعويذات من العين والخرزة الزرقاء ، وصنعت عقداً من الودع ..

قللت من مغادرة البيت . حتى شقة عبد الله الكاشف قللت التردد عليها . فى بالها كلام الطبيب ، وخشيت أن تلقاها ــ ولو مصادفة ــ امرأة فقدت وليدها ، فيواجه طفلها

المصير نفسه . لكنها أحكمت الملاءة حول جسمها ، وتركت البيت فى غبشة الفجر ، قبل أن يصحو سيد . اخترقت شوارع السيالة إلى الحلقة . انتظرت ــ بالكوب ــ ذبح الترسة . دفعت بالدم الساخن فى حلقها دفعة واحدة . كان الحاج محمد صبرة فى درس المغرب ، والدكان يخلو من الزبائن . استأذنت رخا صبى الحاج . خطت على الموسى سبع مرات وقت الصلاة ..

حرصت فلا ترى جنازة تعبر الطريق . حتى الصوات ، كانت تصم أذنيها ، فلا تواصل سماعه ..

زارت الكودية نظلة فى بيتها ..

قالت لها امرأة فى مستشفى الملكة نازلى :

ــ لجأت فارغة البطن إلى نظلة بعد عقم أربع سنوات ، فامتلأ بطنى ..

قالت الكودية :

ــ هل تثقين أن زوجك هو الذى يفعل معك ؟..

شهقت :

ــ ماذا ؟..

قالت نظلة دون أن تغادر هدوءها :

ــ قد تكون معاشرتك دون أن تدرين ، لجان أو عفريت ..

أضافت فى تأكيد :

ــ هذا حدث مع كثيرات .. يعشقها الجن أو العفريت ، فيربط زوجها ، أو يضعف قدرته .. ويمارس هو الفعل !..

وقالت كالمتنبهة :

ــ هل تذكرين الله فى حالة التعرى ، وعند الاغتسال ؟..

أضافت للدهشة المتحيرة :

ــ عند التعرى وقبل مباشرة زوجك ، تبتعد الملائكة ، وينشط الجان .. وإذا أسلمت المرأة نفسها للجان ، فما أسهل أن يؤذوها بالسقط !..

تحسست بطنها . قرأت تلاوات وأدعية ، ووصفت لها ــ حتى يظل الجنين حياً إلى موعد ولادته ــ تحويجة من إكليل الملك ، والبسباسة الهندى ، وجوزة الطيب . ونصحتها بأن تكثر من أكل الكرفس والجرجير ..

قالت وهى تشير إلى الباب :

ــ نفذى ما طلبته بدقة .. واصبرى ..

الصبر !..

اعتادت سماع الكلمة حتى ملتها . قد تصبر ، فهل يقوى سيد على تحمل صبرها ؟!..

ــ حتى ناس البلد يسألون عن الخلفة ..

غمغمت :

ــ ناس البلد ؟!..

التقى به فى زحام شارع الميدان ..

كان يحمل بضائع للكشك من وكالة الليمون . أعاد التأكد من الملامح . مالا إلى جانب الشارع . امتد الكلام عن الغيبة وكفر الدوار والأسماء التى بقيت ملامح أصحابها ، أو غابت ، أو نسى الأسماء ..

رفع عيناً متسائلة :

ــ هل تزوجت ؟..

نظر إلى الأرض ليدارى الارتباك :

ــ الحمد لله ..

ــ عندك أولاد ؟..

ــ لم يأذن الله ..

ــ لو أن الحاج والحاجة أحياء ما أرضاهما ذلك ..

فطن إلى ارتباكه ، وتعثر الكلمات على شفتيه . قال :

ــ ربنا يطعمك !

لاحظ سيد ارتشافها مالم يتبينه من كوب كبير . رشت الباقى حول السرير ، قبل أن تصعد إليه ، وتنتظر ..

لفت حول جامع أبو العباس سبع لفات ..

لحقها التعب ، وخافت من إهمال أمر الطبيب ، فاستراحت على السور الحجرى ، ثم واصلت السير ..

نذرت ــ إن أطعمها الله بولد ــ بإحياء ليلة ، توزع فيها الخبز والفول النابت ، للسلطان وياقوت العرش والبوصيرى ونصر الدين وأولياء الله . ونذرت للسلطان بذبح خروف . لم يشغلها تدبير ثمنه . همها أن يأتى الولد ..

تأملت قلق سيد فى جلسته على كنبة الصالة . ناوشته..

فاجأها بالقول :

ــ أريد ولداً يا أنسية ..

لطمها الارتباك :

ــ موت المولود معناه أنى أستطيع الخلفة ..

قال :

ــ متى ؟.. الأيام تمضى دون أن تحملى ..

ــ كله بوقته ..

ــ متى يأتى ذلك الوقت ؟..

فى مرح متكلف :

ــ طول بالك على السخن تاكله بارد ..

زوى ما بين عينيه :

ــ ماذا تقصدين ؟

ــ لاشئ .. أقصد أن طولة البال تبلغ الأمل ..

علا صوته بالتذكر :

ــ لماذا لا تزورين سيدى ياقوت العرش ؟

أضاف بنبرة محرضة :

ــ له فى قلوب النساء مكانة عظيمة .. يحرصن على النذر له ، ويسعين إلى مقامه ..

قالت فى تأثر :

ــ لن أنسى له فضل هذه الشقة ..

همس كمن يحدث نفسه :

ــ أنت الآن الشيخة أنسية .. لكنك شيخة مقطوع نذرها!..

***

لمح بائع عقاقير وأعشاب طبية ، يصف بضاعته أول السيالة ..

اقترب منه بحيث لامست شفتاه أذن الرجل ..

ثنى إليه الرجل نظرة متأملة :

ــ لازلت صغيراً ..

ثم وهو يدفع إليه بلفافة صغيرة :

ــ هذا هو الصاروخ .. تقضى به ليالى الأنس ..

أضاف دون أن يعنى بمقاطعة سيد :

ــ لن تطلب المرأة بعد اليوم .. هى التى ستطلبك !..

أمسك سيد بساعد الرجل لإسكاته . قال وهو يتلفت حوله فى ارتباك :

ــ الفحولة موجودة والحمد لله .. أريد ما يساعد على الخلفة ..

وأزاح خصلة الشعر المتهدلة على جبهته :

ــ أريد وصفة للخصوبة لا لتقوية الباه ..

نبش الرجل فى الأعشاب التى لم يكن قد أتم صفها :

ــ هذه تحويجة أعشاب ونباتات .. اشربها فى ماء فاتر قبل النوم ، تضمن حمل امرأتك فى نفس الليلة ..

الانتظـــار

قال أبو الحسن الشاذلى :

" احرص أن تصبح وتمسى مفوضاً مستسلماً ، لعله ينظر إليك ، فيرحمك "

" لا تختر من أمرك شيئاً ، واختر أن لا تختار ، وفر من ذلك المختار ، ومن فرارك ، ومن كل شئ إلى الله تعالى".

" من آداب مجالسة الصديقين أن تفارق ما تعلم ، لتظفر بالسر المكنون "

***

" ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك . فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً . فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب "

قرآن كريم

نادى فى الصباح ــ من الشرفة ــ على بائع الصحف . طالبه بأن يصعد إليه بالأهرام كل صباح ..

كان يهمل حلاقة ذقنه . يترك الشعر ينبت فى شعره ، فلما ظهرت الشعيرات البيضاء فى الفودين وأسفل الذقن ، حرص أن يحلق ذقنه كل صباح ..

لاحظ وجهه فى المرآة ــ للمرة الأولى ــ منذ فترة طويلة . انسحب الصلع إلى معظم رأسه ، فيما عدا الفودين ، تداخل سوادهما ببياض واضح ، وتناثرت بقع سوداء على الصدغين ، وأعلى الوجنتين . وثمة تجاعيد خفيفة حول العينين لم تكن موجودة من قبل ، والشارب تهدل . قال إمام أبو العباس فى خطبة الجمعة : إن حياة المرء محطة قصيرة إلى الآخرة . هو يعرف ما فى المحطة ، لكنه لا يعرف ما فى الآخرة . تغيب الملامح والوقائع إلاّ ما قرأه فى مكتبة البوصيرى ، وما يتناثر فى خطبة الجمعة ، وكلمات زملاء الحقانية من قبل ، وأصدقاء قهوة المهدى اللبان منذ عرف طريقه إليها ..

أقسى اللحظات حين يخلو إلى الطعام بمفرده . يملأه الشعور بالوحدة ، يضايقه ويشقيه . يأخذ ويعطى مع الصمت والفراغ . يدهمه ما يشبه الإحساس باليتم . يفتح النافذة ــ إذا كان الوقت رائقاً ــ فتترامى إليه جلبة الطريق ، أو يعلو بصوت الراديو إذا كان الوقت شتاء . لم يعد يجلس على المائدة . ربما تناول الغداء فى المطبخ ، أو فى الشرفة المطلة على سيدى البوصيرى . واكتشف ــ ذات مساء ــ انه أكل ساندوتش فول ــ قبل أن يصل إلى البيت ــ اشتراه من الطنطاوى بشارع التتويج ..

أعد كوبين من الشاى . وضعهما على الطاولة فى الشرفة المطلة على سيدى البوصيرى . احتسى كوبه ، ثم تذكر أنه أعد الكوب الثانى لعلية . وكانت قد أقامت فى الشقة ــ لأيام ــ قبل أشهر ــ ثم عادت إلى بيت زوجها ..

غلبه الشعور بالوحدة ، وهو يتناول طعامه ــ ذات ظهر ــ فبكى ..

أغمض عينيه ، وضغط على شفته السفلى ، لما خطرت على ذهنه كلمات إبراهيم سيف النصر :

ــ من حقك أن تنعم بالأيام الباقية لك ..

اغتصب ابتسامة متوترة :

ــ وهل الزواج نعمة ؟!

قال سيف النصر :

ــ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ..

علا صوته بالدهشة :

ــ البنون ؟!.. هل أنجب طفلاً يتيماً ؟!..

ــ الأعمار بيد الله !

تناثر الرذاذ من بين شفتيه :

ــ ربنا عرفوه بالعقل !..

لو كان قد تزوج فى شبابه .. هل كانت حياته تبدّلت ؟..

حين يدفع المفتاح فى ثقب الباب . يتصور السكون الخامد فى الداخل . السجن والزنزانة والحصار والعزلة ، تسميات تفضى إلى معنى واحد ، محدد . يمضه الشعور بالوحدة . أصوات أنفاس الوحدة تشاركه أنفاسه ، تسرى فى نفسه بالوحشة والملل ، والتفكير فيما لم يتصور ــ من قبل ــ أنه يفعله . يضبط مؤشر الراديو على محطة الشرق الأدنى ، ثم يحرك مفتاح الصوت إلى نهايته ..

همس لنفسه ــ ذات مساء ــ وهو يمضى من الصالة إلى حجرة النوم :

ــ هل أنتظر شيئاً ؟

وعلا صوته كمن يحادث شخصاً :

ــ هل هناك ما يستحق الانتظار ؟..

ضايقه ظلام الحجرة . انداحت فيها الوساوس والخيالات ..

ضغط على زر الأباجورة . مسح ما حوله بنظرة سريعة : النافذة المواربة ، ينفذ منها نسمات باردة ، والمكتبة الصغيرة ، وضعت فوقها الكتب دون ترتيب ، والمكتب الخشبى الصغير الملاصق للجدار ، ونتيجة الحائط التى أهمل نزع أوراقها منذ أشهر ..

تكور على جنبه ، وأغمض عينيه ..

لم يعد النوم يطيعه حين يضع رأسه على الوسادة . ذلك زمان انقضى . آخر عهده به وداعه لعلية وزوجها ..

أضاف الاستيقاظ على أذان الفجر إلى عاداته . يتوضأ ، ويصلى . يطيل الصلاة والدعوات . ربما يضع على كتفيه تلفيعة ، ويمضى إلى جامع البوصيرى ..

اعتاد الطواف حول مقام السلطان عدداً وتراً من الدورات . ثلاثة ، أو سبعة ، أو تسعة ، حتى يأخذه التعب . ربما طالت وقفته على باب ضريح البوصيرى ، ينتشى بملامسة الداخلين والخارجين ، يتطلع إلى النقوش والمقرنصات وأبيات البردة . وكان يخلو إلى نفسه ، إلى أختيه ، إلى أهل ابتعد عنهم ، وأصدقاء فارقوه . يناقشهم ، يسألونه ويسألهم ، يجيبونه على أسئلته ويجيبونه على أسئلتهم ، تتدافع فى ذهنه مزق من الأحـــداث والكلمات ، متداخلة ومتشابكة ومتقاطعة ، لا يدرى بواعث توضحها ، ولا بواعث اختفائها . وكان يكلم أنسية ، لا يختار كلاماً محدداً ، مجرد أن يطرد ــ من داخله ــ الإحساس بالوحدة . أدرك أن الزمن قد انساب منه . مضى ، فلم يشعر أنه قد صنع بحياته شيئاً . بدا له الموت ــ فى لحظات الضيق ــ أمنية جميلة . لا قلق ولا توتر ولا توقع . بلغت الأعوام مرحلة لابد أن يواجه فيها الموت . أحيل إلى المعاش ، فهو قد أحيل إلى الانتظار . زائر مجهول من المستحيل أن يزيد من دوران العجلة ، بدلاً من الدوران البطئ ، قبل أن تتوقف تماماً ..

لم يعد يجد فى القهوة ما يغريه ، أو يشدّه إليه . ترصد له الملل . ملل من الأحاديث المتشابهة ، كسخونة شمس الصيف الحارة ، اللزجة . راعه الإحساس بالوحدة وهو بين أصدقاء القهوة . الأحاديث لا تنتهى . تشرق وتغرب . خيط البداية فى حادثة قديمة ، أو ذكرى شخصية ، أو نبأ نشرته الصحف . يعلو سؤال ، أو ملاحظة ، أو تعقيب . تتلوه الأجوبة ، متفقة ومختلفة . يتواصل نقاش الموضوع الواحد ، أو تتلاحق الدوائر ــ بتحريك الماء ــ وتتسع . يشارك فى المناقشات ، يلقى سؤالاً ، يرد على سؤال ، توقظه عبارة من الجزيرة التى يحيا فيها بمفرده . كل الأشياء قديمة ، ومعادة ، ومكررة . حفظ المفردات والتعبيرات ونبرة الصوت . كتاب مل قراءته ، يتصور وقع الحدث قبل أن تعلو الأصوات ، وتتناثر الأسئلة والأجوبة والتوقعات . تتكرر ، تصطدم بجدران قريبة . لا شئ يجتذبه أو يستولى على اهتمامه . الأحاديث السياسية وحدها تعلو بالإيقاع ، وتمضى فى مسارب غير متوقعة . ضايقته ملاحظة سيف النصر عن الزبد الذى يتكوم فى جانبى فمه وهو يتحدث . رماه بنظرة استياء ، ثم جرى بالمنديل على شفتيه . وضايقه ــ حين

دخل القهوة ــ توقف الرجال عن الكلام . خمن أنهم كانوا يتحدثون عنه . وكان يضايقه باعة اليانصيب واللب والسودانى والفستق وماسحو الأحذية والمتسولون ..

كان يتنبه من نفسه ، أو يعود ــ بسؤال ــ عن شروده من الأحاديث التى يتبادلونها . يرحل إلى جزر بعيدة ، تختلط فيها الغيطان والسواقى وسراى الحقانية وسوق راتب والطريق الزراعى وصحن البوصيرى وميدان المنشية والكتّاب وليلة زفاف علية وقهوة النجعاوى والكورنيش وتمثال الخديو إسماعيل وسوق الخيط والنافذة الخلفية ..

يتنبه لاسمه ..

يدرك أن السؤال قد وجه إليه ، ولابد أن يشارك فى الكلام . يستعيد السؤال ، ويحاول الفصل بين مجلسه فى القهوة والجزر البعيدة . ربما أدركه تلعثم فى البداية ، لكنه يطمئن إلى لم الخيوط ، ويتحدث . يبدى رأيه ، وإن كتم المخالفة . يسترجع لحظات الوحدة فى الشقة ، فيدرك أن صداقة القهوة أفضل ــ فى كل الأحوال ــ من الحياة وحيداً..

كان يفز من كرسيه ، ويمضى إلى غير هدف ، لا يتلفت ولا يتأمل . يواصل السير حتى يلحقه التعب . يستقل الأوتوبيس أو الترام إلى نهايته ، ويعود . وربما نزل فى ميدان المنشية ، لا يستوقفه رقم الأوتوبيس . يجلس يمين النافذة ، يتأمل الشوارع والبنايات والناس . يظل فى كرسيه حتى يعود الأوتوبيس إلى المنشية ..

لمح فى زحام سوق راتب صلاح الزفزافى يفاصل فى شروة جندوفلى . التقت العينان ، وارتفعت يده لإلقاء التحية ، لكن عينى الرجل خذلته بتصنع عدم رؤيته . غالب حرجه ، وواصل السير ..

هل نسيه الرجل ؟..

تعرف إليه فى الحقانية . زاره ، وأنهى له ــ دون معرفة ــ أوراقاً . عاود التردد مشفوعاً بالصداقة الطارئة ، وجلس . ارتشف القهوة ، وباح بدخائل فى نفسه ، ومشكلات ، وفضفض بما يرويه الأصدقاء ..

هل نسيه ، أو أنه لم يعد له مصلحة فى معرفته ؟!..

توقف الترام فى محطة البوصيرى ..

هم بالقيام ، ثم عاد إلى مكانه : لماذا لا يظل فى الترام حتى نهايته أمام مدرسة إبراهيم باشا ، ثم يعود على قدميه ؟. البيت ينقصه أشياء . وقد يلتقى بزملاء من الحقانية ، أو أصدقاء شباب ، يدعونه إلى القهاوى المتناثرة فى شارع رأس التين ..

فكر فى رد الزيارة لجلساء القهوة . يزورهم فى بيوتهم ، مثلما زاروه فى بيته . مع أن إبراهيم سيف النصر أشار إلى شقته فى البيت المقابل لسيدى على تمراز ، فإنه لم يدعه لزيارته . أدهم أبو حمد زاره مرة واحدة . ضايقه بما تعمد الخوض فيه . خشى ــ إن زاره فى غيبة مناقشات القهوة ــ أن يعود إلى الحديث القديم . تذكر زيارته ، حين تحدث عن تلبّك معوى عانى منه الصغير طيلة الليل ، فلم ينم ..

قال إبراهيم سيف النصر مهوناً :

ــ هكذا الأطفال ..

لاحظ سيف النصر نظرة الدهشة فى عينى الكاشف . كتم كلماته حتى قال له وهما يفترقان ــ أول الليل ــ على ناصية ميدان الخمس فوانيس :

ــ أدهم أبو حمد تزوج على كبر ، وخلّف طفلاً وحيداً منذ عامين ..

لماذا خوّفه من الشيخوخة إذن ؟!..

اخترق الشوارع والحوارى إلى طريق الكورنيش . قبالة سراى رأس التين ، وحدوة النجيل الهائلة الممتدة أمامها..

تسلل إلى نفسه شعور مقبض ، وهو يرى قرص الشمس يغطس فى الأفق . تحل الظلمة بعد قليل . تذوى الظلال وتتلاشى . تصطبغ المرئيات برمادية . يبدو الناس أشباحاً التفوا فى أردية داكنة . يقذف البحر بهواء الليل المشبع برائحة الطحالب والأعشاب ..

تلفت حوله ، ثم أمسك حصاة ملقاة على سور الكورنيش . ألقى بها فى المياه بآخر ماعنده . أحدثت دائرة صغيرة ، اتسعت حتى اختفت ..

عاود التلفت . ثم التقط حصاة ثانية ..

مشارق الفتـــح

قال أبو الحسن الشاذلى :

" وكل مختارات الشرع وترتيباته ليس لك فيها شئ . إنما هو مختار الله لك ، واسمع وأطع . وهذا محل الفقه الربانى والعلم الإلهامى . وهو أرض لتنزل علم الحقيقة المأخوذة عن الله تعالى لمن استوى "

***

قال أبو العباس المرسى :

" الزم ، فوالله لئن لزمت لتكونن مفتياً فى المذهبين : يريد أهل الشريعة أهل العلم الظاهر ، ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن "

***

فقال أبو العباس للحسن الشاذلى :

" يا أبا الحسن ، لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً إلى الله "

أطلق عم شحاتة فراش مدرسة البوصيرى ، صيحة فزع ، لما رأى جابر برغوت مستنداً إلى الضريح . أحاط ركبتيه المضمومتين بذراعيه ، ووضع العصا على كتفه ..

لم يبد أنه فوجئ بدخول عم شحاتة ، ولا تحرك ، لدوران المفتاح فى الباب الخارجى ..

تخلى جابر برغوت عن ركبتيه المضمومتين . سحب العصا من كتفه . ألقاها فى الهواء ، وتلقفها وهو ينتصب :

ــ لا تخف !..

ثم وهو يفرج ما بين ساقيه ، ويسند قبضته على العصا أمامه :

ــ أنا خادم سيدى الأنفوشى ..

أدى صلاة الفجر فى أبو العباس . انتظر حتى انصرف آخر المصلين ، ثم خرج إلى شارع أبو العباس ، ومنه إلى شارع الكنانى ..

مدرسة البوصيرى الأولية تحتل امتداد شارع الكنانى ، على ناصيتى شارع أبو العباس وشارع الموازينى . الحوش الواسع تحيط به الفصول ، وفى المواجهة ردهة مستطيلة خالية ، إلاّ من مقام ذى كسوة خضراء ، يحيط به سور من

الحديد المزخرف . الطابق العلوى له شرفة بامتداده من الخشب المخروط . تتجاور الفصول فى ردهته الطويلة الضيقة ، تنتهى بباب مرتفع يفضى إلى حجرة الناظر ، وحجرة المدرسين ، والبوفيه ، والسلم الخلفى ..

نقر على الباب ، فانفتح أمامه ..

نادى بما لا يسبب الإزعاج فى لحظات ما قبل ظهور الصبح . أعاد النداء دون إجابة . اتجه إلى المقام الأخضر الساكن . صفت على الأرض ــ بالقرب منه ــ كتب قديمة وطاولة تتس طاولة أسندت إلى الجدار وكراسى محطمة ..

خلع المداس ، وجلس مستنداً إلى الحائط . من ورائه حجرة لها بابان ، خلت إلاّ من بضعة مقاعد متناثرة ، وأمامه الحوش الساكن ، تحيط به الجدران العالية ، والبيوت التى لا يبين إلاّ أسطحها ..

هجر الخدمة فى جامع ياقوت العرش ، وحمل قربة ماء . يطوف بها شوارع الحى . يروى منها العطشى ظمأهم . قبل الصدقة ، وإن لم يطلبها . رفع همته عن الخلق ، فلا يذل لهم فى شأن رزق يومه . سبقت قسمته وجوده ، وما قدر له أن يصل إلى فمه ، فلا بد أن يصل . أزمع أن يأخذ

نفســـه بالمجاهدة ، لا يأذن لأحد ، ولا لشىء ، بمنعه من السير والترقى . إذا كان الأقطاب قد أفلحـــوا فى الارتقاء إلى عالم الحضرة الإلهية ، فإنه لن يستطيع الصعود سلّمة ، ما لم يتعرّف إلى الرموز والأسرار والإشارات العميقة . يعرض عن ملاحظات الناس ومؤاخذاتهم . أقبل على ما أمره به سيدى ياقوت العرش . السعى إلى لقاء سيدى الأنفوشى ، والاستماع إلى نصائحه ، والإفادة من بحر علمه . عفا الله عما سلف . توحش عن الخلق ، وغسل قلبه من الدنيا . انتقل من دوام الخدمة إلى المحبة والمعرفة والتيقن . اجتذبه ما لا يقوى على فهمه إلى الحضرة الربانية : لذة الطاعة ، وحلاوة المناجاة ، واطمئنان الروح إلى المراقبة والمشاهدة . ائتنس بالله ، واهتدى إليه ، وفنى فيه ، وذاق حلاوته . وهب نفسه للمحبة العلوية ، والإخلاص فى الطاعة ، وتلقى أوامر الأولياء الصالحين ، والتمكن من المراقبة والمشاهدة والمعرفة . يأتى النور والأمر من الله . يهتدى الإنس والملائكة والجان للطاعة فى القدرة ، وإنجاز الإرادة . ويمتلئ القلب بنور الإيمان والتقوى ، نور إلهى يقذفه الله فى قلبه ، وترتقى النفس إلى معارج التوحيد والقرب والرضا ،

وتدخل رحاب الوصل والاتصال بالذات العلية . تنداح الفيوضات الربانية فى لحظة يترقبها ، تجلو الأنوار مرآة نفسه ، تهبه السر والمكاشفة ، القدرة على المشاهدة وإدراك الحقائق ..

طرح من ورائه القلق والتوتر والتساؤل والمراجعة . تهيأ لاستقبال معارج الحب والقربى ، ومشاهدة أنوار الكشف ، والتعامل مع الملائكة فى الساحات المطهرة لأولياء الله الصالحين . يترقب أمر الله ، مدد الأنوار والتوجيهات العالية عن طريق الإلهام والإدراك الغيبى . ما تحدثه به نفسه ، وترشده إلى فعله . تكثيف النور الإلهى فى داخله ، يوجهه إلى حيث يجب ، ويهبه الحكمة فيما يفعل . إذا كان أولياء الله قد زكوا نفسه فى حضرة النور ، ويسّروا له سبيل التقوى ، وطريق السعى للعمل الصالح ، فإنه أحرق جميع الصفات والحاجات ، وأغرق نفسه فى بحر الإشارات الإلهية ، وأهمل التشوف إلى مطالعة الأسرار ..

لم يحاول مخاطبة الساكن فى الضريح ، ولا توقع أن يخاطبه من الداخل أحد ، وإن اطمأن إلى أن سيدى الأنفوشى

هو صاحب الضريح . اليأس الذى حل على نفسه فى قلعة قايتباى ، سيبدّله الله ..

هل كان يجد باب المدرسة مفتوحاً ، لولا أن ولى الله أراد ذلك ؟..

الطريق واضحة ، لا يضل عنها إلاّ من فقد بصره . انشغل عن حظوظ الدنيا وحظوظ الآخرة . أغلق أبواب النعمة والعز والراحة والنوم والغنى والأمل ، وفتح أبواب الشدة والذل والجهد والسهر والفقر والخوف . وجد نفسه سائراً فى الدروب التى اقتصرت على الصوفية : المحاسبة ، والخلوة ، والرياضة ، والتجلى ، واعتزال الناس ، واحتمال الأذى ، والسهر ، والزهد ، والصبر . لا يريد لنفسه إلاّ ما يريده الله له ، وما يوصيه به أولياء الله . تشرق عليه أنوار التوجه . يسكن ، ويطمئن ، ويمضى فى الطريق التى دله عليها سيدى ياقوت العرش ..

سيدى الأنفوشى هو الواسطة بينه وبين السلاطين العارفين ، أصحاب الأنفاس الصادقة ، والكرامات ، والمكاشفات التى بلا حصر ، بالغى مراتب القرب ، والمنهل العذب ، ملوك الحضرة الإلهية . تمنى لو أن ولى الله

الأنفوشى تجلت كرامات روحه الطاهرة فى البرزخ . يراها ، أو يلمسها ، بإلهام ، أو فى رؤيا منامية . تتجلى الهيبة ، فيحل السكون التام . تنثال الفيوضات ، وتتداح الأنوار . يتنعم بالأحوال والكشوفات ..

أجهد نفسه فى استحضار صورة لم يرها لسيدى الأنفوشى ، يرسم ملامح يمليها الحب لولى الله ..

زاره سيدى الأنفوشى فى المنام ، أو فى صحو كالمنام . أكد ما رواه ياقوت العرش . دعاه إلى إعلان ولايته على بحرى : الأنفوشى والسيالة ورأس التين . لم يتحدث عن مقامه ، ولا إن كان فى قلعة قايتباى ، أو فى ساحة مدرسة البوصيرى الأولية ، أو فى مقابر المنارة ، أو العامود ، وربما مكان ناء لا يعرفه أحد . لم يعيّن موضع مقامه بالتحديد ، ولا طلب تغييره ، إنما طلب العناية به ، ووضع كسوة عليه ، وإقامة مولد له فى يوم من رمضان ، مثله مثل القطب ياقوت العرش . هو الذى حمى بحرى من الشوطة . غاب الموت بالمرض عن أبناء بحرى ، وغاب المرض نفسه ، وهو الذى أوكل له أولياء الله الصالحون مشكلات الناس ، وما يعانون ..

اجتذبته حالة لم يعهدها فى نفسه ، فلا الأرض تقلّه ، ولا السماء تفئ عليه ، ولا الكون فى عمومه يحصره . اقتحمت نفسه أنوار علوية ، انبسطت فى صدره ، فاتسع بالرضا والتسليم واليقين ، وإن أخفق فى الإمساك بالنجوم ، وتلقى ضربات الموج دون أن تهتز وقفته .. فهل يعينه أولياء الله على أداء ما يطلبونه منه ؟..

طال ترقبه للمدد الإلهى . أعد نفسه لإشارة ظاهرة أو باطنة . هاتف حسى أو معنوى . يشير عليه بالطريق التى يجب أن يتجه إليها ، فترتقى معارجه إلى مدارك القرب والاستشراف والمراقبة والإرسال والاستقبال للفيوضات العلوية ، يضيئ الله معيته بالعلم والمعرفة ، يدخل العوالم الغيبية الباطنة التى لا يراها أحد ، يتحمل التكليف فى ساحات أولياء الله ، بهدى من الضياء الربانى ، تتنزل به الملائكة من فوق السموات السبع ..

* * *

الأنفوشى ؟ ..

التسمية جديدة ، وإن تناقضت الروايات فى أصلها . العائلة الإيطالية أنفوس احتكرت ــ لسنوات ــ صيد الأسماك

وتجارتها . كل الصيادين أتباعها ورعاياها ، ويعملون لحسابها . حلقة السمك متجرها الكبير ، تبيع فيه وتشترى . هاجر أفرادها منذ سنوات بعيدة ، لكن سطوتها ظلت ــ بالاسم المحرف ــ على الحى بأكمله . المؤكد ــ فى بعض الاجتهادات ــ أن التسمية محرفة ، لكنها تمتد إلى عصور قديمة ..

الضريح الغارق فى الظلمة داخل قلعة قايتباى ــ دوناً عن جميع الأولياء ــ بلا أتباع ومريدين ، وبلا احتفالات مولد . حياته لا يذكرها أحد : من هو ؟ أصله ؟ فصله ؟ كراماته ؟ سيرته ؟ ..

الرواية ــ أصلاً ــ غير مؤكدة ، وإن رأى بعينيه تهافت النساء ــ وقت صلاة الجمعة ــ يقدن الشموع ، يقدمن النذور ، يكنسن ــ بملاءاتهن ــ الأرض الترابية ، أو يتمرغن عليها ، يهمسن ، يجهشن بالبكاء ، يجلسن ــ بالساعات ــ فى صمت . يطلبن الخلفة والمصلحة والشفاعة والمدد . تعلو الأصوات بآيات القرآن والأدعية والابتهالات والزغاريد . يتركن المتاعب عند الضريح ، ويغادرن الحجرة المظلمة فى غير الحال التى كنّ عليها ..

الشيخ عوض مفتاح إمام ياقوت العرش قال :

ـــ الأنفوشى حقيقة .. رفاته فى الضريح الذى يتوسط فناء مدرسة البوصيرى الأولية بالموازينى ..

* * *

غادر ما جرى بين جابر برغوت وعم شحاتة مدرسة البوصيرى . تابع المناقشة ناظر المدرسة والمدرسون والفراشون والتلاميذ . نقلوا ما شاهدوه ، واستمعوا إليه . نقلوه بإضافات وتهاويل فى البيوت ، والدكاكين ، وعلى القهاوى ، وفى دروس المغرب بالجوامع . علت أسئلة ومناقشات ، وأثيرت تخمينات . امتلأت النوافذ والبلكونات والأسطح . عشرات الأجساد المتلاصقة ، والأعين ، تتأمل ما يجرى ، وتدافع الناس من الشوارع الجانبية . جلابيب وسيالات وبدل وعمم وطرابيش وطواقى ورءوس عارية . والعساكر يحاولون منع الزحام ، وتصاعد الصخب المتلاغط ، ورائحة العرق . اكتفى الكثيرون بالتطلع إلى المدرسة من خلف المبنى ، المطل على ميدان الموازينى .

غادر أمين عزب زاوية خطاب عقب صلاة الظهر . أفسح له المحتشدون فى شارع الكنانى ، وداخل المدرسة ـــ

حين عرفوه ــ منفذاً . تأمل جابر برغوت فى جلسته الساكنة لصق الضريح ..

ــ ماذا جرى يا برغوت ؟..

ظل فى صمته ، يتأمل أمين عزب بعينين ساجيتين ، ثم قال :

ــ لقد اختارنى سيدى الأنفوشى لتوصيل ما يريد إبلاغكم به ..

همس أمين عزب من بين أسنانه :

ــ من سيدى الأنفوشى ؟..

أشار إلى المقام ذى اللون الأخضر ، فى الطرقة الضيقة الموصلة بين الفصول ..

علا صوت أمين عزب بالحدة :

ــ هذا قبر رؤيا .. لا يوجد تحته أنفوشى ولا رأس التين ..

اربد وجه جابر برغوت :

ــ تسخر من ولى الله ؟..

صرخ أمين عزب :

ــ جعلت الوهم ولياً يا برغوت ؟!

ورمى الرجل بنظرة مشتعلة :

ــ ولماذا أنت بالذات ؟..

ثم فى نبرة محذرة :

ــ ألم تتعظ مما جرى لك ؟..

حين مات ابنه مسموماً ، وظلت ابنتاه بلا زواج حتى جاوزت صغراهما العشرين من عمرهما ، أيقن أن ممارسة السحر الضار عادت عليه وعلى أسرته بالمتاعب والأضرار ، فقرر نبذها . كان يعقد ــ قبل أن تتبدل حياته ــ على ذيول العفاريت . يصادقها ، ويفرض عليها كلمته . ثم هجر السحر والعلاج بالقرآن ، بعد أن تنبهت الجن لأذاه . حرق ــ بالآيات والتعاويذ والطلاسم ــ الكثير من أهل العوالم السفلية ، فأولته اهتمامها . اجتهدت فى النيل منه ، وأذيته . زاد من عدائها له أنه لم يكن يأذن لها بطلب شئ . يصر أن تخرج من الجسد ، أو تحرق بإذن الله . حصّن نفسه بتلاوة آيات القرآن والأذكار ، والمحافظة على الصلوات فى مواعيدها ، والإكثار من النوافل . فلما أحس بتعاظم الخطر ، بلفح الأنفاس القريبة ، وإن لم تتجسد فى صورة ما ، قرر أن يخفى عداوته للجن ، فلا يظهرها ..

تبدّلت حياته ، بعد أن أضاءتها كلمات سيدى ياقوت العرش . امتثل للأمر ، واجتنب النواهى ، وسارع فى المرضاة ، وغلب عليه الزهد فى الدنيا ، والرغبة فى الآخرة . لم يعد فى قلبه طمع فى الناس ، ولا تشوق إليهم . هذا زمان وحشة ، والوحدة هى اختياره ، لم يفرضها عليه أحد . حتى الاحتلام لم يعد يطرق باب نومه ، ولا يقتحمه ، ولا يؤذيه فى طهارته ونفسه . سد الباب بإخلاصه فى العبادة ، ومجانبة الكثرة ، وإيثار الجوع ، وحسن الظن بالله ، ومخالفة الهوى ، ورفض النومة المريحة على وسادة ، والعكوف على البلاء ، ونفى الخواطر المذمومة ، والرضا عن القضاء ، والصبر على المجاهدة ، واختيار الموت على الحياة . أدرك أنه بقدر المجاهدة تكون المشاهدة ، فذهب عن نفسه ، واتصل بذكر الله ، وذاق حلاوة الطريق ، المحبة والاشتياق ، القرب والوصال ، خلوص الروح ، ورقة القلب ، وراحة القناعة ، وبرد الرضى ، ونسيم التسليم ..

اتسعت معرفته ، وتأهب لورود الأمداد : يرفع الحجاب ، ويفتح الباب ، ويتحقق العرفان ، ويدخل ــ حين يتجلى ولى الله الأنفوشى عن ستار اختفائه ــ دنيا الفيوضات

الربانية . تتدفق الأنوار من رياض الملكوت ، ويهمس هاتف الحقيقة بأسرار العلوم والمكاشفات ، وسر الربوبية الذى لا يفهمه إلاّ الخواص ..

ثقبه أمين عزب بنظرة متفحصة ، كمن يريد أن يتعرف إلى ما بداخله :

ــ أين كان سيدك الأنفوشى ؟..

قال جابر برغوت :

ــ سيدى ؟.. إنه سيد ناس الحى كلهم .. بركاته تشمل المنطقة من المنشية إلى رأس التين ..

قال أمين عزب :

ــ وماذا عن المرسى وأولياء الله الآخرين ؟..

وهو يهز رأسه :

ــ لهم كل الاحترام والتوقير ..

وفاضت عيناه بالألم :

ــ لكن المرسى ظهر ، وحذر ، فلم يأبه الناس ..

ثم وهو يضرب الأرض بعصاه :

ــ أخشى من نذير مخيف ..

حافة الظـــل

مالت من شارع السيالة إلى شارع سيدى كظمان . اخترقت الظلمة المتكاثفة ، لا تؤثر فى حلكتها الأضواء المنبعثة من ميدان المساجد ..

انتفضت لسماع وقع أقدام خلفها . خطوات بطيئة زاحفة . وقفت فى مكانها . أصاخت صوتها لاقتراب الخطوات وراءها . ظل الصمت سادراً . تلفتت حولها . الظلمة ألغت الظلال . وإن تبينت ضوءاً خافتاً يصدر من نافذة علوية ، مغلقة ..

لم تلتفت وراءها ــ وهى تزيد فى سرعتها . أهملت حتى الخطوات الواسعة ، التى تباطأت بعد أن اختلط ظلّها بقدميها ..

قبل أن يطالعها ميدان المساجد ، التفتت بنظرة سريعة ، واندفعت إلى قلب الميدان ..

تبينت وجهه فى الأضواء المنبعثة من الجوامع ونوافذ البيوت والدكاكين المفتوحة ، القليلة ..

همست لنفسها بالخوف :

– هشام ؟!..

تصورت أنه نسيها . فقد الأمل فى أن تكون له ، فنسيها ..

أسرعت فى خطواتها ، لإحساسها بمتابعته . لم تشعره بأنها رأته ، فلا يلحق بها ، ويكلمها . ماذا لو بادرها بالكلام ؟.. هل ترد ، أو تظهر الغضب ، وتواصل السير ؟!..

اعتادت الإحساس بأن عينين تلاحقانها . تلتفت خلفها . يطالعها الطريق ، بخلوه ، أو بالمارة المشغولين فى أحوالهم..

تراه فى الشارع . يطيل النظر إليها ، فتغالب ارتباكها . تتجه بوجهها إلى الناحية المقابلة ، أو إلى الأمام ، لا تكلمه ولا يكلمها . وحين لمحته مستنداً إلى شجرة قبالة المدرسة ، أهملت النظر ناحيته . لحقها قبل أن تميل إلى شارع السيالة . تشجعت بالمارة القليلين والنوافذ المفتوحة :

ـــ ابتعد وإلاّ صرخت ..

فض الإمام الحفل . فصل بينهما . لكن مهجة ظلت فى باله . تكرر لقاؤهما ـــ منذ تلك الليلة ـــ فى الطريق . لا

ينظر إليها ، ولا تنظر إليه . يبدو عليها الارتباك ، ويحاول ألا يبدو عليه ذلك . يعلم بشعورها نحوه ، وأنها تعلم بشعوره نحوها ، وإن لم يحاول أن يكلمها ، ولا حاولت هى أن تكلمه ..

كانت مهجة فتاته . صارح أبوه برغبته فى الزواج ، ولم يذكر مهجة . ذكر المعلم كشك أسماء عديدة . رفض أو اكتفى بالصمت . لجأ إلى التلميح ، فلم يصل المعنى . قال لأمه . رشحت مهجة . وافق أبوه بلا معارضة ..

تعدد خروجهما برفقة مصطفى فى البداية ، ثم بمفردهما . تلتقى عيونهما فى صمت . تثق فى حبه لها ، ويثق فى حبها له . لايصارح أحدهما الآخر بما فى داخله ، وإن ظهر فى النظرات ، وضغطة اليد ، والارتباك فى التصرف . وحين تركت يدها بين يديه ــ للمرة الأولى ــ فى سينما التتويج ــ شعر بتحرك شئ فى داخله ، ما يشبه الفرحة ، أو النشوة ..

قال :

ــ هل تتذكرين عندما نزعت شوكة السمكة من قدمك ؟..

قالت :

ــ ياه !.. تذكر ؟..

أقبل على تأوهها . لم تكن قد دخلت المدرسة ، فلا بد أنها كانت أقل من السادسة . آلمتها الشوكة عندما دخلت قدمها الحافية ، وهى تلعب على رمل الأنفوشى . استندت على كتفه حتى جلست على بلانس قديم . انتزع الشوكة بأسنانه ، وامتص الدم الفاسد ، وبصقه ..

تلك أيام مضت ..

لم تعد ترفع رأسه فى وجهها . تميل بجسمها . تمسح بعينيها الأرض ، وتمضى . ركبها التحدى . اختفى ــ بلا سبب ــ حتى التلاشى . كأنه لم يكن فى حياتها ، كأنه لم يحبها ، ويخطبها ، وتحبه . تصورت أنه سبب فيما جرى . لو أنه أصر على زواجها ، ما أصر الشيخ طه مسعود على الشائعة القاسية ، وما جرى ــ بعد ذلك ــ ما جرى . لو أنه خطفها ..

فاجأها بوقوفه أمام باب المدرسة . تمازج فى داخلها الخوف والفرحة . أدركت ــ من الابتسامة المتوددة التى ملأت وجهه ــ أنه التقط رؤيتها له . ظل على نظرته

الصامتة ، لم يجاوزها إلى الكلام : لماذا لا تقنعين أباك بالعودة إلىّ ؟ لماذا لا يعود كل منا إلى صاحبه ؟ ..

فكرت أن ترتمى فى حضن الأمواج المتوزعة إلى الشوارع . ثم تبينت أنها بعدت عن المدرسة والطالبات بمسافة . طالعها ميدان أبو العباس بحركة المتجهين إلى المساجد لصلاة العصر . لابد أنه سيتردد فى الاقتراب منها إذا ظهر فى الطريق مارة ..

بدت له الفرصة سانحة . لم يتصور أن يكون قريباً من مهجة إلى هذا الحد . كانت ترتدى جونلة زرقاء وبلوزة بيضاء مغلقة الصدر ، ودست قدميها فى حذاء أسود لامع ، وجورب أبيض يصل إلى ما تحت الركبة ، وأسندت إلى صدرها كتباً وكراريس . خشى لو أنه قلّب الأمر ، ربما يغيبها شارع جانبى ، فلا يلحق بها . أدار فى ذهنه كلمات ، تعبيرات جميلة ، أضاف إليها ، وحذف منها . ربما نطق الجملة ، يتأمل وقعها ، وما إذا خرجت الحروف واضحة . ظل يرددها بينه وبين نفسه حتى حفظها . لو أنه التقى بها . لو أن خطواتها تباطأت ، فيعيد عليها ما حفظه .أعد ما يجب عليه قوله : لقد ظللت مقيماً على العهد . كنت أعانى ما

تعانين .. آن الأوان لنعوض ما فاتنا . تيقن أنها لن تخذله ، أحبته مثلما أحبها . الشائعة السخيفة أطارت ما كان فى قبضة اليد ..

توقعت أن يعود إلى أبيها ، فيطلب يدها ..

ذهل هشام لقول أبيه إن مهجة بنت مثل كل البنات ، بل إنها لم تعد تملك أعز ما تملكه أى بنت

قال المعلم كشك :

ـ إنها مطلقة .. وهذا يكفى لرفضى تزويجها منك !..

وعلا صوته :

ـ هل نسيت أنها فضلت عليك رجلاً فى سن أبيك ؟!..

قال هشام :

ـ لم يكن ذنبها .. هذا ذنب الشيخ طه مسعود ..

فوت المعلم كشك الملاحظة :

ـ لو أنها كانت تبقى عليك .. لما تزوجت أول من تقدم إليها ..

ـ هذه إرادة أبيها ..

ـ إذن فهى أسرة لا يشرفك زواج ابنتها ..

ثم أردف مستدركاً :

ـــ لو أنى رأيت فى المرأة قبولاً بإعادة الخطبة .. لوافقت بلا تردد !

ـــ ماذا كنت تفعل لو أن أختى فاطمة هى التى واجهت سوء الحظ فى زواجها ؟..

صرخ المعلم كشك :

ـــ اختصرت الجريمة فجعلتها سوء حظ ؟!..

ثم واجهه وهو يستعيد كلام الخوالقة :

ـــ ها نحن تقدمنا لخطبة فتاة مطلقة .. لكن أباها رفض تزويجها لك !..

فاجأه بالسؤال :

ـــ ألم تعد تصلى ؟..

غمغم بما لم يتبينه هو نفسه . مجرد حروف مضغها ، فلا تبين عن معنى ..

قال المعلم كشك :

ـــ هل أفقدك هذا الحب المجنون دينك ؟..

كالأصداء تلقى أنباء مرضها ، هزالها الذى طال ، ترددها على الأطباء والأولياء والمشايخ ، زواجها من أبو شنب . استتر بظلمة الطريق ، أو السيالة ، يحدق بعينين غير

مصدقتين فى الزينات والأنوار ، والأغنيات والزغاريد تنطلق من شقة عباس الخوالقة . أخبره صابر الشبلنجى بطلاق مهجة من الرجل . أشفق عليها لأنها طلقت للمرة الثانية . لا ، هو لم يتزوجها . فصل الإمام بينهما قبل أن يتزوجا . حتى رفض عباس الخوالقة لا يحاسبها عليه . لم تقل له : أحبك ، ولم تواته جرأتـــه ليقول لها : أحبك ، لكنه كان يحس بحبها له ، فى التماع عينيها ، فى تلون صوتها ، فى ملامسة يدها ليده . يعرف أنها مقصودة ، وإن تظاهرت بالعفوية ..

حرم عليها أبوها فتح النافذة ، أو النظر منها ..

قال عباس الخوالقة :

ــ أعرف أن زواجك على الورق فقط .. لكنك فى نظر الناس مطلقة ..

ثم فى لهجة باترة :

ــ لا زيارات .. ولا خروج من البيت إلاّ بصحبة أحد أخويك .. ولا رجعة إلى المدرسة ..

قالت أم محمود :

ـــ المطلقة هى الحائط المائل عند الناس .. لا تسلم من ألسنتهم !..

تمنت المرأة لو أن مهجة لم تعقد قرانها على هشام كشك ، ولا تزوجت أبو شنب . وتمنت لو أنها أنجبت ثلاثة أولاد ، فلا تصبح عرضة لكلام الناس . الولد ولد . لا تشغلها تصرفاته ، ولا تسأل إلى أين ، ولا من أين ؟..

كان أبوها شيخاً للصيادين ، وتزوجت صياداً أصبح شيخاً للصيادين . لا تعرف ــ منذ طفولتها ــ إلاّ الغزل ، والبلانسات ، وركوب البحر ، وغياب الزوج ، والنوات ، والذين اختطفتهم الجنيات ، وتقلبات أسعار السمك ..

لازمها ــ بعد رحيل مصطفى ــ ذهول وتوهان . تنظر إلى ما لا يرونه ، وتغمغم بما يشبه الحديث إلى النفس . مات فى السن التى لم تكن تتصور أنه يموت فيها ، وكانت مشغولة بمهجة . أصرت أن تظل النافذة المطلة على السيالة مفتوحة ، لكى تراه فى قدومه من أول الطريق ..

أقام عباس الخوالقة سرادقاً كبيراً من أول السيالة إلى تقاطعه مع شارع العوامرى . كل الكراسى من المذهب ،

واللمبات أضيئت فى عز النهار ، وتلا القرآن مصطفى إسماعيل والحصرى والشعشاعى ..

لم يغادر عباس الخوالقة مكانه فى المدخل معظم ساعات اليوم . وتقبّل العزاء ، وأعاد رواية ظروف وفاة مصطفى بمرض مفاجئ ، ربما هو الشوطة . ظل السرادق قائماً ثلاثة أيام . فى صباح اليوم الرابع عاد إلى الحلقة ، يسأل عن أحوال البحر والبلانسات والرجال وأسعار السمك ..

قال خميس شعبان :

ــ كاد يتزوج وهو فى الرابعة عشرة .. كأنه عرف بما سيحدث ، فأراد اختصار حياته ..

لم يبد على عباس الخوالقة مشاعر استجابة . ظل على صمته وهدوئه ، وإن هز رأسه فى توال بغير معنى . الحزن فى القلب ، والنفس تقاوم حتى لا يطفر الدمع ..

أسكت الخوالقة حمودة هلول لما أعاد السيرة . قال :

ــ الله أخذ .. الله عليه العوض ..

ثم بلهجة باترة :

ــ الزبائن لا شأن لها بحزننا .. وعلينا أن نفيق للشغل !

وحين تكلمت أم محمود عن طلعة رجب ، أسكتها ــ متصعباً ــ بإشارة من يده :

ــ هذا موضوع انتهى .. مصطفى مات .. وتقبّلنا العزاء فى موته ..

واتجه إليها بملامح جامدة :

ــ هل تظنين أنى كنت أتصور أنه يموت فى حياتى ..

وغالب ارتعاشة فى صوته :

ــ مصطفى الآن وديعة عند الله .. طلب الرحمة هى كل ما نملكه له ..

أزمع أن تعود الحياة سيرتها الأولى ، وإن ظل الإشفاق على المرأة يتملكه . لا يدرى كيف يتصرف ، ولا بماذا يجيب على أسئلتها المتوالية : متى يعود مصطفى ؟ هل اتصلت بأخواله فى دمنهور ؟ هل ذهب للفسحة مع أصحابه ؟ لماذا لا تكلمنى عن الولد ؟..

زار عباس الخوالقة مدرسة قاسم أمين ..

أطلت عينا البواب من وراء الباب الخشبى الموارب . تمعن فى وجه الخوالقة ، فعرفه . أشار لسؤاله إلى حجرة الناظرة . سدد الخوالقة رسوم عودتها إلى المدرسة ، وشدد

ـــ وهو يرشف فنجان القهوة ـــ على أن تظل مهجة فى المدرسة ، لا تغادرها آخر يوم الدراسة ، إلاّ إذا قدم أخوها لأخذها ..

خلفت الكورنيش وراءها . طلعت اللسان الجيرى المرتفع . ثم مالت إلى مساكن السواحل ذات الطابقين . موحدة الطابع . تطل ـــ من ثلاثة جوانب ـــ على ساحة ترابية واسعة ، تناثر فيها أولاد يلعبون الكرة والطائرات الورقية ..

تلفتت ـــ بعفوية ـــ وراءها ، وهى تدخل بيتاً فى الزاوية اليسرى للأضلاع الثلاثة . قفزت السلم ، حتى الطابق الثانى . ضغطت على زر الشقة المقابلة للسلم . لم ترفع إصبعها ، حتى انفتح الباب ..

طالعها بملامح متهللة :

ـــ جئت ؟..

ماتبقى من حياة

تسلل ضوء النهار من شيش النافذة ، وهو مازال يتقلب فى السرير ، مستعيداً ما حدث فى اليوم السابق ، يصله بأحداث قريبة ، وبعيدة ، يفسر المعانى والدلالات ..

امتدت يده إلى الكومودينو المجاور . تحسس الساعة ذات الكتينة . عرف الوقت . كتم رغبة فى أن ينقلب إلى الناحية المقابلة ..

أزاح الستارة ، فانداح النور ..

مد يده إلى المكتبة . قلب فى كتبها القليلة . اختار كتاباً : العبرات المنفلوطى . خبطه فى ركبته ، يزيل عنه التراب . قرأ منه ثلاث صفحات ، ثم أعاده إلى الرف . القراءة تسليته الوحيدة داخل الجدران الساكنة . يقرأ ما تصادفه يده ، ربما قرأه من قبل ، لا يستبدله . يقرأ ، ويقرأ ، ويقرأ ، حتى يغلبه النوم ، أو يدفعه السكون الجامد ، الممل ، إلى الخارج . يرتدى ملابسه ، ويقفز على السلم بما لم يعهده فى نفسه ..

تلاقت أصوات المؤذنين فى الجوامع القريبة . الظهر . مضى ناحية المطبخ . لمح وجهه فى مرآة التسريحة . لاحظ تجاعيد خفيفة تحيط بجانبى الفم ، وتمتد إلى الذقن ..

اعتاد الجلوس فى الشرفة المطلة على جامع البوصيرى . يأتنس بالقرب من مقام ولى الله . يحيا لحظات ممتدة من السكينة والطمأنينة . تبهت صورة الوحدة . لا تناوشه إلاّ إذا استدعتها ذاكرته . تبدو الأيام كأنها واقفة لا تسير . ما حدث فى الأمس هو ما يحدث اليوم ، وهو ما يصعب إلاّ أن يحدث فى الغد . يأكل وينام ويقرأ ويجالس أصدقاء القهوة ، لكنه لا يحيا ، لا يشعر أنه يحيا . يحس بما يشبه الاختناق يضغط على صدره . ربما تفصّدت جبهته بالعرق ، واهتز جسمه بقشعريرة ، وثقلت جفونه ، ومال إلى القعود أو النوم . تتملكه رغبة فى أن يسلم نفسه للبكاء ، لا يشغله رد الفعل ولا النظرات المتابعة . يؤلمه أنه سيترك الحياة دون أن يخلف ذكرى ، دون أن يترك أسرة ولا أبناء . شجرة تجتث ــ بموته ــ من جذورها . يطالعه الأثاث الساكن . ألف رؤيته ، وإن شعر أنه يترصد له بمجرد إغلاق باب الشقة . يضغط على عنقه ، فيتمنى نسمة هواء . يستعين بالتركيز ،

فلا يبقى سوى الصورة الوحيدة التى يطمئن إليها . يطيل الوقوف فى السطح . يتأمل حدوة المياه التى تحيط بالمنطقة . أمامه خليج الأنفوشى ، تميزه الصخرة الناتئة فى مدى الأفق ، وتداخل المياه مع الأرض التى تتعدد فوقها الأبنية إلى قلعة قايتباى . تتخلل الرؤية مئذنة أبو العباس . على اليمين الميناء الشرقية ، يحدها حاجز الأمواج بين القلعة والسلسلة ، وثمة أشرعة المراكب الصغيرة ، وصيادى المياس بالفلايك والجرافة . وعلى اليسار الميناء الغربية : البواخر الضخمة ، والأرصفة ، والمخازن ، والحاويات ، وبلوطات الأخشاب ، والأوناش الهائلة . تمسح نظراته الأدوار العليا والأسطح إلى المنشية ..

كان يتمنى أن يخلو إلى نفسه . يغلق عليه باب الشقة ، فتحاصره الوحدة . يحنّ إلى جلسة القهوة . لدقائق ، ثم يغادرها . الصخب فى داخله يعلو على صوت مناقشات القهوة والعزلة داخل الشقة . يتمنى .. يتمنى .. تغيب ملامح الأفق فى ضباب كثيف . يضايقه الإحساس بالعزلة وهو فى القهوة ، يحكى ويعلق ويسأل ويجيب . لا صلة حقيقية بينه وبين أصدقاء القهوة ..

قل تردده على القهوة . يشعر بالوحدة وهم يتحدثون ، يتكلمون فيما لا يستطيع المشاركة فيه . تغيب الرغبة فى الكلام . تشرق أحاديثهم وتغرب ، فلا يجد دافعاً للمشاركة . أدرك ــ وإن لم يتنبه من قبل ــ أنه يكره الزحام ، والضجة ، ويؤثر الوحدة . تعاظم فى نفسه الإحساس بالنفور والضيق . يزيد فى ضيقه ما يحيطونه به من نظرات محدقة . يفاجئهم ، فيشيحون وجوههم ، يحاولون مداراتها . هؤلاء الناس غرباء عنه . لا صلة حقيقية بينهم وبينه . يعتذر بموعد ــ يتذكره ــ ويمضى . يتجه إلى الكورنيش . يتأمل أسراب النورس ، وأسراب الغر ــ لا يتداخل سرب بالآخر ــ وصيادى السنارة والجرافة والطراحة وفلايك صيد العصارى ..

الصيد !..هواية الأيام البعيدة !..

اشترى ما يلزمه من وكالة الليمون . امتدت جلسته على المكعبات الأسمنتية ، قبالة ميدان أبو العباس . أودع الغلق ثلاث سمكات صغيرة . وضعه فى ركن المطبخ ، ونسيه ..

يحدق فى المياه الساكنة ، والتماعات أشعة الشمس عليها . يلتقط من الأرض حجراً صغيراً . يتلفت حوله ، ثم يقذف به فى الماء . تتسع الدوائر ، ثم تختفى . يلاحظ شخصاً قادماً ، أو عسكرى السواحل . يرفع قامته قبل أن يلتقط حجراً ثانياً ، ويواصل السير ..

رأى ــ فى عبوره الطريق ــ قطة صغيرة ، تداخل لون شعرها بين الأبيض والأسود . بدت متحيرة بين الأقدام وإطارات السيارات والعربات . حملها براحته ، ووضعها على صدره . قرر أن تؤنس وحدته . وضع لها لبناً مخلوطاً بقطع من الخبز فى طبق صغير . وحين فتح باب الشقة ــ بعد العصر ــ ليذهب إلى القهوة ، انسلّت ــ من بين يديه ــ خارجة . لم يكن قد اختار لها اسماً . نادى عليها بسسسس ، لكنها اختفت . رآها ــ ثانى يوم ــ فى يد طفل على باب البيت المجاور . تذكر أن القطط تألف المكان لا البشر ..

سرح ــ وهو فى جلسة المهدى اللبان ــ مع أغنيات محمد عبد الوهاب فى قهوة فاروق ، القريبة : الجندول وكليوباترة وهمسة حائرة . عاد إلى البيت ــ ظهر اليوم

التالى ــ يسبق الفونوغراف ، يحمله شاب فوق كتفه . تردد ــ فى الأيام التالية ــ على محال ميدان المنشية . اشترى اسطوانات ، وتحدث مع أصدقاء القهوة عن تبادل ما لديهم وما لديه ، وعن التسجيلات القديمة والجديدة . وأهداه إبراهيم سيف النصر تسجيلاً قديماً للغندورة تغنى فيه :

ارخى الستارة اللى ف ريحنا أحسن جيرانا تجرحنا

لكن الملل ، الملل ، قلل من استماعه إلى اسطوانات الفونوغراف . بدا مثل المكتبة ، والراديو ، والجلوس فى الشرفة ، والوقوف فوق السطح ، يعود إليها فى أوقات متباعدة ..

تمنى ــ بعد المعاش ــ أن يفرغ لأفكار شغلته عنها الوظيفة . أغمض عينيه فى محاولة للتذكر . رفت صور ورؤى وأطياف . عاود ما فعل . زار بركة غطاس وتعرف إلى ما لم يره ، تأمل صيادى الجرافة فى الميناء الشرقية ، أخذه السهر ــ مع علية ونبيلة ــ فى البلكونة المطلة على سيدى البوصيرى ، تمشّى ــ بلا هدف ــ فى محطة الرمل وسعد زغلول ، فاصل الباعة فى سوق راتب وشارع الميدان

، صلى الجمعة فى أبو العباس ، شاهد الموالد وسوق العيد وحلقات الذكر ، فاجأ أصدقاء المهدى اللبان بمعلومات غابت عنهم ..

ألف ــ فى حصار الوحدة ــ إغماض العينين ، شرود الخيال فى آفاق لا تنتهى . صادق ساعة الحائط المعلقة فى الصالة ، صوت حركة البندول والدقات . يعيد الأرقام بصوت منغم . اخترع ما يسلى به وقته : يعيد ترتيب مكتبته الصغيرة ، يصنّفها بموضوعات الكتب . يعود فيصنفها بأسماء الكتّاب . تكرر تمنيه أن يطرق عليه الباب أحد . يبدد الصمت بضغطة الجرس . وواتته رغبة فى أن ينزل الطريق ، يطلق ساقيه ، لا تتوقفان حتى ينهكه التعب . أو يعوم فى الأنفوشى إلى ما بعد الأفق ..

سحب القلة من النافذة المطلة على المنور . رفع القمع النحاسى الأصفر ، وجرع من القلة حتى ارتوى ..

علا رنين جرس الباب . القلة من يضغطون الجرس ، عرف الفرق بين كل ضغطة وأخرى . يتوقع شخصاً بالذات . تباطأ ، فعلا الرنين ثانية ..

فتح الباب بيد غاضبة :

ــ أستاذ إبراهيم ؟ ..

قال إبراهيم سيف النصر ، وهو يمضى ــ بتلقائية ــ إلى الداخل :

ــ لم تكن تتوقع حضورى ..

ومض فى داخله شعور بالألفة :

ــ أهلا بك فى كل وقت !..

ارتحال إلى الأسمى

قال أبو الحسن الشاذلى :

: نحن إذا أتانا مريد له شئ من الدنيا ، لا نقول له : اخرج عن دنياك وتعال ، ولكن ندعه حتى تترشح فيه أنوار المنّة ، فيكون هو الخارج عن الخارج عن الدنيا بنفسه ، ومثل ذلك قوم ركبوا سفينة ، فقال لهم رئيسها : غداً تهب ريح شديدة ، ولا ينجيكم منها إلاّ ترموا بعض أمتعتكم ، فارموا بها الآن ، فلا يسمع أحد قوله ، فإذا هبت العواصف كان الكيّس من يرمى متاعه بنفسه . كذلك إذا هبت عواصف اليقين ، يكون المريد هو الخارج عن الدنيا بنفسه "

***

قال أبو العباس المرسى :

" إن لله عباداً ، محق أفعالهم بأفعاله ، وأوصافهم بأوصافه ، وذاتهم بذاته ، وحمّلهم من أسراره ماتعجز عنه الأولياء "

لمح الكاميرا فى يد أوسط البحارة الأجانب الثلاثة ، وضعها على عينه ليصور سيدى على تمراز . فرد ذراعيه بامتدادهما أمام الرجال الثلاثة . رافقت وقفته صيحات وشتائم ..

لحقه ـــ من قهوة المهدى اللبان ـــ إبراهيم سيف النصر :

ـــ ماذا تفعل ياشيخ قرد ؟

اهتزت وقفته بالانفعال :

ـــ الجامع للمسلمين وحدهم ..

قال سيف النصر :

ـــ وما شأن الناس بالجامع ؟..

علا الانفعال بصوته :

ـــ محرم على الكفار ، ومن يقصدونه للفرجة ..

وداخل صوته نشيج :

ـــ اقتربت الساعة وانشق القمر !..

أدرك البحارة الثلاثة ما يحدث . صاحب الكاميرا أهملها إلى جانبه ، ومضوا ناحية شارع فرنسا ..

قال المهدى اللبان :

ـــ الشيخ جابر لم يفعل إلا أن منعهم من تصوير الجامع ..

مات على الراكشى . فقد الصديق الذى كان يستخلصه منفرداً ، يفضى إليه بأحواله ، وما يشغله ، وعجائب مشاهداته ..

كان قد هجر ياقوت العرش ، وترقبه فى الضريح الساكن بقلعة قايتباى ، ولزم جدار ضريح سيدى الأنفوشى بمدرسة البوصيرى . يغادره إلى شوارع بحرى . ينفذ ما أمره به سيدى ياقوت العرش . يأمل فى المكاشفة والمدد . يبدل الله حالاً بحال . أشفق على الناس ضياع المعتقد ، وضعف النفوس . ما يعانونه ، مبعثه بعدهم عن الله ، وإقبالهم على المعاصى . ذهبت عن نفوسهم حرمة الدين . زال الورع ، وطوى بساطه . رفضوا التفريق بين الحلال والحرام ، واستخفّوا بالعبادات . لن يكون الخلاص إلاّ بالرجوع إلى الذات الإلهية ، والمحافظة على الحدود ، والابتعاد عن النواهى ..

اعتاد الناس أقواله وتصرفاته . لم تعد غريبة ولا نابية . وكانوا يلزمون الصمت ، عند سيره فى الشوارع والحوارى ، وأمام القهاوى والدكاكين وأبواب البيوت المفتوحة . غابت التعليقات المتصعبة والساخرة والغاضبة .

حتى الأولاد الذين ضايقوا على الراكشى بتصرفاتهم ، لم يكرروا ما فعلوا مع جابر برغوت . ربما لتذكر الجميع خطأ التصرف مع ولى الله الراكشى ..

فمن يدرى ؟ من يدرى ؟..

ظهر فى أقواله وتصرفاته ، ما يجعله من أرباب القلوب والأحوال . لجّم نفسه بلجام الصمت والسكينة . ورضى بقضاء الله ، واتصل بذكره ، وأخلص واتّقى وسكن . يسرح ويشرد ، تستشرف نظراته ما لا يراه أحد ، يصغى إلى أصوات تتداح فى داخله ، فلا يسمعها سواه . هو مشدود للمهمة التى كلف بها ، لا يستطيع التخلى عن أدائها . درب نفسه على الامتثال والخدمة والسمع والطاعة . ثمة أنوار تومض أمامه ، كأنوار الشهب والقمر والشمس ، تضئ ما حوله ، وثمة رموز وإشارات إلى حقائق الخفايا والبواطن والعلوم والمعارف والأسرار . تبع النداء فى كل الخطوات التى يقطعها . انشغل عن التطلع إلى الدنيا ، واستوحش من جميع البشر . غرق الكثيرون فى بحر الدنيا العميق ، فجعل سفينته فيها تقوى الله تعالى . آثر ما يبقى على ما يفنى ، وجعل الله غناه فى قلبه . لا يقبل شيئاً إلاّ من الذين

اشتهروا بالتقوى وخوف الله . لا تشغله نظرات الدهشة ولا الملاحظات المؤنبة ولا كلمات التوبيخ ولا المضايقات . نسى حوائج الدنيا والآخرة والأحوال والدرجات والمقامات والمراتب والخصوصية . ذهب عن نفسه ، وعن كل شئ ..

لم يضع فى باله أنه يمارس كرامات الأولياء ، فلا اطلاع على الكوائن ، ولا طىّ للأرض ، ولا سير على الماء ، ولا طيران فى الهواء ، ولا اتيان ثمرة فى غير أوانها ، ولا الحصول على ثمار من شجرة يابسة ، ولا تحول ماء البحر إلى ماء عذب . أتم تفويضه لأولياء الله الصالحين . غلب الرضا على القلب ، ومضى فى الطريق التى حددوها ، وأشاروا بها . يترقب الأنوار التى ترقى به إلى التمكين فى شهود الذات ، واكتحال عين القلب بسر الحقيقة . أغرقته سحائب الرحمة ، وعصفت به الهداية ، ساقته إلى أرض النفوس الطيبة . هامت الروح فى حضرة قرب الذات الإلهية ، وتأهب لورود الأمداد ..

اعتاد الناس اختفاءه ــ فجأة ــ وهو يخالطهم ، أثناء سيره ، أو فى جلوسه داخل الجوامع ، أو فى استناده على المقام داخل صحن مدرسة البوصيرى ..

توقع الكثيرون بركات تضيف إلى معجزات أولياء الحى ، مثل مشى السلطان فوق موج البحر ، وتلقف أبو الدرداء للطوربيد من سماء الإسكندرية ، وبردة الرسول حين خلعها على البوصيرى . وقيل إنه يوحى إليه من البرزخ بإلهامات ومكاشفات ..

لاحظ خميس شعبان مسحة من الطهر تضىء وجه الرجل . وأخذ حمودة هلول من فوق الطاولة ، على رصيف الزردونى ، كوب شاى ، شرب منه جابر برغوت ، ومضى . ارتشف بقايا الكوب ، امتصها تماماً . هتف :

ــ البركة يا أهل الوصول !..

وروى أن جابر برغوت قال لدياب أبو الفضل وهو يقف على الأورمة أمام الحلقة :

ــ لا تتعب نفسك .. فهذا يومك !..

وقبل ساعتين ، كان دم الشريان قد انبثق من ضربة الساطور ، ومات دياب أبو الفضل فى مساء اليوم نفسه . وأكد عم شحاتة أنه رأى طيوراً بيضاء اللون ، ليست حمائم ولا تشبهها ، تهبط فى جلسته بجوار المقام ذى الكسوة الخضراء ، تضع من الطعام ما لا يتبينه أحد ، فلا أحد يجرؤ

على اقتحام مجلس الركن الساكن ، حتى يمضى من نفسه . وكان يمضغ الطعام فى صمت وتلذذ ، ويحمد الله . فلما تبين عم شحاتة المكان بعد انصرافه ، لم يجد الآنية التى كان يأكل فيها طعامه . وقيل إنه لم يزر مريضاً أو مصاباً ودعا له إلاّ عجّل الله بشفائه . وحين واجه قاسم الغرياني يصعد الدحديرة الخلفية لأبو العباس ، شخط فيه :

ــ أنت جنب .. فارجع اغتسل !..

رويت عن الرجل حالات ، فله قدرة على تمييز الواقفين ــ أو الجالسين ــ فى الظلام ، ويناديهم بأسمائهم ، ويكشف عن مخابئ الثعابين والحيات والفئران فى شقوق الجدران ، ويتحدث عن النوة قبل قدومها ، ويعرف وقائع المستقبل . ربما يغلبه الانفعال . يصيح ، ويصرخ ، ويهم بنزع ملابسه ، لا يهدأ إلاّ عندما يستحلفه من يعرفه برسول الله وأولياء الحى . قد يتعاظم فيبلغ رأسه السقف ، وقد يتصاغر ، فيصبح فى حجم الدجاجة . أشار ، فانشقت مياه الميناء الشرقية . سار فى الأرض اليابسة إلى نهاية السلسلة . وكان يأكل من السمان حتى يشبع . يصفق ، ويقول : طر بإذن الله !.. تنقلب السمانات إلى الحياة ، تكتسى ريشاً ،

وتتقافز ، ثم تطير . وقيل إن الأقطاب من أولياء الله يتراعون له فى اليقظة والمنام ، يحملونه على أداء ما يريدون من أفعال الخير . وقيل إنه أخذ على رؤساء الجن العهود . جعلوا أنفسهم فى خدمته ، يلبّون كل ما يعلو به ــ أو يهمس ــ صوته ، وما يتمناه فى نفسه . وقيل إن الجن تقمّصته ، وإنه لم يعد يتكلم بصوته الطبيعى . تحول إلى ما يشبه الحشرجة . وربما أغمض عينيه ، وتصلّب جسمه ، ثم اهتز فى تشنجات متوالية ، وانطلقت الصرخات كالعواء ، وانسابت من جانبى فمه ومن ذقنه ، رغوة بيضاء . وروى أنه كان إذا نظر إلى شخص وهو فى حالة الانجذاب ، فإنه يجذب هذا الشخص ، فيصبح من محبيه ..

قال حمدى رخا :

ــ ربما كان هذا الرجل أعقل العقلاء ..

اتجهوا إليه بنظرات يفاجئها عزوفه عن المشاركة فى المناقشات . إذا تحدث فبعمومية ترى أن كل شئ يجب أن يتغير .. وكان قليل التردد على القهوة . يعمل موظفاً فى مصلحة الموانى والمنائر . يؤثر الخروج إلى شاطئ الكورنيش . يتمشى فى المسافة بين المحكمة الكلية وانحناءة

الطريق إلى الأنفوشى . يتأمل ما تراه عينه وحده ، لا يشير إليه ، ويكتفى بالانصات الهادئ . شعره الأبيض يتناقض مع الملامح الطفولية فى وجهه . له بشرة قمحية صافية ، وأنف صغير ، وعينان لوزيتان شديدتا الالتماع ، تطل منهما نظرات ساهمة . وفى خده الأيمن خال أسود . يدارى مظهره الأنثوى بصوت ينتزعه من حنجرته ..

روى إبراهيم سيف النصر حاجبيه بالدهشة :

ــ هذا الــ ..

قاطعه حمدى رخا :

ــ إنه يريد الصح ..

قال عبد الله الكاشف :

ــ الصح مسألة نسبية ..

قال حمدى رخا :

ــ المؤكد أننا نحياه !

قال الشيخ أحمد أبو دومة :

ــ هذا رجل اصطفاه الله لحضرة أنسه ..

ثم وهو يداعب ذقنه بأصابعه :

ـ أثق أن وجود هذا الرجل المبارك فى حينا هو الذى منع ظهور الكوليرا فى الحى ..

قال أدهم أبو حمد :

ـ فماذا عن أولياء الله الآخرين ؟..

قال الشيخ أبو دومة :

ـ إنهم موتى .. ولن يؤذوا حتى لوأصيب بحرى كله بالوباء .. أما شيخنا فقد حمى الله أهل الحى من المرض ليحميه من العدوى ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـ هل تأثرت بحركات الرجل ؟..

وأشار بيده إلى باب البيت الملاصق :

ـ أنا أصدق أمين أفندى عزب .. ياقوت العرش لم يظهر للرجل ، ولا زوده بنصائح أو توجيهات .. إنه تلبس جن يملى عليه ما يتصور صحته !..

طرقات على الباب المغلق

تكرر الإجهاض ، فغلبها القلق : هل ؟..

هزت رأسها ، ترفض التفكير فى السؤال ..

المغص الحاد يفرى بطنها ، والألم أسفل ظهرها . ذعرت لرؤية قطع الدم المتجمدة تتساقط . عرفت الطريق إلى مستشفى الملكة نازلى . ترددت على العيادة الخارجية : تنزع ملاءتها ، وشبشبها . تتمدد على سرير الكشف . يسألها الطبيب وهو يرفع فستانها . يجبرها على فتح فخذيها . يدخل آلة معدنية ، فتكتم ألمها . استمعت إلى نصائح الأطباء ، فلزمت المستشفى يومين وثلاثة . حفظت التعريفات ، وإن لم تعرف مرضها ..

قال الطبيب :

ــ هل تعانين اضطراب الدورة ؟..

استطرد لعدم الفهم فى عينيها :

ــ هل تتأخر الدورة الشهرية ؟..

ــ أحياناً ..

فاجأها بالقول :

ــ هل تكررت هذه الحالة من قبل فى عائلتك ، أو عائلة زوجك ؟..

عائلتها ؟!.. عائلة زوجها ؟! ..

لم تلحق بمعنى العائلة ، عندما ألحقها أبوها بخدمة المستشار ، ولا تعرف عن سيد إلاّ سيد . لم يحدثها عن أب أو أم أو إخوة ، ولا عن عائلة ..

قال الطبيب :

ــ هل تعانين من ضغط الدم المرتفع أو السكر أو التهاب الكلى ..

وهى تدفع بيديها خطراً غير مرئى :

ــ أنا لم أذهب فى حياتى إلى طبيب ..

زم الطبيب شفتيه فى تفكير :

ــ لعلها حالة قصور فى نمو الجنين .. عيب خلقى ..

وضع الطبيب ــ فى مرة تالية ــ صورة الأشعة السوداء بينه وبين لوحة مضيئة . تأملها :

ــ هذه حالة اتساع فى عنق الرحم ..

وجرى بكلمات على الدفتر الصغير أمامه :

ـ سأعطيك بعض الأدوية .. ربما لا يحتاج الأمر إلى عملية ..

وهز يديه متحيراً ، فى مرة تالية :

ـ هذه حالة إجهاض غير مسبّبة ..

همست بالخوف :

ـ ألا يوجد علاج ؟

جرى قلمه بالكلمات فى الكراسة الصغيرة . نزع ورقة ، ودفع بها إلى أنسية :

ـ سنكتشف السبب بعد إجراء التحاليل ..

قالت الداية زمزم :

ـ عليك بزيت الحلبة الأصلى .. تبللين به قطنة ، تدخلينها فى المهبل بعد انتهاء الدورة .. لا تخرجيها قبل ثلاثة أيام ..

انتزعت ضحكة من أنفها :

ـ وإذا طالب الرجل بحقه ؟..

ـ اعتذرى بأية حجة .. قولى إن عليك العادة ..

أطالت تأمل سيد ، الساكن فى جلسته على الكنبة . ابتسمت لتذكرها نصيحة الطبيب بأن تعتذر لسيد عن الجماع

، حتى لا يسقط الحمل . لم يناقش سيد ما نقلته عن الطبيب ، واختار كنبة الصالة لنومه ..

منذ صحبها محمود الخوالقة إلى بحرى ، وتركها ، أدركت أن عليها أن تواجه الأمور ، وتتصرف . كانت تحرص أن يطول لقاؤهما . تلجأ إلى أعوامها الماضية ، منذ صحبها محمود الخوالقة إلى بيت سيدى داود . تعطيه ليعطيها . ترتعش ، تتأوه ، تزم شفتيها تأكيداً لمداراة الإحساس باللذة . لم يكن بلوغ الإشباع هدفها . تساوى الوقوف على ضفة الشاطئ ، أو الخوض فى الأمواج حتى الغرق . ألفت نهاية الاتصال دون أن يلامسها الارتواء . إذا هم بانتزاع نفسه ، أحاطته بساقيها . لفت ساعديها حول رقبته . تحاول أن يظل داخلها . ربما أفلتت الثمرة قبل أن تصل إلى موضعها . نصيحة الكودية نظلة . لم تصارحه بها ، وإن حرصت عليها ..

النساء يحبلن ويلدن . أجسامهن تلتقط الهواء ، فلماذا هى ؟!..

قهرها الإحباط ، فهمست لنفسها :

ـــ عندما كنت حرة ، كان كل الرجال ملكى .. وبعد أن أصبحت زوجة استعبدنى رجل واحد !..

ورنت إليه بنظرة مستغيثة :

– قالت لى زمزم الداية إن السبب قد يكون لخلاف مع إخوتى ، وعلى أن أصالحهن ..

قال بلهفة :

ـــ لو احتاج الأمر ، أذهب بك إلى دسوق ..

ـــ لماذا ؟..

ـــ لتصالحى إخوتك ..

ـــ المرأة تقصد بسم الله الرحمن الرحيم ..

صحبها سيد إلى الشيخ مكى قارئ سيدى نصر الدين . تردد عليه الكثير ممن أضر بهم السحر ، والعين ، واللمس ، والمس الشيطانى . يجيد التعامل مع الجن والشياطين ، ويفك عقدة السحر ، ومن شر النفاثات فى العقد ..

نصح الشيخ مكى بقراءة القرآن . يغيب الشيطان تماماً إذا قرئت آياته . ونصح بزيت الزيتون . تأثيره على الجان مزلزل . ونصح بالماء ، لأنه يخمد النار ، والشيطان خلق

منها . إذا نزلت البحر ، زال تلبس الجان لجسمها فى طهارة الماء ..

وعادت إلى البيت بست بيضات مسلوقة ، مغموسة فى الفلفل الأسود ، قرأ عليها الشيخ ، وتلا أدعية ..

قال سيد وهما يغادران الجامع :

ــ يا أنسية .. المثل يقول : إن ماكانش لك أهل ، ناسب ..

واتجه إليها بملامح متأثرة :

ــ أنا وأنت بلا أهل .. وطفلنا الذى نأمله هو نسبنا !..

أين أنت ؟

صحا على كرشة نفس ، حطت على صدره ..

رفع الغطاء ، وأسند ظهره إلى السرير . تمتم بآيات وأدعية ..

هل كان حلماً ؟..

بدا سيدى البوصيرى أمام الباب بقامته الضئيلة ، وملامحه المنمنمة ، الجميلة ، والمسبحة الهائلة الحبات تتدلى من يده ..

أفسح الطريق للبوصيرى . فى داخله الارتباك والدهشة والفرحة ..

جلس البوصيرى على المقعد المواجه لباب الشقة ، والضياء ينبعث من داخله ، ومن ملابسه ..

عصته الكلمات ، فلم يجد ما يقوله ..

أطال البوصيرى تأمله بنظرة فيض إلهى ، ثم اختفى ..

نهض إلى النافذة ، فواربها . اقتحم نور الضحى الحجرة . هم بالعودة إلى السرير ، ثم عدل . ومضى إلى الصالة ..

تمطت الوحشة ، باردة ، مقبضة ، بنت أعشاشاً فى أركان الشقة ..

كان يتحسس الصمت ، ويتنفسه . يتمشى بين قطع الأثاث الساكنة . يداخله احساس بالوحدة . هو وحده فى الشقة . بعد أن يتمدد فى السرير ، ينهض . يضئ نور الصالة . يطمئن إلى إغلاق النوافذ والشرفات . تترامى حركة مفاجئة أسفل الطريق . تتسلل نظرته من خصاص النافذة . عربة كارو تقرقع عجلاتها على أسفلت الطريق . يعود إلى السرير ، يتمدد على ظهره . يفرج ما بين ساقيه ، ويضع يديه خلف عنقه . يحدق فى السقف ، ويسرح فى اللاشىء . تتحرك التكوينات فى السقف والجدران . تتشابك ، وتختلط ، وتتعارك ، وترقص بما يذهله . يتمدد ، يتكور ، يتمطى ، يحتضن الوسادة ، يتحسس نعومتها بخدّه . يغفو ، فيوقظه تلاقى أصوات المؤذنين فى الجوامع القريبة . يسعل وهو يتهيأ للوضوء . يلاحظ تغيراً فى صوته . يعاود السعال

، ينتحله ، ليتأكد . يهز رأسه فى عدم تيقن . ربما دار فى الشقة يدندن بأغنية كانت آخر ما استمع إليه فى الراديو قبل أن يغلقه ..

ضابقه توقف بندول ساعة الحائط . سحب كرسياً ، وملأ الزمبرك . تأملها . راجع الوقت على ساعة يده ..

امتدت يده بتلقائية ، تسحب القميص والبنطلون من الشماعة ..

لم يعد يطيق البقاء فى الشقة . بدت له سجناً ، يصعب عليه الحياة داخله . الوحدة والسأم والفراغ . يتردد على البيت للنوم ، أو لتناول الطعام . لاحظ أنه يجد عناء فيما كانت تفعله علية . ربما اكتفى ــ فى الغداء ــ بقطعة جبن ، أو سندوتش فول يعود به من الطنطاوى فى شارع التتويج . ربما عاد بأقة كعك يغمس منها فى الشاى . يخفق فى استجلاب النوم . يسحب كتاباً ، ويحاول قراءته . يغلبه شرود ذهنه ، فيطوى الكتاب . يتصور نفسه فى قلب مظاهرة ، يهتف ويهتف ويهتف . ليس ضد أحد بالذات ، لا الملك ولا الإنجليز ولا أى أحد . مجرد أن يعلو صوته بالهتاف ..

هل ينام فلا يصحو ؟.. وماذا لو تأخرت النهاية ؟.. هل تسبقها أمراض الشيخوخة ؟.. هل يجد نفسه ــ ذات يوم ــ عاجزاً عن النزول إلى الطريق ، والجلوس مع أصدقاء القهوة ؟.. تحاصره الوحدة ، لا يطرق عليه الباب أحد ؟..

فكر أن ينزل من البيت فى موعد الذهاب إلى الحقانية : تطالعه الدكاكين ، أغلق معظمها أبوابه ، والشبابيك تفتح مصاريعها ، للنهار وهدوء الشوارع ، والمستلقين على الأرصفة لصق الجدران ، وجياد السراى فى نزهتها الصباحية ، وقرقعة عربات الكارو ، وباعة اللبن والخبز ، ونداء بائع الصحف أمام أجزخانة جاليتى ، وإطفاء عفريت الليل ــ وهو يعدو ــ فوانيس غاز الاستصباح ..

لمح إبراهيم سيف النصر يشخص بنظره ناحية ميدان الخمس فوانيس ، كمن يتوقع قدومه ..

هلل لرؤيته فى فرحة ظاهرة :

ــ أين أنت يا رجل ؟..

ألغى سيف النصر تصوره القديم عن الأسرة ذات الولد والبنتين ، أو البنتين والولد ، دخلوا الجامعة ، وإن لم ينهوا التعليم . كلمه عن مرض القلب الذى أصيبت به زوجته ،

عقب الولادة الثانية ، فمنعها من الإنجاب . له ولد فى السنة الأولى بكلية الآداب ، وابنة فى التوجيهية :

ــ هل ستكتفى بالشهادة ؟..

ــ هذا على أيامنا .. الشهادة الجامعية رخصة فى يد البنت ..

توقفت علية عن التعليم منذ الثالثة الابتدائية ، وظلت نبيلة إلى السنة الأولى فى نبوية موسى الثانوية . لم ينصحهما بالمواصلة أو التوقف . اكتفى بالانفاق ، ولم يأخذ منهما ويعطى فيما يخص المستقبل . لم يحاول حتى أن يدخل حجرتهما ، وإن طالت الجلسات فى حجرته ، وفى الصالة ، وفى الشرفة المطلة على سيدى البوصيرى ..

مال إلى الرجل . راقته صحبته . استهوته التلقائية فى ملاحظاته وتعليقاته . لا يضع ستراً على خصوصيته . يبوح بها عفو الخاطر . إذا كان أدهم أبو حمد هو الأذن المنصتة . يحرص على تعبيراته ، يختار الجملة والكلمة والحرف . يشغله ألاّ تحمل الكلمات أكثر مما تعنيه ، فإن إبراهيم سيف النصر هو النقيض . صورة الحياة فى بيته ، تتبدل بتبدل الحكايات : الزوجة المريضة بالقلب ، تتسلم

المرتب أول كل شهر ، وتؤلف الجمعيات مع الجيران ، وتحسن التدبير والتصرف . الولد يحب مشاهدة مباريات كرة القدم فى ساحة السيالة ، والبنت تفضّل سماع الرديو على المذاكرة ..

استنفدا كل ما بحوزتهما من ذكريات وملاحظات وآراء . اقتصرت ملاحظاتهما على نبأ فى الراديو ، أو حالة الطقس ، أو قراءات قريبة . بدا سيف النصر على صلة طيبة بعدد كبير من أهل بحرى ، وصديقاً قديماً لكل من يحدثه . يلقى التحية ، ويتلقاها ، والابتسامة ثابتة على شفتيه ، والأسئلة عن الصحة والأحوال . يدخل فى مناقشات وأسئلة وأجوبة . يبدو شخصية بلا ظلال ..

اعتاد جلسات القهوة : أحاديث السياسة والأقدمية والدرجة الثابتة بمعاش ، والدرجة الثابتة بدون معاش ، والاعتماد الدائم ، والاعتماد الوقتى ، والأسعار ، والرياضة ، وأفلام السينما ، وأحوال البحر ، والضحكات ، والنكات ، والوشاية ، والنميمة ، والثرثرة لمجرد قتل الوقت . يضيق بجلسة القهوة . يستأذن ، ويميل إلى شارع اسماعيل صبرى . حتى شارع الميدان . يخوض الزحام . يتأمل البضائع

المصفوفة أمام الدكاكين ، وعلى جانبى الشارع . يسأل ، ويفاصل ، ويشترى بعد تردد ..

نظر إبراهيم سيف النصر فى ساعته :

ــ هل سرقك النوم ؟..

وغمز بعينه :

ــ يا بختك .. لا زوجة ولا أطفال ..

قال للرجل دون أن يتكلم : هل جربت الحياة بلا ونيس ؟.. الحياة الفارغة ، الباردة . الوحدة والصمت وتداعى الذكريات ؟.. لا تجد من تكلمه ، فتكلم نفسك . تزهق من سماع الراديو ، والقراءة ، وارتفاق النافذة ، والجلوس فى الشرفة ، وتأمل تكوينات الطلاء فى السقف والجدران ، وتراقص الأضواء والظلال . تجهد الذهن فى السرحان . تنتبه إلى قدوم الليل ، وقدوم الفجر . تفتح عينيك على إطباق الظلمة . تختفى المرئيات والظلال . ليس إلا السواد المتكاثف . ربما تفاجئ نفسك وأنت تخاطب المدى الساكن ، وقد تسأل فى تحير : ماذا أفعل بهذه الحياة ؟..

هو حصان أضناه السير الطويل ، بلا هدف . مساحات الفراغ واسعة . لا نهاية فى الأفق ، سوى ذلك المجهول الذى تغيب فيه حياته ..

حين دس المفتاح فى الباب ، وفتحه . بدت له الشقة غارقة فى السكون . فوجئ بوقفته المترددة : ألا يريد أن يدخل ؟.. هل يموت بمفرده ، لا يشعر به أحد إلاّ حين تنبعث رائحة جسده ؟..

داخل صوته تأثر واضح :

ــ أبقاك الله لأولادك !..

قال سيف النصر وهو يشير إلى رجل معمم جلس فى الناحية المقابلة من الطاولة :

ــ الشيخ قرشى .. قارئ جامع سيدى على تمراز ..

قال الشيخ قرشى وهو يحكم العمامة فوق رأسه :

ــ أنا واحد ممن وصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم أطول الناس أعناقاً يوم القيامة ..

لاحظ حشرجة فى صوت الرجل :

ــ لا بأس ..

وهو يجرى براحته على صدره :

ــ أصبت بنزلة برد أثرت فى صوتى . تركت جو الجامع الدافئ إلى جو الطريق البارد ، فتأثر صدرى وأحبالى الصوتية ..

اصطنع سيف النصر لهجة مشفقة :

ــ المهم ألاّ تتأثر مواضع أخرى فى جسمك !..

بعيداً عن منطقة الأعراف

ترامى الصوت خافتاً من وراء النافذة . أقنع نفسه بأنه نبش قط فى الزبالة . أصاخ السمع ، فرجح أنها عضعضة كلب فى قطعة عظم . ثم خمن أنها هبة هواء مفاجئة . ثم خاف أن يكون الصوت من خدع الشيطان ..

فرك عينيه ، وأعاد التحديق فى الفراغ الممتد أمامه ..

أيقن أن أحداً معه فى الحجرة . نظر ـــ بتلقائية ـــ ناحية الباب . وجده مغلقاً ..

تنبه للصوت من النافذة . أسفل الطريق ، أو من البيت المقابل ..

خمن أن اهتزاز زجاج النافذة لهبّة هواء . ثم تذكر أن الليلة صيف . اتجه بنظرته ناحية النافذة . كانت الضلفتان مفتوحتين ، تستندان إلى جدار الحجرة . وكان الشيش مواربا ً.

أصاخ السمع ، فتأكد ..

فتح النافذة ، فاقتحمت الظلمة الساكنة عينيه . ليس ثمة إلاّ ضوء خافت من عربة كباب أول السيالة ..

ثمة شئ فى داخله يخوفه ، يتوقع ما لا يتخيله ، ولا قبل له على مواجهته ..

تعالت طرقات ، عمق من شدّتها الظلام ، والسكون ، وفقدان التوقع ..

صرخ :

ـــ من ؟..

أعاد السؤال ..

توالت الطرقات ، وإن لم يصله جواب . أصاخ سمعه . تأكد من وقع أقدام خارج الحجرة . حدج أكرة الباب بنظرة خائفة ..

فتح الباب ، فلم ير أحداً ، وإن ظل الصدى يتردد حوله . الأنفاس والضحكات والصيحات تملأ فراغ الحجرة ، تملأ فراغ الشقة كلها . رآه وهو يلقى الحقيبة على الكنبة ، يكشف الحلل فى المطبخ ، يتذوق ما يجده فيها . استطال البالطو على الشماعة فى صورة الولد ..

اقتحمه الخوف :

ــ بسم الله الرحمن الرحيم ..

حاول استدعاء الآيات المنجيات وأسماء الله الحسنى ..

قيل إن عروس البحر أخذته إلى قصرها فى القاع . اجتذبتها عيناه البنيتان ، وملامحه المنمنمة . جعلته واحداً من أولادها الكثيرين . غاص البهاء ، وطفا ، واختنق ، وشرق ، ودفع باليدين والرجلين ، واستغاث ، واندفع الماء فى فمه ..

توالى ضرب الأولاد على الصفائح وأوانى النحاس ، وكل ما يصدر صوتاً ، حتى تفزع عروس البحر ، فتطلق الولد .. لكن الليل جاء ، وجاء الصباح . وتوالت الأيام ، دون أن تطفو حتى جثة الولد إن كان قد مات ..

لم يعد يطيق البقاء فى البيت . تترامى الأصوات من الشارع . تملأ حو الحجرة ، فيختنق . يتأكد من احكام إغلاق النوافذ ، حتى التى تطل على المنور الداخلى يغلقها جيداً . ينزل الشارع . يجول بلا هدف . لا يتعمد الميل ، أو التوقف . يطول طوافه حول أضرحة الأولياء . حتى الأضرحة التى لم يكن يعرف بوجودها ، صادفها فى سيره : سيدى كظمان ، السيدة مدورة ، سيدى كشك .. ربما غادر الشقة لصلاة الفجر . يظل فى ياقوت العرش أو أبو العباس حتى يهم

الخادم بإغلاق الباب . يتمشى فى ميدان الأئمة ، أو على شاطئ البحر ، يمضى إلى أحد القهاوى المتناثرة ..

فوجئ بالميكروفون يقتحم الحجرة . استقر وسط السقف . تعالى الصوت ــ قبل أن يلملم نفسه ــ فارتجت الحجرة . لم يميز الكلمات . تداخلت ، تشابكت ، فبدت أحرفاً منفصلة . انكمش فى السرير . دس نفسه ــ بالخوف ــ تحت الغطاء . ضم ركبتيه إلى صدره . سحب المخدة بأصابع مرتعشة . وضعها على رأسه . كتمها بساعديه ..

علا الصوت ، فزاد انكماشه ، وأرهف السمع ..

أحس بحركة فى باب الشقة . ثمة من يحاول علاج قفل الباب ..

تحركت أكرة الباب :

ــ من ؟..

تهيأ لاقتحام الطارق الحجرة . يسحبه من السرير . يفاجئه بما لا يتصوره .

اقتربت الأنفاس الساخنة . لامست وجهه . انتتر مفزوعاً . قذف بالغطاء ، وجرى حافى القدمين ..

كان ياقوت قد كوم الكراسى لصق الحائط ، وبدأ فى دلق الماء ، داخل القهوة ، وعلى الرصيف ، ودفعها بمكنسة من القش ..

هتف ياقوت وهو يتأمل القدمين الحافيتين :

ــ خيراً يا إسماعيل أفندى ..

كان الصباح فى أوله . وكان ياقوت يعد الطاولات والكراسى ، ويكنس ، وينثر نشارة الخشب أمام القهوة ..

قال من بين لهاثه :

ــ أبداً .. جفانى النوم ، فتركت البيت !..

أنســـام منعشة

أيقظه رنين جرس الباب ..

رفع الغطاء ، وكتم آهة لاصطدام قدمه بالكومودينو .

لاحظ أن الجريدة ملقاة على الطاولة الصغيرة منذ الصباح .

نسى حتى تصفح العناوين قبل أن يسلم نفسه ــ ثانية ــ للنوم..

همس وهو يغالب المفاجأة :

ــ علية ..

قالت من بين ابتسامتها :

ــ هل فاجأتك ؟

نظر من فوق كتفها :

ــ أين عبد المنعم ؟..

ــ رافقنى إلى باب البيت .. ودخل البوصيرى لصلاة العصر ..

وهو يفسح لها الطريق :

ــ تصورت أنك نسيت الإسكندرية ، ونسيتنى ..

في صوت منفعل :

ـــ ربما أنسى كل شئ .. إلاّ أنت !..

ـــ كلام .. أين أنت من زيارتك الأخيرة ؟..

لاحظ تأملها للمكان :

ـــ كل شئ على حاله كما تركته ..

أشارت إلى صورتها على الحائط :

ـــ ماعدا هذه ..

جاشت مشاعره :

ـــ وضعتها لتذكرني بك ..

اصطنعت الغضب :

ـــ ألا تذكرني من نفسك ؟!

ـــ في بالي دائماً أنت ونبيلة ..

وعدته بأن تزوره مرة كل أسبوع . تنظف البيت ، وتعد الطعام ، وتعود مع زوجها آخر النهار . ثم تباعدت زياراتها ، فلم يعد ينتظر قدومها ..

حين انتقلت علية إلى بيت زوجها ، أغمض عينيه ، وتنهد . سبقتها بالزواج قبل ثلاثة أعوام أخته الصغرى نبيلة . أصر ـــ لأعوام ـــ أن يزوج الكبرى قبل الصغرى ،

وأهمل فكرة زواجه فى حياة أبيه ، وبعد وفاته ، حتى تقدم العمر بالجميع . خشى أن يفوت الصغرى سن الخصوبة ، فوافق على زواجها من فراج توكل زميله بالحقانية . اطمأن إلى حياة أخته الكبرى معه . لم يعد يشغله زواجها ولا زواجه . فاجأه عبد المنعم الوكيل ، جار الطابق الثانى ، بطلب يدها . وافق بلا مناقشة . لم يناقش حتى وضعها مع أولاد ثلاثة وفتاة فى الجامعة والثانوى . ماتت أمهم فهى ستصبح مسئولة عن رعايتهم ..

قالت علية :

ـ لم أعد أصلح للزواج ..

حدجها بعينين قلقتين :

ـ لماذا ؟

ـ هذه مسائل نساء ..

همس فى قلقه :

ـ لا أفهم !

حاولت أن تجد الكلمات . قهرها الحياء ، فسكتت ، ومضت ناحية المطبخ ..

جعلت من أم عثمان الغسالة ــ ثانى يوم ــ رسولاً يبلغه بما لم تستطع البوح به ..

ــ علية فى سن اليأس ..

ــ الرجل يريد زوجة ولا يريد أبناء ..

ــ وما قيمة المرأة بلا إنجاب ؟..

وهو يضغط على الكلمات :

ــ الرجل له أبناؤه بالفعل ..

رفض جلوس عبد المنعم الوكيل مع علية ــ ليلة زفافهما ــ فى كوشة . توقع ملاحظات المدعوين لتقدم سن الوكيل ، ولتقدم سن علية أيضاً . رضخ لإصرار العروسين ، وإن أصر ــ من ناحيته ــ على أن يجلس مع زملاء الحقانية فى الشقة ، بينما سرادق الفرح فى سطح البيت ..

كانت أمنية أمه أن ترى ابنتيها فى بيتيهما ، ينجبان ، وتسعد بخلفتهما . وكانت دائمة التحدث عن الجمال المهمل فى البيت ، والحظ المائل ، والزمن الذى يعطى المختلطات بالرجال فى الوظائف والأسواق . ظلت الأحوال على جمودها حتى لحقها الموت ..

زيارات علية ، المتقاربة ، قللت من إحساسه بالوحدة .

لما صحبها زوجها ــ عقب خروجه إلى المعاش ــ إلى قريته ، وجد نفسه وحيداً للمرة الأولى . انداحت ــ فى داخله ــ مشاعر صعب عليه تحديدها . قلق ، أو خوف ، أو إحساس بالعزلة . ثم بدت له الشقة قبراً يتهيأ لابتلاعه . راعه الإحساس بأن الحياة خاوية ، وأنها عبء سخيف ، لا معنى له .

حاول أن يقصّر ساعات اليوم ، بالقعود فى الحقانية على ما كان يحمله إلى البيت من أوراق . يا دوب يتناول طعام الغداء ، ويصلى المغرب ، ويعيد قراءة جريدة الصباح . ثم يصلى العشاء ، ويمضى إلى سريره . يبتلع قرصاً مهدئاً قبل أن يسلم نفسه إلى النوم ..

وهو يدخل حجرة النوم ، فى نهاية الطرقة ، يقف أمام الحجرة الملاصقة ، المطلة على المنور الخلفى . يتأمل السكون الباقى : السريرين المتجاورين ، والترابيزة الفاصلة بينهما ، والكليم الأسيوطى ، والنجفة المتدلية من أوسط السقف ، واللوحة المعلقة على الجدار لأمواج ترتطم بالشاطئ ، والصمت ، صمت يشى ــ لا يدرى كيف ــ بأن ساكنى

المكان غادروه . عزل الحجرة ــ منذ رحلة علية إلى قرية زوجها ــ عن البيت . يعبرها بنظراته ، أو يستعيد ما جرى بوقفة متأملة ..

توقع التغيير باقتراب أيام المعاش ، وإن غابت فى باله ملامحه . الحدود أكثر اتساعاً مما كان يتصور . ربما تنتهى إلى اللا أفق ..

قالت علية وهى تشير إلى أوانى الطبيخ فوق الترابيزة :

ــ احرص على تسخينها حتى لا تحمض !..

قال لنفسه :

ــ كم يكفى الطبيخ الذى أعددته ؟.. يومين .. ثلاثة .. فماذا عن بقية الأيام ؟..

صعد إلى الشقــة ، بعد أن ودع علية وزوجها ..

عند الباب ، بدا كل شئ مختلفاً عما كان قبله . الجدران الساكنة ، والصمت . رأى أختيه تتربعان على سريره ، تسألان ويجيب ، تشرق الأحاديث وتغرب . ألفت كل منهما مناداته لها باسم الأخرى . يروى لهما ما واجهه فى الحقانية ، تحدثانه عن مشاهداتهما لحركة الطريق أسفل الشرفة

المطلة على البوصيرى ، أو النافذة الصغيرة المطلة على ميدان أبو العباس . أدرك أن كل ماحوله جدران . حتى الباب لا بد أن يكون مغلقاً ، والنوافذ صلة انفصال ، مثلما هى صلة اتصال ، بينه وبين الناس ..

لاحظ يده تهتز بكوب الشاى : هل ؟..

عندما دخل صيدلية الأسعاف ، المقابلة للمحكمة الوطنية ، لم يكن أعد نفسه لشئ ، لا مرض يعانى منه ، ولا دواء يطلبه ..

تبين سخف الموقف لما واجه سؤال الصيدلى :

ــ أية خدمة ؟..

لجأ إلى يديه ، يحاول التعبير عمّا يعجز عن البوح به . ليست حالة محددة ، ولا حتى روشتة يطلب مافيها ..

مد الصيدلى يده إلى موضع فى الأرفف :

ــ ربما أفادك هذا الدواء

هم أن يعيد علبة المهدئ إلى الصيدلى ، لكنه أخرج النقود ــ بتلقائية ــ من جيب البنطلون . وضعها على المائدة ، وغادر المكان ..

قالت علية :

ــ كان العمل عزاءك بعد زواجنا ..

واحتوته بنظرة حانية :

ــ لكنك الآن فى المعاش ..

وأظهرت التأثر :

ــ الوحدة قاتلة ..

قال :

ــ تكيفت مع الوحدة ..

هتفت علية بالتذكّر :

ــ لماذا لا تعود إلى البركة ؟..

زوى ما بين عينيه :

ــ أية بركة ؟!..

ــ قريتنا .. بركة غطاس ..

همس :

ــ وهل يعرفنى هناك أحد ؟..

ــ وهل يعرفك هنا أحد ؟..

فوت قسوة الملاحظة :

ــ كنت مشغولاً بنبيلة وبك ..

فاجأته بالسؤال :

ـــ لماذ لا تتزوج ؟..

ـــ أنا ؟!

ـــ نعم .. أنت !..

استطردت فى تلميح :

ـــ لم يعد سبب قعودك بلا زواج قائماً ..

ـــ فات القطار .. وانتظاره سخف !

ـــ الرجل غير المرأة .. يجد عروساً مناسبة فى كل سن ..

واتسعت ابتسامتها :

ـــ هل تذكر إقبال .. صديقتى ؟..

وقرصته من خدّه برفق :

ـــ لم تتزوج بعد .. وكانت تعلن إعجابها بك ..

لاحظت شروده فى المدى :

ـــ نسيتها ؟..

النسيان !.

معاناة جديدة لم يكن يتوقعها . يعد نفسه لمّا يتذكر ظروفه . تبدو ملامح الصورة واضحة ، لكنها تذوى ، وتتلاشى . ينسى ما كان رتبه فى ذهنه ، ولا يعرف لماذا

وقف فى هذا المكان ، ولا الشئ الذى جاء من أجله . ربما ترك حجرة النوم إلى الصالة . يقف فى وسطها ، يتنقل نظره بين الباب ، والشرفة المطلة على البوصيرى ، والطرقة المفضية إلى الداخل . يتذكر ما ترك له الحجرة . يغمض عينيه ، ويطيل التذكر . ثم يعود إلى الطرقة ، أو يجلس فى الشرفة ، يحاول استعادة التفصيلات الغائبة ..

قالت علية :

ــ إن وافقت .. أخطب لك إقبال !

تخيل ــ لفترة ــ إقبال فى الشقة ، تمشى ، وتجلس ، وتطل من الشرفة ، وتقف فى المطبخ ، وتحادثه فى مائدة الطعام ، وتقاسمه السرير . لازمته صورة إقبال كظله ، ثم ذوت الصورة حتى تلاشت ..

عاد إلى إغماض عينيه ، يسلم نفسه للرؤى والتصورات والأطياف .

انحنـــاءة

غالب تردده ، قبل أن يخطو داخل الباب المفتوح ..

ألف رؤية اللافتة تعلو الباب ، فى طريقه إلى المكتبات المتلاصقة خلف أبو العباس . نادى الحزب السعدى . توقف شاب نحيل القوام ، يرتدى قميصاً وبنطلوناً ، ويضع على عينيه نظارة طبية ، عن الدخول بأوراق فى يده إلى حجرة مغلقة ..

ــ من تريد ؟..

وشى تهدج صوته بالارتباك :

ــ لا أحد ! .. أريد أن أنضم إلى الحزب السعدى ..

قال الشاب :

ــ عد بعد السادسة مساء .. يلتقى بك المسئول عن حى الجمرك ..

ــ ألا توجد استمارة لملئها ؟

قال الشاب وهو يدفع الباب المغلق :

ــ سيدلك على كل شئ ..

لم يناقش اختياره فى الانضمام إلى الحزب السعدى . لم يدفعه إلى الاختيار أن السعديين آخر من كانوا فى الحكم ، ولا أن مبادئهم هى الأقرب إلى اقتناعه . أهمل المفاضلة بين الأحزاب ، وإن أكد الجميع أن الوفد هو صاحب الأغلبية فى الانتخابات القادمة . وجود مقر للسعديين بالقرب من البيت ، سبب وحيد لإقدامه على طلب الإنضمام ..

السياسة !..

تلاحقت أمواجها فى حياته منذ رحيل " اللواء " : مقتل بطرس غالى ، إعدام إبراهيم ناصف الوردانى ، فرار محمد فريد ، الحرب العالمية الأولى ، نفى الزعماء إلى سيشل ، ثورة ١٩١٩ ، تقرير ملنر ، تصريح ٢٨ فبراير ، وفاة سعد زغلول ، وزارة حزب الشعب ، مظاهرات ١٩٣٥ ، معاهدة ١٩٣٦ ، الحرب العالمية الثانية ، حادثة ٤ فبراير ، هزيمة المحور وانتصار الحلفاء ، مظاهرات ١٩٤٦ .. أمواج متتالية يأتى بها المد ، ويذهب الجزر ، وهو فى وقفته ، يحرص على التأمل والمتابعة وإلقاء الأسئلة ، لكنه لم يحاول الخوض بعيداً عن الشاطئ ..

مرة وحيدة ، شارك فى مظاهرات ١٩٣٥ . نزل مع موظفى الحقانية إلى ميدان محمد على الكبير والشوارع المتفرعة : يسقط هور ابن الطور .. الاستقلال التام أو الموت الزؤام . أهمل التحذير من أن الرفد ــ وربما السجن ــ عقابه ، إن لمحه موظفو الإنجليز فى المحكمة المختلطة . ضربة شومة من عسكرى ، أعادته إلى البيت بتورم فى ساعده ..

شهقت علية بالفزع :

ــ تذكر أننا مسئوليتك بعد رحيل أبينا وأمنا ..

وغالبت دموعها :

ــ لو أنك أوذيت ــ لا قدر الله ــ ماذا نفعل أنا ونبيلة ..!؟

عاد ــ ثانية ــ إلى وقفته على الشاطئ ، يرقب الأمواج المتتالية ، يأتى المد ، ويذهب الجزر . يتأمل ، ويتابع ، ويناقش ، ويلقى الأسئلة ، ويبدى الرأى فى الأحزاب القائمة ، وفى الملك ، وخروج الإنجليز من مصر .. لا يخطر فى باله أن يجاوز موضعه ..

لم يكن يفرق بين الأحزاب ، ولا لماذا ترك النقراشى وأحمد ماهر حزب الوفد ليشكلا حزب السعديين ، ولا لماذا استبدل مكرم عبيد حزب الكتلة بحزب الوفد ، وأيهما الامتداد لمصطفى كامل : حافظ رمضان أم فتحى رضوان ونور الدين طراف وقادة الحزب الوطنى الجديد ؟..

لماذا عاودته الرغبة فى مغادرة الشاطئ ؟ هل لأنه لم يعد مسئولاً عن أحد ؟ هل لأنه بلا عمل يشغله ؟ هل هو الفراغ والوحدة والملل ؟..

فى قهوة المهدى اللبان ، هتف إبراهيم سيف النصر بدهشة :

ــ هل تنضم إلى حزب العملاء ؟..

أظهر زم شفتيه تأثره :

ــ أليسوا مصريين ؟

ــ المصريون فيهم الصالح والطالح..

ــ إنها محاولة لشغل الوقت ..

ــ اشغل وقتك بما يفيد .. انضم إلى الوفد ..

وهو يقاوم الحيرة :

ــ لا أعرف مقره ..

أشار بيده ناحية شارع رأس التين :

ــ ليس بعيداً عن بيتك .. فى الحجارى ..

ورمقه بعينين متسائلتين :

ــ وماذا تريد من مقر الحزب ؟.. إنه مجرد مكان لتسجيل البيانات .. ولن تذهب إلاّ فى المناسبات ..

قال عبد الله الكاشف :

ــ ألن أحضر ندوات أو محاضرات ..

ــ هذه فروع أحزاب .. وليست أندية ثقافية .. نشاطها الحقيقى أيام الإنتخابات ..

أشاح الكاشف بيده :

ــ لا داعى إذن للانضمام إلى أى حزب ؟..

داخل صوت سيف النصر نبرة تحريض :

ــ الوفد حزب كل المصريين .. عضويته شرف !..

قال الكاشف ضاحكاً :

ــ أنت وفدى متعصب ..

اتسعت ابتسامته :

ــ أنا مصرى متعصب !..

ألقى حمادة بك السلام ، وجلس ..

لم يكن يعرف المجاملات الاجتماعية قبل أن يشير عليه الحاج قنديل بدخول الانتخابات . لم يجامل فى أفراح أو مآتم ، ولا جلس على القهاوى إلاّ لإنجاز عمل . مجلسه المفضل رصيف قهوة التريانون . أمامه سعد زغلول والبحر ، وعلى يساره الغرفة التجارية وفندق سيسل ، وعلى اليمين ميدان محطة الرمل . وكان يجلس فى ديليس ومونسنيور وباسترودس وأثينيوس ..

أكثر من الجلوس على قهاوى النجعاوى بسوق المغاربة والمهدى اللبان وفاروق . يسكن الطابق الثانى فى البيت الذى تقع أسفله قهوة فاروق ، لكنه لم يكن يجلس فى القهوة . يكتفى بقعدة العصر أمام دكان محمد صبرة ، ودرس المغرب فى أبو العباس . ربما جلس لإتمام صفقة فى القهوة التجارية بالقرب من تمثال الخديو إسماعيل . ثم دفعه عباس الخوالقة ــ فى ترتيبات الانتخابات الوشيكة ــ إلى الجلوس على قهوة الزردونى . لحظات ، يستأذن بعدها لمشوار يدّعيه . ثم نبهه المعلم نجيب المهدى إلى أن الدائرة الانتخابية تمتد من رأس التين إلى ما بعد المنشية ، فتردد على القهاوى الأخرى ..

قال عباس الخوالقة :

ـــ أصوات الصيادين كثيرة .. تضمن نجاحك لو أنك حصلت عليها ..

قال حمادة بك :

ـــ وكيف نضمن أصواتهم ؟..

ـــ إنهم رجالنا يا حمادة بك ..

استطرد متذكراً :

ـــ مادام وقت الانتخابات لم يأت بعد .. فسأحاول من الآن أن أنقل المقر الانتخابى لصيادى أبو قير إلى بحرى ..

وقال :

ـــ علينا أن نفعل كل شئ لانجاح حمادة بك ..

قال عبد الوهاب مرزوق فى لهجة متفاخرة :

ـــ ربما استطعت أن أكلم حلمى بك حسين ، فهو قريبى..

كان دائم التحدث عن قرابته بحلمى حسين . وكان يتردد عليه فى معسكرات الحرس الملكى برأس التين ، أيام الصيف ، يتابع ترقياته من رتبة الصول إلى رتبة الأميرالاى..

قال عباس الخوالقة :

ــ حلمى حسين ؟.. أليس هو سائق الملك ؟..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ــ هذه وظيفته المعلنة .. والحقيقة أنه الثانى فى أهميته بعد رئيس الديوان ..

غلبت اللهفة حمادة بك :

ــ هل يمكن أن يساعد فى الانتخابات ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ــ لن يصعب عليه تخطى أوامر وزير الداخلية محمد هاشم بألاّ يتدخل أحد فى عمله ..

قال عباس الخوالقة :

ــ حتى الملك وعد بألا يتدخل فى الانتخابات ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ــ لو أن هذا حدث ، فلن تصبح مصر هى مصر ..

أقنعه نجيب المهدى بأن الصيادين لا يرجحون مرشحاً . فى الدائرة موظفون وحرفيون وتجار وعمال . المرشح الذكى هو الذى لا تقتصر الأصوات المؤيدة له على شياخة أو اثنتين ..

بدأ فى الجلوس على قهوة المهدى اللبان . معرفة قديمة بالمعلم نجيب المهدى الكريتلى ، قبل أن يوسع نشاط دكان الألبان ، ويحيله قهوة . يجارى ذوى الأصل الكريتلى أصحاب معظم القهاوى فى بحرى . يقضى ساعة أو نحوها ، عقب مغادرته البيت فى الناحية المقابلة . أبعده عن المهدى حرصه على جلسة العصر أمام دكان محمد صبرة ، ودرس المغرب فى أبو العباس . عاد بصداقة المهدى القديمة . عرفه بأدهم أبو حمد . أكله الوفد لحماً ، ورماه عظماً . يجاهر بعدائه للوفد منذ توقيع معاهدة ١٩٣٦ ، وخروج أحمد ماهر والنقراشى . يتعاطف مع الطليعة الوفدية والحزب الاشتراكى والتنظيمات السرية . لا يشغله مبادئها . يؤيد رفضها لوفد النحاس وسراج الدين . عرفه أبو حمد بعبد الله الكاشف وإبراهيم سيف النصر وفهمى الأشقر وأحمد أبو دومة وحمدى رخا والشيخ قرشى . أهمل وفديتهم المعلنة ، وتمنى صداقتهم ..

من يدرى ؟.. ربما لو أنه فاز فى الانتخابات ، تقترب الجزر البعيدة ، تمسك قبضة اليد بما لم تصل إليه من قبل ، لا تقتصر الحياة على درس المغرب وجلسة العصر والسير

بلا هدف فى الشوارع . يتردد عليه أصحاب المصالح والشكاوى والمطالب . أسر ورجال ونساء . يتعرف إلى الممكن والمتاح . يهمس بما يطلبه ، أو يمليه ..

قال له عباس الخوالقة وهما ينصرفان من قهوة الزردونى آخر الليل :

ــ دخلنا فى الجد .. فحاذر من ألاعيب الخصوم ..

فاجأته صورة سعيد النقيب وهو يعايره بمشكلته . يشير لها فى جلساته على القهاوى ، فى نصف الدائرة الملتفة حول امام أبو العباس ، وهو يواجه جسده العارى فى الحمام ، وسط انشغاله فى حجرة مكتبه المطلة على تمثال سعد زغلول وامتداد الأفق فى الميناء الشرقية . لم تعد الانتخابات القادمة شاغله الوحيد . امتثل سعيد النقيب لإلحاح الرجال أن يكتم على الخبر ماجوراً . لا يلمح بسيرة ولا تهديد ولا معايرة . تعود الحياة الزوجية إلى صورتها الأولى ..

هل كانت موافقة سعيد النقيب ، للتخلص من إلحاح الرجال ؟ وهل يفاجئه بضربة ، ربما لم يعد لها نفسه ؟!..

تلاشى الأصداء البعيدة

انتظر قدومها فى الموعد ، فلم تأت . خمن أنها ربما عانت مرضاً مفاجئاً . لما طال غيابها ، داخله قلق . مال إلى كشك سيد ..

عبد الله افندى الكاشف ؟..

روت لى ــ زمان ــ عن مضايقة الرجل لها ، فماذا تبدل حتى تقبل العودة للخدمة فى بيته ؟..

ــ ليتك تعودين إلى البيت ..

خبطت صدرها بيدها :

ــ وأين أنا الآن ؟

ــ أقصد .. لا داعى للخدمة فى البيوت ..

أظهرت الضيق :

ــ أنا لا أخدم فى البيوت ..

قال :

ــ وعبد الله الكاشف ؟..

شهقت :

ـــ مالك يا سيد ؟!.. إنه مثل أبى ..

ـــ شكوت لى من مضايقته لك ..

ـــ كنت مخطئة .. وأسأت فهم كلامه ..

ـــ هل أُقصِّر فى الإنفاق على البيت ؟..

ـــ وهل يضايقك أن أساعد فى الانفاق ..

ـــ الرجل مسئول عن بيته ..

ثم بملاينة :

ـــ تحتاجين للراحة كما نصح الطبيب ..

ـــ أنا أحافظ على صحتى .. وأنفق على نفسى ..

ـــ حتى مصروفك مسئوليتى ..

ـــ أنت هكذا تضع العقدة فى المنشار !..

ـــ قولى إنى أريد قطع دابر الخلاف !..

قال سيد وهو يتشاغل بترتيب البضاعة :

ـــ أنسية لم تعد تحتاج إلى الخدمة فى البيوت ..

قال عبد الله الكاشف :

ـــ أنسية ليست خادمة .. وأنا لا أعتبرها كذلك ..

قال سيد :

ـــ واقع الحال أنها كانت خادمة .. وهى الآن زوجة لرجل ..

انداحت ـــ فى داخله ـــ الأصداء البعيدة . تماوجت ، وتشابكت ، فغابت الملامح المؤكدة . حين لمّح لأنسية ، كان يغالب شعوراً لم يتدبره . أقرب إلى اليأس ، أو محاولة النفاذ من حصار . لحظة قذف بها الفراغ القاسى الذى يحياه . أثارته وهى تقف أمامه بملابس مبتلة ، التصقت بلحمها . بدت كغشاء رقيق شفيف ، يبين عن لون البشرة . أهمل اللحظة التالية ، وماذا يجب أن يحدث . لم يدر بباله صورة العلاقة التى لمّح للمرأة بها . رفض مجرد التصور أنه ربما يصحبها إلى حجرة النوم ، أو أن العلاقة بينهما ستتأثر بما حدث . شاهد ـــ زمان ـــ فيلماً فى سينما الكونكورديا بالمنشية . أغوى السيد خادمته ، حتى أسلمت له نفسها . لم تعد ـــ فى اللحظة التالية ـــ تناديه : يا سيدى !.. نادته باسم التدليل الذى تناديه به زوجته ..

هل شجعته وقفتها على باب الحجرة ؟..

حافية ، تجفف يديها فى جانبى الجلابية ، وتتكلم . تروى مشاهدات فى الطريق ، تسأل ، تطلب رأيه ، تضحك ، تلتمع عيناها بما يدفعه إلى تصورات ..

تأمّلها وهى تتجه إلى المطبخ ، القوام ملفوف ، وخطوط الجسم واضحة تحت الجلباب ، والردفان يهتزان بعفوية ، واتساخ الساقين لا يخفى امتلائهما ، ولا استوائهما ، ولا صفاء البشرة ..

استأذنت فى أن يترك الحجرة ، حتى تنظفها ..

قال :

ــ كانت أختى علية تتولى تنظيفها ..

روى لها عن حياته ، فى البيت ، منذ طفولته . قوة غريبة لا عهد له بها ، أنطقت لسانه ، جرت بالكلمات دون أن يتدبر المغزى ، ولا لماذا قالها . أنسية تنظف وتكنس ، وهو يلاحقها بالروايات المتناثرة ، والمختلطة . كانت تومئ ، فتهبه الأمل . تعود إلى عملها فيلملم خشيته ، ويلزم الصمت . خشى أن تسئ فهمه ، فتعامله بما لا يليق بسنه ولا مكانته ..

توزعته الحيرة . المشاعر فى داخله : هل هو الحب ؟ أو هى مجرد رغبة ؟ ..

ياه !.. فى هذه السن ؟!..

لم يكن قد عرف امرأة فى حياته ، فكيف يعرف أن هذا هو الحب ؟..

أشفق على نفسه مما حدث . هل ضايق أنسية ، فصدّته ، أو أن ماحدث لم يكن سوى حلم ؟.. تصور أن الأمر كله سينتهى لو فتح عينيه . لو استيقظ مما هو فيه ..

لو أن أنسية أسلمت له نفسها ، من يدرى ؟.. هل كانت تعامله مثلما تعامله الآن ؟.. هل كانت تقول له : يا أستاذ ، ويا سيدى ، وتخفض عينيها فى وجهه ؟ هل كانت تتقبل ملاحظاته وتوجيهاته وغضبه ؟.. هل كانت تكتفى بدورها كخادمة ، أو تطلب مزايا العشيقة ؟.. تدخل الشقة ، وتخرج منها بلا إحم ولا دستور . تظل فى البيت سواء كان لديها عمل ، أم لمجرد أنها تريد البقاء . تأخذ ما ترى أنه حق لها ، لا تطلعه عليه ، ولا تستأذنه . وهل كان يستطيع طردها ؟.. وماذا يفعل لو أنها رفضت قراره ؟..

لم يدر بباله أنه سيضاجعها ، أو أنه ــ بالتحديد ــ لم يشغل باله بما بعد التلميح : كيف يتصرف لو أنها وافقت . ظلت المساحة بيضاء ، لم يملأها بتكوينات ولا ألوان ولا ظلال . شئ لا يعرف كنهه ، لعله الملل أو الوحدة ، دفعه إلى التلميح بما لم يتصور أنه يفعله . ومض كالبريق الخاطف فى سماء سوداء ، خالية من النجوم . ضايقه رفضها ، كلماتها الساخطة ، ثم تواصلت السكينة فى داخله . أخذ جانباً . يقضى الوقت ــ ساعات عملها ــ فى الشرفة المطلة على البوصيرى ..

رآها ــ مرات كثيرة ــ فى دخوله البيت ، وخروجه منه . عرف أنها تتردد على شقة المعلم عصفور فى الطابق الأرضى . تطل من الخلف على دحديرة أبو العباس . أبطأ من خطواته وهى تعالج المفتاح فى باب الشقة :

ــ كيف حال المعلم عصفور ؟..

وشت الحمرة فى وجهها بالمفاجأة :

ــ الحمد لله ..

غالب تردده :

ــ هل أنت من أقاربه ؟..

ــ أنظف له الشقة ..

أنقذته جرأته :

ــ هل لديك وقت لتنظفى شقتى ؟..

لما سألها : أين تقيمين ؟.. اكتفت بالقول : عند جماعة ..!

أدرك أنها لا تريد أن تخبره أين تسكن . كان قد اطمأن إلى أمانتها . ترك لها مسئولية ما لم يفلح فيه : تجهيز الطعام ، وغسل الثياب ، وتنظيف الشقة . تغاضى عن العمود الذى لا بد أنها تأخذه إلى سيد فى الكشك ..

عرف ــ بالمصادفة ــ من هى ، وحقيقة ظروفها عندما زاره المعلم عصفور فى الحقانية . ساعده فى إنهاء أوراقه ..

فاجأه المعلم بصوت متلون النبرات :

ــ لم أكن أعرف أنك شقى ..

فاجأته الملاحظة . أهمل ما بيده من أوراق ، وتطلع إلى الرجل بعينين متسائلتين ..

قال المعلم :

ــ أنسية ..

ـــ مالها ؟..

ـــ عرفت أنها تتردد على شقتك ..

ـــ لتنظفها .. مثلما تنظف شقتك ..

أطلق الرجل شخرة :

ـــ والمآرب الأخرى ؟..

ـــ أى مآرب ؟..

ـــ أنت أعزب فلك عذرك .. أما أنا ، فأعترف .. لاعذر لى ..

نفخ فى نفاد صبر :

ـــ أنا لا أفهم شيئاً !..

وفتح فمه فى ذهول لما رواه الرجل : أنسية تسبقه فى الدخول إلى الشقة ، والخروج منها . وقال المعلم عصفور كلاماً به اشارات وتلميحات . ثم علا صوته بالدهشة :

ـــ معقول ياعبد الله أفندى أنك ..

قاطعه :

ـــ أنا لم أعرف هذا الأمر فى شبابى .. فهل أعرفه الآن ؟..

أزمع أن يظل باب الشقة مغلقاً فى وجه المرأة ، لا يفتحه إلاّ إذا ضغطت على الجرس ، أو يفتح الشراعة ويطردها ، أو يأذن لها بالدخول ، ثم يصارحها بأنه عرف كل شئ . من هى ، وماذا تعمل ..

لما أتت فى موعدها ، وضغطت الجرس ، فتح لها الباب ، ثم مضى ــ كالعادة ــ إلى حجرته ..

قال سيد :

ــ إذا أمرتنى .. أحضر لك بنتاً صغيرة ..

واستطرد فى نبرة محايدة :

ــ بنت شاطرة .. أبوها واقف على أورمة فى الحلقة ..

وربت صدره بأصابعه :

ــ أنا أضمنها .. كأنها أنسية !..

حياة جديدة

حين أعلن عن بدء فتح باب الترشيح للانتخابات ، كان برد الشتاء ينداح فى الشوارع والأزقة . خلت إلاّ من مارة قليلين ، وأغلقت النوافذ وأبواب البيوت والدكاكين ، وعلت الأمواج الحواجز الأسمنتية . اقتحمت سور الكورنيش ، ووصلت إلى الجزيرة الطولية ، أوسط الطريق ، وتناثر الرذاذ على الرصيف ، فى الناحية المقابلة ، وعلى واجهات القهاوى والكازينوهات ..

عاد الحاج قنديل إلى مألوف جلساته أمام دكان الحاج محمد صبرة وعلى القهاوى . ذكّره عباس الخوالقة بواجب الصداقة . تقلصت دائرة الأصدقاء القريبين بابتعاد الشيخ طه مسعود عن بحرى ، وسفر عبد الرحمن الصاوى إلى القاهرة . شارك فى المناقشات ، وأجاب على الأسئلة ، وأصدر النصائح والأوامر ..

قال الحاج قنديل :

ــ أول ما تفعله بإذن الله ، تخفيض الضرائب علينا .. وإن أمكن فإلغاؤها ..

بطن كلماته بالود :

ــ أنت تحدثنى عما يخص المعلمين .. لكن الصيادين لهم أصواتهم أيضاً ..

ــ الخير الذى يتحقق لنا يصب على الصبيان ..

أهمل الحاج قنديل الكثير من الصفات القديمة ، وإن ظل حريصاً على صفة المعلم والصبيان . يوافق على الأسئلة ، وإبداء الرأى ، والمناقشة ، ولا يأذن بتجاوز الحائط الزجاجى . محاولة النفاذ منه يواجهها الصبى بلوم وشتائم قاسية . ربما طرده من المكان . يبتعد ، فلا يعود إلاّ إذا رفع عنه الحاج غضبه ..

قرأ حمادة بك الفاتحة مع الحاج قنديل . يضمن له أصوات الصيادين والسماكين والمترددين على الحلقة . أوكل لعبد الوهاب مرزوق مهمة كتابة كلمات الدعاية على الأوراق واللافتات والملصقات . قرر عبد الوهاب مرزوق أن يستغنى بذلك ــ ولو أيام الانتخابات ــ عن زيادة الدخل بإعطاء الحقن فى البيوت ..

قال الحاج قنديل :

ــ السرادقات مهمة جداً .. الجولات وسيلة الفقراء .. ولا قيمة لها !..

استطرد وهو يعدل النظارة فوق أنفه :

ــ الناس يهمها الأنوار والزينات والخطب !..

ثم وهو يومئ ناحية القهوة :

ــ ولا تنس المعلم الزردونى .. تأثيره على الناخبين يفوق تأثير أولياء الحى على عباد الله ..

قال الزردونى فى لهجة واثقة :

ــ هذه قهوة سياسية منذ أيام سعد زغلول .. من يأخذ أصوات زبائنها ، ضمن الفوز !

قال عباس الخوالقة :

ــ بوسعك أن تطلب من المعلم الزردونى توزيع شربات النجاح ..

قال حمادة بك :

ــ الانتخابات لم تبدأ يا حاج ..

هز كتفيه فى استهانة :

ــ اعتبرها انتهت .. الفوز مضمون بإذن الله ..

كان حمادة بك قد عرف الطريق إلى المناسبات . يشارك فى الأفراح ، وفى الجنازات ، ويجلس فى سرادقات العزاء . وقع كوكيل على عقود للزواج ، ودفع النقوط ، وأرسل برقيات التهانى . سلم على أصحاب الدكاكين ، والجالسين على الأرصفة وأمام أبواب البيوت . حتى المارة فى الشوارع ، يمد يده بالمصافحة دون أن يتأكد من الملامح . هز رأسه فى حلقات الذكر بأبو العباس وياقوت العرش والبوصيرى وأمام نصر الدين . التقى بالناخبين فى القهاوى والدكاكين والجوامع والشوارع . زارهم فى البيوت . حتى مباريات الكرة فى الساحة الملاصقة لحلقة السمك ، حرص على مشاهدتها . وكان الرجال يزفونه ، ويهتفون له ، والنساء يزغردن من النوافذ ، وعلى أبواب البيوت ..

تبرع بعشر قطع من السجاد الشيرازى لجامع أبو العباس . هو قطب الإسكندرية ، وسلطانها ، وأهم أولياء الحى . وأعلن عن فتح فرن التمرازية يوماً فى كل أسبوع لتوزيع الخبز ــ بالمجان ــ على فقراء الحى . كل فرد له ثلاثة أرغفة . وعد بسفلتة شوارع السيالة ، وتوصيل المياه النقية والنور ، وزيادة مساحة الأرض الجديدة المقتطعة من

البحر ، أمام مساكن السواحل . يبنى عليه مساكن جديدة للصيادين ، ومدرسة ، ومسجداً ، ومستشفى ، وملعباً للكرة . ووعد بصرف تعويضات للصيادين فى حالات الغرق ، أو تعطل البلانسات ، وبإعانات من الحكومة أيام النوات والبطالة . واقرار مكافأة نهاية خدمة للصياد عند التقاعد ، ووعد بأن يجد عملاً لكل متعطل من أبناء الحى ، وزيادة حصص التموين من الشاى والسكر للقهاوى ، وتوسيع خدمات مستشفى الملكة نازلى ، فلا يقتصر على أمراض النساء والولادة وأمراض الأطفال . وأعد للتوزيع على تلاميذ مدارس الحى ، أقلاماً ومساطر وكراريس وكشاكيل ، طبع عليها صورته ..

اتفق مع مطبعة " المستقبل " بشارع الأباصيرى ، لطبع أوراق الدعاية . تعلوها صورته ، وتحتها كلمات كتبها له عبد الوهاب مرزوق . استهواه تفسير عبد الوهاب مرزوق لاستقلاله عن الأحزاب بأن حزبه هو أبناء بحرى . صار يردد الكلمات ومعناها فى قعداته ..

* * *

قال الحاج محمد صبرة إن حمادة بك يرشح نفسه عن دائرة الجمرك كلها . إذا أراد الفوز ، فعليه أن يمد جولاته إلى شوارع الحجارى ورأس التين وأبو وردة وإسماعيل صبرى والموازينى وفرنسا والميدان والتتويج ووكالة الليمون . حتى الأزقة والحوارى المتشابكة ، المتصلة ، إلى ميدان المنشية ، عليه أن يجوبها . يسلم على أصحاب الدكاكين ، والجالسين فى القهاوى والغرز ، والمارة ..

قال الحاج قنديل :

ــ جمال كاتو مرشح الوفد .. هو الوحيد الذى نضع له حساباً ..

أومأ برأسه :

ــ صحيح ..

وربت كتفه :

ــ لكن الرجل موظف فى الحكومة ..

قال الحاج قنديل :

ــ أتصور أنه استقال ..

قال محمد صبرة :

ـــ لا تصور فى الأمر .. القانون يحظر الجمع بين الوظيفة وعضوية مجلس النواب ..

قال الحاج قنديل :

ـــ المهم أنه أفلح ـــ قبل استقالته ـــ فى نقل آلاف الأصوات من وزارته إلى دائرة الجمرك ليحققوا له الفوز !..

* * *

مال عبد الوهاب مرزوق على حمادة بك :

ـــ لا نريد للشائعات أن تؤثر على نتيجة الانتخابات ..

ردد حمادة بك الكلمة :

ـــ الشائعات ؟!..

ـــ يدّعون أنك تضيّق على عمالك ..

شعر أنه قد ألقى إليه طوق النجاة فى قلب دوامة . ذهب باله فيما تصور أنه نسيه . أعادته إلى ذهنه الهمسة المفاجئة . السؤال يشغله : ماذا لو أن أنسية باحت بالسر إلى سيد ، فنقله إلى أحد خصومه ؟..

* * *

اصطبغ وجه عباس الخوالقة بحمرة داكنة ، حين همس قاسم الغريانى بلهجة معتذرة :

ــ ولكن حمادة بك لا صلة له بالصيادين ..

لما أنقذه قاسم الغريانى من الغرق ، منحه نقوداً ونسيه . يراه فى القهوة ، وفى الحلقة ، وفى الطريق ، فلا يتبينه ، ولا يكلمه ، أو يسلم عليه . يكتفى بجلساء الحاج محمد صبرة . إذا لم يجدهم ، أو يجد واحداً منهم ، غادر المكان ..

صرخ الخوالقة :

ــ الرجل يقضى معنا أكثر مما يقضيه فى بيته !..

كان قد سلم عباس الخوالقة رزمتين من الأوراق المالية ، فئة خمسة جنيهات . يقطع الخوالقة الورقة نصفين . يعطى الصياد نصفاً ، ويحتفظ بالثانى ، ثم يقرب المصحف من وجه الصياد . يقسم أن يعطى صوته لحمادة بك ..

استطرد الخوالقة بنبرة غاضبة :

ــ نحن نعرف عن حمادة بك أصله وفصله .. أما المرشحون الآخرون فغرباء عن الدائرة ..

***

لم يكن خميس شعبان قد أدلى بصوته فى الانتخابات من قبل ، ولا حمل بطاقة انتخابية . أهمل الأمر حتى رأى قاسم الغريانى يتأمل بطاقته ..

ـــ هل لديك بطاقة انتخاب ؟..

وهو يقلب البطاقة بيده :

ـــ لم أكن أعرف شكلها ..

قال خميس شعبان :

ـــ اذهب إلى القسم .. لابد أن اسمك مدرج فى جداول الانتخاب ..

نفى الغريانى بهز رأسه :

ـــ لا .. إلاّ إذا كانوا قد فعلوها من أنفسهم ..

ـــ هل هذه البطاقة لازمة للانتخابات ؟

قال الغريانى :

ـــ لا تدخل لجنة الانتخاب إلاّ بها ..

ـــ ماذا أفعل إذن ؟

قال محيى قبطان :

ـــ حمادة بك يستخرج لك بطاقة ..

قال خميس شعبان :

ـــ وأنتخبه ؟

قال محيى قبطان :

ـــ طبعاً ..

قال خميس شعبان :

ــ لكننى لا أريد انتخاب هذا الرجل ..

قال محيى قبطان :

ــ لمن ستعطى صوتك ؟

رمقه فى ريبة :

ــ لم أقرر ..

وتلفت ــ بتلقائية ــ حوله ..

زغد الغريانى محيى قبطان بود :

ــ تريد انتخاب حمادة بك .. أم مجاملة المعلمين ؟

وتنهد فى نفاد صبر :

ــ بصراحة .. سأنتخب جمال كاتو مرشح الوفد ..

تلفت حوله هامساً :

ــ حمادة بك صديق المعلمين .. فليكتف بأصواتهم !

قال حمودة هلول :

ــ لكننا أعطينا كلمتنا ..

ــ كلمة الغصب لا قيمة لها ..

ــ لن تنتخبه إذن ؟

أعاد التلفت حوله :

ــ ربنا يسهل !..

***

قال عباس الخوالقة لعم سعد صاحب المجيرة بشارع إسماعيل صبرى :

ــ تعرف أنك لن تفوز .. فلماذا ترشح نفسك ؟..

بدا الخبر كالمفاجأة ، وإن ألف الناس ما فعله فى الانتخابات السابقة . يرشح نفسه ، ثم يسحب ترشيحه مقابل مبلغ من المرشح الذى يتنازل له ..

قال عم سعد :

ــ من حق أى إنسان أن يرشح نفسه مادام يملك التأمين ..

ــ تعرف أنك ستفقده ..

ــ ولماذا لا أفوز ؟.. أنا من الحى .. والناس يعرفوننى!..

غلف حمادة بك صوته بمداهنة :

ــ فإذا تنازلت لأخيك ؟..

قال عم سعد :

ــ سأتنازل بالثمن الذى أحدده .. وربما بدت الريح مواتية ، فلا أنسحب ، وأكسب !

بحلقت عيناه :

ــ وتصبح نائباً فى البرلمان ؟..

هز عم سعد كتفيه بلا مبالاة :

ــ وماله ؟.. أجيد القراءة والكتابة .. وغيرى لا يفك الخط !..

ورسم على شفتيه ابتسامة باهتة :

ــ إذا كان البحر مليئاً بالسمك ، فلا تتردد فى إلقاء شبكتك ..

زفر حمادة بك فى ضيق :

ــ أنا لا أخشى الرجل نفسه .. لكننى أخشى من تفتيته للأصوات !..

* * *

تناول عم سلامة حبات الملح بإبهام وسبابة يده اليمنى ، وألقاها من فوق كتف حمادة بك الأيسر ..

ذهب الملح إلى الشيطان ، واختفى الشر ..

رقصة لعرائس البحر

لما انتهت حلقة المسلسل الاذاعى فى الخامسة والربع ، تأكد الرجال أن حمادة بك لن يصل . تضاربت الآراء حول ما إذا كان قد قدم أوراق ترشيحه للانتخابات ، أم أنه قد آثر الانسحاب قبل أن تبدأ المعركة ..

كانت قهوة الزردونى قد امتلأت بالصيادين . من اعتادوا الجلوس عليها ، ومن قصدوها لدواعى الانتخابات . حتى الحاج قنديل ، عاد إلى القهوة بعد غيبة ..

استند الكثيرون إلى الجدران ، أو جلسوا على الرصيف . وتناثر رجال ، الى ناصية حارة أبو يوسف ، يصيحون لمرأى أية سيارة . أجهدت الأعين تحديقها فى القادمين من أول السيالة ، ومن الشوارع الجانبية . ربما توقعوا مجيئه من ناحية البحر ، فتتجه الأعين ناحية شارع فهمى الناضورى ..

نفخ الحاج قنديل :

ــ هل فعلها الرجل ؟!

قال عباس الخوالقة :

ــ ولماذا أنفق كل تلك الآلاف ؟..

قال خميس شعبان مطمئناً :

ــ لعله قدم أوراق ترشيحه .. ثم انشغل ..

قال الحاج قنديل فى ضيق :

ــ وموعده معنا ؟

قال خميس شعبان :

ــ ما يهمنا هو أن يقدم أوراق ترشيحه قبل انتهاء الموعد ..

قال الحاج قنديل :

ــ هذه مشكلته ..

قال عباس الخوالقة :

ــ واتفاقنا معه ؟

قال الحاج قنديل :

ــ اتفقنا لصالحه .. لا لصالحنا !

وداخل صوته غضب :

ــ فعلها الرجل بعد أن شلحت جلبابى للنزول فى البحر!

قال خميس شعبان مواسياً :

ــ أنت الحاج قنديل ..لا حاجة بك لحمادة بك ولا لأى نائب !

***

جلس قبالة البحر ، فى كازينو الإبراهيمية . ترك للمحامى مهمة إنهاء أوراق الترشيح . يلتقيان قبل الثانية ، لتقديم الأوراق ..

كان يتطلع من النافذة الزجاجية ، المفتوحة . البحر حصيرة ، والمياه رائقة ، شفافة ، والموج يلامس الرمال ببطء ، ويرتطم بجوانب الكازينو . وثمة طيور النورس وعصفور الليل والعصفور الأسود والعنزة ، تحلق فى امتداد الشاطئ ..

فاجأته المرأة ..

بدت بثيابها المتواضعة غريبة عن الشاطئ . نظراتها المتطلعة ناحيته ، حيرته . تلفت ، فتبين خلو المكان ..

مضت خطوات حتى لامست قدماها الماء . تدافعت الأمواج ، وامتدت . غطت قدميها وساقيها إلى قرب الركبة . هرولت عائدة بظهرها ..

لاحظ أنها ترفع ساقيها بما قد لا يلامسه مد الأمواج ..

خمن أنها تغويه . تعمد التحديق لتفهم أنه فهم ..

دارت بطرف إصبعها على ثديها ، ثم جرت أصابعها بالهرش فى ساقيها ..

غالب تردده ، ولوح لها . ردت عليه بتلويحة من يدها . وتناهت اليه أصداء ضحكتها ..

أشار اليها . همس بما يطلب . سبقته الى الأوتوبيس المتجه للمنشية ، ولحق بها . مالت من شارع السبع بنات إلى شوارع وحوارى وأزقة . لكثرتها ، ولتعدد الانحناءات ، غاب المكان ، والى أين يمضى ..

أوغلت به فى الانحناءات . تتسع وتضيق وتعلو وتهبط وتتلوى . نساء جالسات على الأبواب ، والأفخاذ متعرية ، والأثداء تلقمها أفواه الصغار ، وأولاد يلعبون ، وذباب وطين وكومات زبالة ومياه غسيل ـــ أبطأ من خطواته حتى لا يتزحلق فيها ـــ وقطط وكلاب وخنازير وروائح طبيخ ومجارى ونداءات باعة وزعيق وشتائم . وتترامى من داخل البيوت المغلقة أحاديث هامسة وضحكات وغنج وبكاء أطفال ..

دخل وراءها طرقة ضيقة ، مظلمة . تفادى أجولة وطسوتاً وأقفاصاً وعروقاً من الخشب ..

فتحت حجرة مواربة ..

الظلام الشفيف يتيح رؤية الأشياء . الحجرة واسعة ، مرتفعة السقف . تآكلت جدرانها ، وتقشر طلاؤها . وثمة نشع هائل ، ابتلع الركن العلوى . لها نافذة خشبية مغلقة ، يتسلل منها ضوء خافت .

وقفت فى وسط الحجرة ..

تأففت من الحر . نزعت الملاءة . كانت ترتدى قميصاً من الحرير الأسود الشفاف ، بحمالتين من الدانتيلا ، ويحيط به من أعلى الصدر نقوش جميلة ملونة . أميز ما فيها بشرة سمراء ، وعينان واسعتان ، مكحولتان ، وحاجبان رفيعان ، وصدر كبير ، وشفة سفلى ممتلئة .

هل ظلاّ بمفردهما ؟ هل دخل الحجرة آخرون ؟ ولماذا تناهى الأذان فى غير موعد ؟..

تداخلت الأصوات فى الغابة ، فغاب الصوت المحدد . وضعت ذراعيها حول خصرها ، ومالت بأعلى جسمها . علت موجة فداهمتهما ، طوتهما فى لجتها . تمطت فى

مساحة الحجرة ، وتواصل الزمان فى لحظات مختلطة ، متشابكة ، وعلت أغنيات الفحيح ، ومالت الجدران ، وتراقصت ، وترامت أغنيات قديمة ، وومضت بروق المتعة ، وتعالت صرخات النشوة والألم ، وقالت الأم : إنه يبكى منذ طردت القط . وقال الأب : هذا أهون من خربشات القط له ، وتحركت آلاف الأيدى والأقدام ، وانطلقت ــ دون صوت ــ صيحات الاستغاثة ، وحلقت طيور ، وتراقص جان ومردة وعفاريت ، وعلت الأمواج ، وتلاحق المد والجزر ، وتداخلت النوات ، والتفت الأشرعة حول الصارى ، فأدمته ، ودار القارب حول نفسه ، وهبط إلى القاع ، فتلقفته عرائس البحر ، والتمعت الأصداف ببريق أخاذ ، وتطايرت الأسماك ، ولثمت المياه رمال الشاطئ ، وتأوهت الأقدام لنتوءات الحصى ، وومض البرق ، وهطلت الأمطار كالسيل ، وانطلقت النيران من فوهة الفرن ، ولطمته عروس البحر بذيلها السمكى فغاب فى أعماق السحر ، وانسدل شعرها على وجهه فغطاه ، وتفجر الينبوع ، وباحت الحياة بسرها ، النشوة الحقيقية : سر الأسرار ، ومبعث الوجود ، وأخذ الوجد حلقة الذكر..

صحا ـــ فى حدائق الشلالات ـــ على ذؤابات الشمس وهى تنسحب من فوق الأشجار . تبين أن المرأة تركت له ثيابه الداخلية وحدها ..

أهمل صرخة نهى حين فتحت له الباب . مضى إلى حجرته ، فلم يغادرها . رفض الإجابة عن الأسئلة . شدد على الخدم أن ينكروا وجوده . حتى فؤاد أبو شنب رفض استقباله . نقل اليه الخدم كلاماً عن نقص الدقيق والمازوت ، فاكتفى بالقول : قولوا له يتصرف !

دوخته المرأة ، فغاب عنه المكان ..

لو أنه عرفه ، هل يقوى على البوح ؟.. هل كانت المرأة تعرفه ؟ هل دسها عليه خصومه ؟ لو أنها تعرفه ، فلماذا أخذت ما أخذت ؟.. ربما استعاد الأمر ، ومنحها المزيد . اللا ذكريات هى ما يتذكره . دخل البيت القديم فغفا ، وصحا فى حدائق الشلالات . لماذا ؟ وكيف ؟ وهل كانت نظرات المرأة موزعة ، أو أنها اختصته بها ؟ ..

كتم الهواجس داخله ، فلم يعلنها . صارح أنسية ففتح على نفسه طاقة جهنم . يقدّر ويبنى ويخمن ويفسر الأقوال والتصرفات . يخاف أنها روت ماحدث لسيد ، أو لسواه ..

* * *

حاول أن يقدم أوراقه صباح اليوم التالى ..

اعتذر مأمور قسم الجمرك بالأوامر . كان قد أبلغ الداخلية بأسماء المرشحين ، وانتهى الأمر ..

غادر مبنى القسم مذهولاً : هل انتهى الإنفاق والجولات المتعبة وجلسات القهاوى والوعود والاتفاقات والسيارات الأربع تطوف الحى ، فى كل منها مكبر يدعو لانتخابه .. هل انتهى ذلك كله إلى نكتة سخيفة ؟!

* * *

قال قاسم الغريانى :

ــ خدمته الظروف !.. فلو أنه دخل الانتخابات ربما أخفق فى استرداد التأمين ..

قال حمودة هلول :

ــ كان يعتمد على تأييد المعلمين ..

هتف الغريانى مستنكراً :

ــ المعلمين ؟! .. إنهم لن ينتخبوه نيابة عنّا !

خارج أسوار الوحدة

صحا ، فوجد الشقة غارقة فى الظلام . هل نسى إضاءة نور الصالة ، أو أن الكهرباء مقطوعة ؟..

أفسحت له يده الطريق ، حتى اصطدمت أصابعه بالحائط . واصل التحسس ، حتى عثر على زر النور ..

انداح الضوء ، فأدرك أن النوم سبقه قبل أن يضىء نور الصالة . تمدد للاسترخاء ، فنام ..

تقلب على السرير . استعاد ماحدث نهار أمس . الإعداد للجولة الإنتخابية فى قهوة فاروق . اجتذبته دوامة المظاهرات والسرادقات والمقار الانتخابية واللافتات والملصقات والهتافات والشعارات . السير وراء المرشح على القهاوى ، ومصافحة أصحاب الدكاكين . المشاركة ــ باستحياء ــ فى ترديد الهتاف : إن جيت للحق .. كاتو أحق !.. صياغة ملصقات الدعاية ، وتعديلها ، وتصويب أخطائها اللغوية . الجولات الانتخابية ، والسرادقات ، والمنشورات ،

والأقواس . اللافتات فوق الدكاكين والقهاوى ، وعلى الأعمدة الخشبية ، تدعو للمرشحين . أسماء لا يعرف معظمها ..

تمنى لو أن القهوة فتحت أبوابها حتى الصباح ، فلا يعود إلى البيت . يعانى الوحدة بين الأثاث الساكن ، والجدران ، والصمت . يتعشى بطعام خفيف : جبنة بيضاء ، وزيتون ، وعلبة زبادى . ربما اكتفى بثمرة فاكهة . حتى الشارع فى أسفل يسكن تماماً . لا حفيف سيارة ، ولا قرقعة عربة حنطور أو كارو ، ولا وقع أقدام ، ولا نداءات . ليس إلاّ الصمت ، يسيطر على مشاعره ، يتخلل حواسه ..

أصبحت المعركة الانتخابية حياته . يصحو لها ، وينام عليها . يتنقل بين المقر الانتخابى لمرشح الوفد فى قهوة فاروق وقهوة كشك وبين الجوامع والقهاوى والدكاكين وأندية السيالة . يصحب جمال كاتو فى جولاته بشوارع الحى ، فى مظاهرة أو بمرافقين لا يزيدون عن الخمسة . يعد الشعارات ، ويطبع النشرات الانتخابية ، ويشرف على تعليق اللافتات فوق الأعمدة ، وعلى جدران البيوت وأبواب الدكاكين ، ولافتات القماش الأبيض المثقوبة تصل الطوابق الأولى للبيوت المتقابلة . حفظ اللافتات الملصقة على الجدران ،

ولافتات القماش : ابن الدايرة .. نصير الفقراء .. الرجل النزيه .. صديق الجميع .. ابن سعد زغلول ..

راقه أن الرجل أستاذ جامعى . تعلم فى جامعات أوروبية ، وحصل على شهادات ودرجات علمية كبيرة . تأمله وهو يجالس الناخبين ، وهو يلقى خطبه فى السرادقات ، وهو يتعامل مع معاونيه . يكتفى بإصدار الأوامر ، ولا يتباسط . يميل إلى الصمت والتأمل . إذا جلس على القهاوى ، يجيب على الأسئلة ، فلا يزيد ..

وسّطه جمال كاتو لإقناع رشاد الحلاق بشارع جودة حتى يسحب ترشيحه . فى حوالى الخمسين . ضئيل القامة ، يرتدى جلباباً من الكستور ، دهن شعره بالصابون ، فبدا متبلداً ، مشطّه إلى الوراء . وله عين حولاء ، لا يستطيع منها تبين اتجاه نظراته ، ونظارته الطبية بلا ذراعين ، فاستبدل بهما قطعتى دوبارة التفتا حول أذنيه . وتناثر فى وجهه ثقوب دقيقة بتأثير جدرى قديم ، والكلمات تصدر من سقف حلقه ، فتحدث صوتاً كالطرقعة ..

قال الرجل :

ــ لا أريد سوى سوى التعويض عن رسوم الانتخاب ، وتكاليف إقامة السرادق ..

قال الكاشف

ــ أى سرادق ؟..

ــ دفعت مقدماً لسرادق .. ولاذنب للفراش فى بقية التكاليف ..

ــ كم ؟..

وهو يتلمس الكلمات :

ــ هناك أيضا ما أنفقته على شراء الأصوات ..

تناثر الرذاذ من فم الكاشف :

ــ يا رجل .. أنت لم تبرح مكانك ..

جرى براحته على رأسه فى تثاقل :

ــ مرشحك هو الذى يطلب تنازلى ..

كان يعبّر بانبساط عضلات الوجه وانقباضها ، والتفاتات الرأس ، وحركة اليدين ، وعلو الصوت وانخفاضه . فإذا أثاره محدّثه ، أطلق شخرة كالخوار ..

أعفاه عباس الخوالقة من الحرج . انتحى بالرجل فى زاوية قهوة مخيمخ ، وحصل على توقيعه بالتنازل ..

فوجئ الكاشف فى نفسه لما ردد الهتاف وراء إبراهيم سيف النصر . عرف فى نفسه الخجل ، حتى من الكلام وسط جماعة ، لكنه انساق وراء التدافع . خاض زحاماً قرر الخروج منه مرات كثيرة ، لولا أن البديل اختفى . تبدأ الجولة من قهوة فاروق . تمضى إلى ميدان المنشية . تخترق الشوارع والأسواق المحيطة ، أو تمضى إلى داخل بحرى . تنطلق من ميدان الخمس فوانيس ، إلى رأس التين والأنفوشى والسيالة . الشوارع القديمة ، كثيرة الالتواء ، المتشابكة ، المتداخلة ، تعبق برائحة الزمن . رائحة لها خصوصيتها ، تبين عن انتماء المكان إلى بيئة البحر ، وثمة فجوات ــ بتــأثير الرطوبة والملوحة ــ فى واجهات البيوت . والمداخل تضيق بألواح الخشب والفلين والحبال والغزل . ورائحة المعسل المحترق ، وبخار الفول يتصاعد من القدور ، وطرطشات الفلافل ، وقلى السمك . والنساء يتنادين ــ ويتكلمن ــ من النوافذ والشرفات المتقاربة ، ومن أمام الأبواب . أو يستروحن النسمات المترامية من ناحية البحر . ورائحة لا يدرى طبيعتها تصدر من بيوت حارة اليهود ، رائحة نفاذة ، غريبة ، لا يعرف سرها ، والقهاوى والمطاعم

ودكاكين البقالة والعطارة والسمك والخضروات ، والعربات تتقابل ــ تنفذ منها الجولة بصعوبة ــ عليها أقراص الجبن التركى وأقفاص الخضر والفاكهة والمصنوعات البلاستيكية وجريد الخبز ، ومرساة الميناء الشرقية : المراكب الشرعية الصغيرة ، والفلايك ، والكواتر ، والدناجل ، واللواتس .. يحاذر برك المياه الطينية فى الطريق ، أو لا يحاذرها . أجاد التخمين بين مياه الاستحمام المخلوطة بالصابون ذى الرائحة ، ومياه الغسيل المصطبغة بلون الزهرة ، والمياه المتخلفة من تنظيف السمك .

تتردد الهتافات خافتة . تترك لارتفاع أمواجها انضمام المارة وأصحاب الدكاكين . تتضخم فى سيرها . تقترب من المظاهرة ..

قال له الجرسون ياقوت فى ود يسيل لزوجة :

ــ أنا وأنت هتيفة .. الفارق أنك تهتف بلا مقابل .. أما أنا فأتقاضى خمسين قرشاً آخر النهار ..

ثم وهو يجرى بأصابعه على رقبته :

ــ نبحة صوتى لها ثمن !..

خيل له أنه يستمع إلى صوته للمرة الأولى . لا يتذكر أنه علا بصوته من قبل . هى أحاديث متبادلة . أخذ ورد ، لا يعوزه ارتفاع الصوت . لم يكن يهتف بصوته . ثمة صوت تتفرج به شفتاه . يعلو ويمتد . يعيد الهتافات . يغالب التردد والخجل . يشفق من أن يراه زميل فى الحقانية . سيعود بما رأى ، مضيفاً إليه ما لم يفعله ، ولا خطر فى باله . تتشوه المكانة التى خرج بها إلى المعاش ، وربما تسقط تماماً ..

مال عباس الخوالقة على أذن عبد الله الكاشف :

ــ إذا كان مرشحك يريد الفوز حقاً .. فإن الأصوات الحقيقية هنا .. فى الأنفوشى ورأس التين !..

واتجه إلى أحمد الزردونى بنظرة محرضة :

ــ ما رأيك يا معلم لو أنك رشحت نفسك ، بدلاً من التعب لإنجاح الآخرين ؟..

قال الزردونى :

ــ قعدتى فى القهوة أبرك من مليون مجلس نواب !..

قام ليشرب من القلة الموضوعة على الحامل داخل الشرفة . لاحظ الرجال الثلاثة ، تكوموا فى حديث هامس على باب ميضأة البوصيرى ..

حاول أن ينصت ــ بالفضول ــ إلى مايهمسون ..

أخفق ، فعاد إلى الداخل ..

ونفس وما سواها

" ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون "

قرآن كريم

قال أبو الحسن الشاذلى :

" من أحب الله ، لم يستعمل جوارحه إلاّ فيما يوافق محبوبه ، وأنفاسه كلها محفوظة بالطاعة . ولو حيل بينه وبين الخدمة لفارق الدنيا من ساعته ، لأن الطاعة قد صارت غذاء أرواحهم ، فإن فارقوها ماتوا . نفعنا الله بهم . آمين "

قال أبو العباس :

" وقد يجمع شمله برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيكون آخذاً عنه ، وكفى بهذا منه "

صعد الشيخ عبد الحفيظ ــ إمام سيدى على تمراز ــ المنبر ..

لاحظ سريان الهمس فى صفوف المصلين . نظر إلى النجفة المتدلية من أعلى صحن الجامع ، وقال :

ــ إنى أكلمك !..

كرر القول بصوت أعلى ..

فهم المصلون ما يعنيه ، فاتجهوا إليه بانتباههم ..

حمد الله ، وأثنى عليه ، وعلى آلائه ، وشكر نعمائه ، وصلى على محمد صفيه ، وخاتم أنبيائه ..

استعاذ بالله من سيطرة الشيطان على العقول ، ثم دعا المصلين إلى انتخاب المرشح الأصلح . لم يذكر الإسم ، وإن تحدث عن دور الوفد فى الحركة الوطنية ، ومقاومته لوصاية الإنجليز والسراى ..

علا صوت الشيخ :

ــ قال رسول الله صلى عليه وسلم : من ولى من أمور أمتى شيئاً ، ثم لم يجتهد لهم ، ولم ينصح ، فالجنة عليه حرام..

همس إبراهيم سيف النصر فى نفسه :

ـ ينصر دينك يا شيخ عبد الحفيظ .. اعتدل الميزان بكلمتك !..

كان إمام أبو العباس قد أذهل الجميع بدعوة المصلين إلى انتخاب مرشح الأحرار الدستوريين . أعاد بقية المرشحين حساباتهم ، وطالت الجلسات مع المؤيدين ..

للشيخ عبد الحفيظ صيته ومكانته . يبدو مهاباً بقامته الطويلة الممتلئة ، وهالة الذقن البيضاء المحيطة بوجهه ، وتعمده الجدية فى أقواله وتصرفاته ، وإن علت شفتيه ابتسامة هادئة لا تكاد تفارقها . وكان إذا خرج إلى الجامع يهيئ من نفسه ، يعنى بتسريح شعر رأسه ، وتخضيب حاجبيه وشاربه ، ويدهن ، ويتطيب بالغسل والاغتسال والروائح الطيبة ، ويرتدى أحسن ماعنده ..

تزايدت أعداد القادمين من ضواحى الإسكندرية والمدن القريبة ، يحرصون على أداء صلاة الجمعة فى على تمراز . يشغلهم ما يقوله الشيخ فى خطبه ، متابعته للأحداث ، ومواجهته للحكومة . يتزايد الزحام ، ويتسع . يسد الميدان . يفيض على الشوارع المتفرعة . يصعد ناس ـ لسماع الخطبة ، وأداء الصلاة ـ إلى أسطح البيوت المحيطة

بالجامع . يطل من النوافذ والشرفات ، نساء وأطفال . تجتذبهم الحشود التى تغيبها انحناءات الشوارع ، وارتفاع الميكروفون ــ أعلى المئذنة ــ بصوت الشيخ عبد الحفيظ . إذا كانت الحكومة تملك الراديو ، فإننا نجد التعويض فى بيت الله ، نلتقى فيه خمس مرات كل يوم ، وبالذات فى صلاة الجمعة .

عند حلول موعد الخطبة ، يصعد على المنبر برجله اليمنى ، وهو يتلو أدعية . يرفع رجله اليمنى عند كل درجة حتى يصل إلى المنبر . يلتفت إلى الحضور ، ويلقى السلام ، ثم يجلس ، ليرفع الشيخ قرشى الأذان ..

كان يرتجل خطبه . لا يلتزم بالخطب الموضوعة التى ترسلها وزارة الأوقاف . لا يعظ الناس ، ولا يذكّرهم ، أو يحذرهم وبال الجدال بالباطل ، وما يلحق بالباطل من سخط الله . يتحدث فيما يشغل الناس ، ويشغله . يطيل التحدث فيما تنشره الصحف ، وتبثه الإذاعات ، ويتناقله الناس . يعقب على الشائعات . يقصد وجه الله وحده . لا يرعى خاطراً لأحد ، ولا يجامل مخلوقاً على حساب الخالق ، ويجهر بالملاحظة دون أن يعنيه وقعها على نفوس مستمعيه ، وإن

زاد فى الكلمات ، أو اختصرها ، أو أعاد ما يرى أنه قد غمض عن المصلين . لم يكن يفرق بين رؤساء الوزارات المتعاقبين . جميعهم مسئولون عن المصائب التى تحيق بالبلد . عاب على الحكام أنهم لم يبايعوا الناس على ما بايع الصحابة رسول الله من القول بالحق ونصرة الدين ، لكنهم بايعوهم على نظم وقوانين ليس فيها من الشرع إلاّ ما وافق الهوى ، والشريعة صالحة لزماننا الحالى . إنهم لا يقيمون الدين ويحاربون أهله . لم يأخذوا البيعة من الناس بصفقة اليد وثمرة القلب ، ولا بالطوع والاختيار ، إنما بالجبر والقهر . قال : إن الطاعة لا تجب لمن لا يقودنا بكتاب الله . وعاب على وجهاء البلد أنهم آثروا الدنيا ، واقتربوا من السلطان . وأكد أن الله لن يسأل الفقراء يوم القيامة عن زكاة ، ولا عن حج ، ولا عن صدقة ، ولا عن مواساة ، إنما هو يسأل الأغنياء عن هؤلاء المساكين . وعاب على المسلمين أنهم يريدون الإسلام بلا عزة ، والدنيا بلا سلطان ، وأنهم أبطلوا الجهاد ، ولا يحبون ذكره . وعاب على الجميع قلة الورع ، وعدم التقوى ، وطول الحساب ، ومخالفة الشرع ، ونشر الكتاب ، وكثرة الطالبين ، وتعلق المظلومين بالظالمين ،

والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والزور ، والبهتان ، وصحبة الأشرار ، ومخالطة الأراذل . وقال : مشكلة المسلمين فى قلوبهم وليست فى عقولهم ..

لم تكن تستوقفه حدة العبارات ، ولا سخونتها . يتكلم فى القضية بما يفد إلى خاطره . يستعين بآيات القرآن وأحاديث الرسول . وكان أسلوب إلقائه يؤثر فى المصلين . وإن جلبت عليه طريقته فى الجدل والمناظرة ملاحظات ومؤاخذات ..

لم يعرف عنه أنه قبل كسوة ، ولا أخذ جراية . الكرامة عنده هى الاستقامة ، وإن كان يقبل هدايا الفقراء ، ويفرح بها ..

اعتبره الناس إمام وقته ، لا فى بحرى فقط ، ولا فى الإسكندرية وحدها ، وإنما فى البلاد المصرية كلها . تحدثوا عن اجتهاداته وآرائه ، تخالف ما تحدث به أئمة البوصيرى وأبو العباس وياقوت العرش ونصر الدين وعبد الرحمن والجوامع الأخرى ، فهو عارف للفتوى على المذاهب الأربعة ، بصيراً بأقوالها واتفاقها واختلافها . دعا للعودة إلى أيام الإسلام الأولى ، واتباع أحكام القرآن والسنة . وكان

يطيل السجود والدعاء والابتهالات والتوسلات ، ويكثر من الاستشهاد بآيات القرآن وأحاديث الرسول . وكان يقول : ما جاء به الرسول علينا أن نأخذ به ، وما نهى عنه علينا أن ننتهى عنه . أفتى بعدم جواز الشفاعة ، والتوسل بالأنبياء والأولياء ، ونهى المصلين عن زيارة ضريح سيدى على تمراز ، والشفاعة به . ولم يخف غضبه لما رأى أحد المصلين يضع على الضريح ــ من بين فرجات الأعمدة النحاسية ــ رسالة إلى ولى الله ..

قال :

ــ كتابة الرسائل للأولياء خرافة ..

وأردف فى نبرة حاسمة :

ــ الأولياء قدوة فقط .. ولا شأن لهم بعرائض الاسترحام والمظالم ..

نهى جلساءه عن قراءة " دلائل الخيرات " . قال : إن التوسل بالأنبياء والأولياء كفر ، على المرء أن يستعيذ بالله منه ..

هاجم فى خطبه جماعات الطرق الصوفية . اتهمها بأنها ليست من الدين فى شىء . وجد فى حركات الصوفية

أباطيل تشمئز منها القلوب ، وتنفر عنها الخواطر . جاهر برفض التنطع فى الدين ، والتظاهر بالتقوى والورع ، وارتداء المرقعة ، والإتيان بالخوارق والأعاجيب التى تسحر أعين ألناس : أكل الحشرات والصبّار ، ابتلاع الثعابين والزجاج وقطع الفحم المشتعلة ، الضرب بالسيف والدبوس ، غرز الإبر والمسامير الكبيرة فى الوجنتين والأنف . وعاب على المعتقدات الغيبية ، كالسحر ، وقراءة الورق ، واستخدام الرقى ، والعين الحاسدة ، وتحضير الأرواح . أنكر ما ينسبه البعض إلى نفسه من علم الغيب ، وقراءة الطالع ، والتنبؤ بالمستقبل . وحين سارت مواكب الصوفية أمام الجامع فى احتفالاتها بمولد أبو العباس ، تعالى صوت الشيخ عبد الحفيظ ــ فى الميكروفون ــ يعيب السلوكيات الباطلة . وقال : إن الإسلام لا يعترف بأعياد الميلاد . حتى مولد الرسول بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار . ورفض أن تقرأ فى صحن الجامع أحزاب الشاذلية . قال :

ــ لا أحب إلى الله من لا إله إلا الل !..

وعندما تناهت دقات دفوف من بيت إبراهيم سيف النصر ، المقابل ، قال فى غضب :

ــ هذه أصوات الشياطين !..

ظلت أعــداد المصلين فى تزايد . لم يصرفهم الخوف من غضب المشايخ فى الطرق التى يشغى بهم الحى : الشاذلية ، والقادرية ، والرفاعية ، والأحمدية ، وغيرها ، وإن اعترض عليه مطربش من المصلين ، لما أعلن رفضه لقصد زيارة القبر الشريف ، دون قصد الجامع النبوى ..

صار على تمراز موصوفاً بالبركة ، يتبرك الناس بالصلاة فيه . يشغى بالقادمين من مدن البحيرة والغربية والمنوفية ، يدفعهم حب الاستطلاع لرؤية الشيخ عبد الحفيظ ، وسماع خطبه . يشغلهم ما يقوله ، ومتابعته للأحداث ، وآرائه فى الحكومة القائمة ..

وقال أمين عزب :

ــ الشيخ عبد الحفيظ أفضل الأئمة فى الحى .. ولولا انشغالى فى الزاوية لحرصت على الصلاة وراءه ..

مع تعاظم المصلين ، فإنه ظل بلا أتباع ولا مريدين ، ورفض ما نسب إليه من كرامات . علا صوته بالرفض عندما جعلته أعداد من المترددين على الجامع ولياً ، وجعلوا أنفسهم مريدين . قال :

ـــ لا ولى ولا مريدون !..

وقال فى تأكيد :

ـــ لست ولياً ولا صاحب طريقة ، ولا مريدين لى !..

وشردت عيناه فيما لا يتبينه أحد :

ـــ كل مؤمن له قدر من الولاية .. على قدر إشراق نور الإيمان فى قلبه !

كان يرفض اللمة ، وينفر من الإفراط فى المجالسة والمخالطة . يخشى ـــ من انشغاله بتزاحم الناس وأسئلتهم ـــ أن يخطئ فيما ينبغى قوله . يظل فى الجامع من صلاة العصر إلى ما بعد صلاة العشاء . لا يلتفت إلى المصلين إلاّ إذا اعترض طريقه سؤال أو فتوى . يجيل عقله فيما أنصت إليه ، أو قرأه ، لا يأخذه على علاته . يقلب الأسئلة والأجوبة والاجتهادات ، فلا يقتنع إلاّ بما يطمئن إليه بعقله ، ويتأكد من صوابه . يخاطب سائليه على قدر فهمهم ، يتصور الحياة فيما يواجهونه من مشكلات . يمضى إلى حجرته أيمن الباب الرئيسى ، أو إلى الميضأة للتوضؤ . وكان دائماً على الطهارة ، ويستقبل القبلة فى كل جلساته ..

كانت صلته بالمترددين على الجامع تنتهى بإغلاق الأبواب . يعود ــ ماشياً ــ إلى بيته فى الوسعاية المقابلة لمدرسة إبراهيم الأول ..

اعتبروه عالم عصره ، يرجعون إليه فيما يشكل على غيره من الأئمة والمشايخ . يقضى بما يرى أنه الصواب ، وما يوافقون عليه ، ويحرصون على درسه اليومى بين المغرب والعشاء . يجلس على دكة المبلغ ، فى مواجهة الباب الرئيسى ، تعلو عن الأرض بحوالى المتر ، من الخشب المخروط ، زينت حوافها بآيات قرآنية . يركز فى الفقه والتفسير والحديث . يقاطع الأحاديث إن مضت فى غير الوجهة التى يريدها ، بابتسامة مشفقة ، وهزة رأس . يصمت المتحدث عن المتابعة . يصل بكلمات تعود بالحديث إلى بداياته . لا انحناءات ، ولا ثرثرات جانبية ..

عرف عنه ميله إلى التيسير على الناس . من تفوته صلاة ، فإن قضاءها يحفظ له ثوابها ، ومن لا يطيق الصوم ، فإن عليه فدية طعام مسكين ، والحج إلى بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً ، وما يريده البيت يحرم على الجامع ، ونفى وقوع طلاق الغضبان ، والطلاق الذى يراد به الحمل

على شئ ، أو المنع عنه ، واعتبار الطلاق الثالث فى مجلس واحد ، طلقة واحدة . كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون ، وكل الخطايا مغفورة ، ماعدا الشرك بالله ..

كان يكره تقبيل المصلين ليده . ينزع يده فى غضب واضح :

ـ شيخنا أبو الدرداء قال : لا أحسن السباحة ، وأخاف الغرق !..

لم يكن يجد غضاضة فى أن يلتقط الأوراق من داخل الجامع ، ويحرص على صيانته من كل ما يشوّه جماله . يأمر بتنفيذه ، وتجنبيه ما يسئ إلى مهابته ، كرفع الصوت ، والهراء ، والتشويش على المصلين ، ويقول : من أخرج أذى من المسجد بنى الله له بيتاً فى الجنة . واستن تقليداً جديداً ، لم يكن متبعاً من قبل . جعل الجامع مفتوحاً طيلة الليل . يتردد عليه من يريد العبادة . الصلاة وقراءة القرآن وكتب الدين ، وإن نغز بعصا رفيعة كل من راح فى النوم داخل الجامع . بيت الله ليس فندقاً . وكان يظهر الغضب لرؤية الجالسين فى الجامع بلا عمل :

ـــ الحديث فى الجامع يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش !..

وحين لمح الشيخ قرشى يجلس على قهوة المهدى اللبان ، لم يخف استياءه :

ـــ حامل القرآن هو حامل راية الإسلام .. يجب ألاّ يجالس أصدقاء اللهو تعظيماً لحق القرآن ..

قال الشيخ قرشى :

ـــ إنهم موظفون محترمون ..

قال الإمام :

ـــ مهما تبلغ مكانة المرء ، فإنه جناح بعوضة فى ظل القرآن !..

***

قال أدهم أبو حمد :

ـــ لولا أن الصحة لا تحتمل .. لصليت كل الأوقات فى على تمراز ..

كان أدهم أبو حمد يصلى الأوقات فى جامع سيدى عبد الرحمن بن هرمز بشارع رأس التين . أجهده حرص الشيخ عبد الحفيظ على الطمأنينة فى العبادة . إذا رفع الأذان ،

انفض عن كل من حوله ، وأقبل على مقدمات الصلاة ، يطيل فى وضوئه ، لا يعلو صوته بغير آيات القــرآن والأدعية والتسابيح ، لا يتحول بصره حتى يأخذ مكانه من الصلاة ، بمفرده ، أو إماماً للمصلين . يحرص على أداء كل صلاة فى وقتها . يطيل الصلاة ، القيام ، والركوع ، والسجود . يتلو السور حتى نهاياتها . لا يعلو صوته : سمع الله لمن حمده ، إلا بعد أن تكون الأفواه قد سكتت عن التمتمات والأدعية . الصلاة توجه إلى الله ، خشوع حقيقى له . اعتاد المصلون إطالة سجوده . يظل فى سجدته دقائق . صلة المرء بربه ، أقرب ما تكون بالسجود ، فهو يهب الفرصة للمصلين وراءه حتى يفرغوا كل ما بنفوسهم . يضعون جباههم على الحصير ، يشغلون الوقت الطويل بأدعية وابتهالات ، حتى يعلو صوت الشيخ عبد الحفيظ بالتكبير . يؤدى الصلاة ، فالكعبة بين حاجبيه ، والصراط تحت قدميه ، والجنة عن يمينه ، وجهنم عن شماله ، وملك الموت فى قفاه ، يظن أنها آخر صلاته . ربما قطع الصلاة ، يعود إلى التكبير من البداية ، يعتذر ــ بصوت مسموع ــ أن عارضاً من أمور الدنيا شغله ، صرفه عن صدق التوجه إلى

الله ، والصلاة لا تجوز إلا أن يقبل المرء عليها بنية مخلصة ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ من ينكر أن كلام الرجل عدل الميزان ؟..

قال أدهم أبو حمد :

ــ هل فى مصر ميزان ليعتدل ..

قال سيف النصر :

ــ هذا ما ستراه عندما يفوز الوفد ..

وأضاف بلهجة محرضة :

ــ عندما يفوز الوفد سأدعوكم إلى أكلة إستاكوزا ..

ونظر ناحية عبد الله الكاشف :

ــ وإن كنت أشفق على عبد الله افندى لأنه سيصعب عليه تصريفها ..

وغمز بعينه .

حجاب الأنوار

علت الهتافات ، وانطلقت زغرودة من نافذة تطل على شارع السيالة ..

السرادق بعرض شارع السيالة ، وإن ترك حيز للسير بين الرصيف والجدران . فتح ناحية ميدان المساجد ، صفت الكراسى والسجاجيد ، وغطيت الأرض بالرمال الحمراء ، وتدلت اللمبات والكلوبات من السقف ، وتعالت الأصوات من الميكروفونات المبثوثة فى جوانب السرادق . تنقل تلاوة القرآن والخطب والهتافات وعبارات التأييد . وغنى عزت عوض الله :

يا زايد فى الحلاوة عن أهل حينا
ما تبطل الشقاوة وتعالى عندنـــا

صـــور المرشحين ملصقة على الجدران . الهواء يتلاعب باللافتات ، تغطى شرفات البيوت ، وتعلو الأعمدة الخشبية ، وعلى الحوائط ..

علا الإيقاع بالجولات الانتخابية ، والسرادقات ، والجلوس فى القهاوى ، والاتهامات المتبادلة ، والوشايات ، والشتائم ، والشكاوى الكيدية ، والمعارك الصغيرة ، تتداخل الكلمات الطيبة فلا تتسع ..

أخذ حمادة بك المنشور الانتخابى من عباس الخوالقة . قرأه بنظرة غير متأملة ، وطواه ، ورده إلى الخوالقة ..

لم يعد يشغله من رشح نفسه ، ومن انسحب . أهمل التردد على درس المغرب فى أبو العباس وقهوة الزردونى . اكتفى بقعدات طيارى أمام دكان محمد صبرة ، وفى قهوة فاروق بشارع إسماعيل صبرى ..

كان المعلم أحمد الزردونى يعانى حرجاً باعتزام حمادة بك ترشيح نفسه . وفديته قديمة بدايتها فى أحداث ثورة ١٩١٩ . شارك فى المظاهرات ، وهتف بالجلاء ، وترصد لجنود الإنجليز فى الشوارع المظلمة ..

بركة يا جامع ..

قالها حين بلغه نبأ تأخر حمادة بك عن آخر موعد للترشيح . غالب الحرج ، واستعاد وفديته القديمة . أعلن

تأييده لجمال كاتو ، مرشح الوفد ، وأصر أن يقيم سرادق السيالة على نفقته ..

قال جمال كاتو فى صوت متأثر :

ــ لا أريد أن تشق على نفسك .. يهمنى أصوات الصيادين ..

قال الزردونى فى تأكيد :

ــ اعتبرهم فى جيبك ..

لم يكن عم سلامة يعرف الفرق بين الوفد والأحرار الدستوريين والوطنى . كلها أحزاب تسعى للجلوس على مقاعد الحكم ، والحصول على مكاسب لأعضائها . من حقه ــ مادام يساعدها فى الفوز ــ أن ينال قضمة من الرغيف ..

وافق أن يعلق كل المرشحين أوراق دعايتهم على جدران المطعم . قال :

ــ هذا مولد .. حرام أن نطلع منه بلا حمص !..

قال المعلم الزردونى :

ــ حمادة بك صديقنا .. كان أولى ..

ثم فى لهجة غاضبة :

ــ من قال له يتأخر عن تقديم أوراقه ؟!

* * *

رفض عبد الناصر السوهاجى صاحب قهوة مخيمخ أن يقرأ الفاتحة مع جمال كاتو ما لم يعد بأن تقتصر التلاوات فى سرادقاته على قراء القهوة ..

تأمل عبد الله الكاشف التسمية : ابن الدايرة !..

قال :

ــ هذا التعبير حمال أوجه ، فلماذا لا نغيره ؟..

قال المعلم الزردونى :

ــ جمال كاتو ابن الدائرة فعلاً ..

نفض الكاشف رأسه :

ــ المعنى حمال أوجه !..

لم تعد أيدى الرجال تمتد إلى الجيوب . اعتادوا قدوم المرشحين والخطب وهتافات التأييد ، وبذل الوعود ، ودفع أثمان المشاريب نيابة عن الجميع .

ضايق إسماعيل سعفان صوت الميكروفون . اخترق الضجيج رأسه ، ثقبه . تلاوة قرآن وخطب وهتافات . تداخلت الأصوات فلا يميز شيئاً ، تلاغط لا حد لصخبه يخترق أذنيه . حتى زجاج النوافذ اهتز لشدة الصوت ..

أمسك الكرسى بيد مرتعشة ، واقترب ، واقترب ..

الناس ــ فى الداخل ــ مشغولين بما يجرى على المنصة ، والخطب ، والهتافات ، والزغاريد ..

بآخر ما عنده ، رفع الكرسى ، وطوح به فى الظهور المتساندة . أيقظته الفوضى التى أعقبت الصرخة المتأملة : قنبلة !..

انتثر الجالسون ، وتدافعوا إلى الشارع . توزعت الأقدام . دفعته فى اندفاعها خارج السرادق . حاول اتقائها بيديه .. لكن الموجات الخائفة ، الغاضبة ، ابتلعته ..

تعالت الكراسى ، ونزلت ، وتكسرت ، وتناثرت ، وتطايرت الزجاجات الفارغة ، وتطوح الشوم ، والتمعت الخناجر والسكاكين ، واهتزت الكلوبات واللمبات ، وانطفأ معظمها ..

* * *

قال عبد الوهاب مرزوق لإسماعيل سعفان ، وهم يقلونه فى عربة البوكس :

ــ يا رجل .. ابنك لم تأخذه عروسة بحر ولا بر ..

أضاف فى نفاد صبر :

ـــ ابنك أكله السمك ..

بحلقت عيناه ، لا تطرفان . تجمد على هيئته . غابت التصورات . بدت الصدمة أقوى مما يحتمله . كان يرفض ـــ فى أعماقه ـــ الحكايات الغريبة ، لا يصدقها ، لكنها الأمل فى أن يعود البهاء . المستحيل هو الجدار المصمت .

الأعمـــاق

أزاح الستارة ، وتطلع إلى الطريق ..

بدا الباب الخلفى لسيدى البوصيرى هادئاً ، خالياً من الداخلين والخارجين . وثمة ضوء شاحب يترامى من المصباح أعلى الساحة الرخامية . تناثرت فى زاوية الرؤية الممتدة إلى المئذنة مزق سحب بيضاء ، والهواء البارد أغلق نوافذ البيوت ، وكان يحرك أغصان الشجر ، تتساقط منها الأوراق ، يتلقفها الهواء ، يقذف بها إلى بعيد ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـ أصر الملك ألاّ يعود الوفد إلى الحكم منذ أقال حكومته فى ١٩٤٤ .. لكن الوفد عاد بإرادة الشعب !..

ثم وهو يهز قبضته :

ـ مع ذلك فإن خطاب العرش الذى ألقاه النحاس أكد أنه سوف يتبع فى الحكم سياسة قومية لا تعرف التحزب ولا المحاباة والمحسوبية ..

قال فهمى الأشقر :

ــ كلام زعيم !..

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ المهم أن يوقف النحاس الملك عند حده ..

قال أدهم أبو حمد :

ــ والإنجليز ؟

قال سيف النصر :

ــ لن يتردد النحاس فى إلغاء المعاهدة ..

قال المهدى اللبان :

ــ هل قرأت ما قاله فؤاد سراج الدين فى مجلس النواب : فى المجلس الآن ٢٢٨ نائباً إشتراكياً ..

اتجه سيف النصر إلى أدهم أبو حمد بنظرة متشفية :

ــ راحت عليك إذن يا أدهم افندى أنت وحزبك الاشتراكى ..

قال عبد الله الكاشف :

ــ أعلن الراديو منذ قليل تشكيل الوزارة الجديدة ..

قال أدهم أبو حمد :

ــ المهم أن ينقضى وقت قبل أن يعلن عن إقالتها ..

قال سيف النصر :

ــ فال الله ولا فالك !

قال الكاشف :

ــ هذه لعبة القط والفأر بين الوفد والسراى منذ أيام الملك فؤاد ..

هتف ابراهيم سيف النصر :

ــ إلاّ هذه المرة .. الأغلبية ساحقة ..

قال المهدى اللبان :

ــ أنا لا أحب السياسة .. وأرفض لعبة الانتخابات .. لكننى أرحب بفوز الوفد نكاية فى الملك !..

قال أدهم أبو حمد :

ــ الناس اختارت الوفد كراهية فى معاوية ، لا حباً فى عمرو ..

ــ ماذا تقصد ؟..

ــ انتخبوا الوفد بغضاً فى الملك والسعديين .. لا حباً فى حكمه !..

وزفر فى حزن :

ــ بصراحة . أنا أشم رائحة تدخل من السراى فى تشكيل الوزارة ..

قال سيف النصر :

ـــ لايمكن !.. هذه حكومة الوفد .. حكومة مصطفى النحاس ..

قال أبو حمد :

ـــ وماذا عن تعيين محمد حيدر قائداً للقوات المسلحة ؟.. إنه المسئول الأول عن كارثة فلسطين !..

أكد المهدى اللبان أنه رأى مرشح السعديين يستقل سيارته خارج الحى ، لما تجاوز مرشح الوفد الأصوات المطلوبة . وروى أدهم أبو حمد ذكرياته عن ثورة ١٩ . احتلال الإنجليز للجمارك فى الميناء الغربية . نزولهم إلى الشواطئ والأحياء والشوارع . التفافهم حول قصر رأس التين كى يحموا السلطان فؤاد . حين عاد سعد زغلول من مالطة ، استقبله الشعب فى باب نمرة واحد . مر الموكب فى شارع رأس التين ، وشارع فرنسا ، وميدان محمد على ، وشارع شريف ، وشارع فؤاد ، إلى فندق بالقرب من كوم الدكة . تذكر الشيخ قرشى ما فعله به البوليس فى انتخابات صدقى : كتبوا علامة بالطباشير على ظهره . عرف

المخبرون خارج لجنة الإنتخاب ، أنه أعطى صوته لمرشح المعارضة ، فعاقبوه بعلقة !..

تنهد وهو يغمض عينيه :

ــ أيام !..

وحيد كما كان . الاستيقاظ وقراءة الصحف وسماع الراديو والأكل والانتظار الممل . عالج حشرجة فى صوته ، ربما بتأثير هتاف الانتخابات ..

لو أن الانتخابات استمرت . لو أنه ظل على تنقله بين المقر الانتخابى والقهوة ، والمشاركة فى إعداد اللافتات والنشرات ، ومرافقة جمال كاتو فى شوارع بحرى وحواريه ..

ضوء المصباح أخفى تسلل أشعة الشمس من خصاص النافذة . لم يلحظ قدوم الصباح إلاّ بعد أن نظر ــ بعفوية ــ ناحية النافذة المغلقة . تعمد الاستيقاظ مبكراً . أعاد ترتيب المكتبة . اختار ما ينوى قراءته . جال بعينيه فى الحجرة ، يبحث عن شئ يقطع به الوقت . تمشى فى الشقة . أطل من الشرفة على الداخلين إلى البوصيرى ، والخارجين منه ..

مضت اللحظات بطيئة ، ثقيلة . اشتاق لهد الحيل الذى كان ينخر فى جسمه ، وهو يسلم جسمه إلى السرير ، آخر الليل . الجولات الانتخابية ، والجلوس على القهاوى ، والمشاركة فى المناقشات ، والسير فيما لم يكن يعرف من شوارع الحى وحواريه ..

قدمت أسرته من بركة غطاس وهو فى الخامسة . وولدت أختاه فى البيت الحالى . بدّل طريقه ــ بعد ترك الدراسة ــ من مدرسة رأس التين الثانوية إلى سراى الحقانية . طريق وحيدة ، لا يغيرها . ألف البنايات على الجانبين : الشرفات والنوافذ واللافتات والدكاكين والقهاوى . ألف كذك سحناً مطلة ، أو واقفة ، أو تعبر الطريق . قادته الحملة الإنتخابية إلى أماكن لم يرها من قبل . شوارع وحوارى وأزقة وزوايا وأضرحة . حتى مقام سيدى كظمان القريب ، تعرف إليه فى طوافه مع جمال كاتو ..

لاحظ إبراهيم سيف النصر نظرته الداهشة . همس وهما يسيران فى نهاية الموكب :

ــ من ير نظرتك يحسبك أجنبياً ضل طريق العودة إلى الميناء ..

رفت على شفتيه ابتسامة معتذرة :

ــ أعترف أنى رأيت بحرى الذى لم أكن أعرفه ..

قال سيف النصر :

ــ يا رجل .. حتى حلقة السمك بدوت فيها كالغريب ..

قال :

ــ ومن يسمعك ؟!.. وقتى امتصته مشاغل الوظيفة والبيت ..

تفتح قلبه لقاسم الغريانى . اجتذبه مرحه ونكاته ومداعباته . حين عرف أنه لم يتزوج ، همس فى أذنه بأنه ــ مثله ــ بلا زواج ، لكنه مسكون . عشقته جنيّة ، ترافقه فى النهار والليل ، لا تتيح له الحياة مع سواها ..

قال له وهو يجلس مع جمال كاتو فى قهوة الزردونى :

ــ مالك والسياسة ؟.. أنسب وضع لك : معلم فى الحلقة !..

هتف بالدهشة :

ــ أنا ؟! ..

ثم وهو يبعد إحدى راحتيه عن الأخرى :

ــ أنا لا أعرف حتى أنواع السمك .. أدفع ثمن الشروة دون أن أعرف ما اشتريت ..

أدار مفتاح الراديو . عبد الوهاب يغنى : جفنه علم الغزل . استوقفته الكلمات فى البداية . تأملها . نقل جهاز الراديو من موضعه على الرف فى الصالة ، إلى ترابيزة خشبية بالقرب من السرير . يدير المؤشر بين المحطات ، دون أن يغادر مكانه ..

وهو فى طريقه إلى الداخل ، لمح صورة زفاف نبيلة وزوجها فى موضعها على الجدار . نقل غرفة نومه من الداخل إلى ناحية الطريق . تقترب منه أصوات المستندين إلى جدار البوصيرى ، والساعين إلى ميدان المساجد ، والقادمين منه ، وسمّار قهوة مخيمخ أول الميدان ، والدعوات والابتهالات من ساكنى الخيام فى الدحديرة الخلفية ..

جهز لنفسه كوب شاى . وعاد إلى الشرفة المطلة على سيدى البوصيرى ..

بدا الباب الخلفى هادئاً ، خالياً من الداخلين والخارجين . وثمة ضوء شاحب يترامى من المصباح فى الأعلى ..

كان قد انسحب على نفسه ــ فى الأيام التالية لانتهاء الانتخابات ــ لا يكاد ينزل إلى جامع البوصيرى ، ولا إلى جولته الأسبوعية بين جوامع الحى وأضرحة أوليائه ، ولا إلى قهوة المهدى اللبان . الجلسة متشابهة ، والأحاديث لا تتغير . كلام وكلام وكلام . حتى الألعاب التى تسلّى الوقت فى القهاوى ــ هو لا يعرفها ! ــ لايأذن بها المهدى . القهوة للمشروبات والجلسات والدردشة ..

عاد إلى جلسته اليومية فى قهوة المهدى اللبان ..

لم يعد يطيق الوحدة . تمتد به سرحات الخيال : هل يأتى اليوم الذى لا يقوى فيه على الحركة ؟.. يحتاج لمن يعد له الطعام ، ويقدمه له ؟.. من يعينه على الذهاب لدورة المياه ؟.. من يناوله الدواء فى مواعيده ؟.. يراقب أحواله الصحية ، فلا تفاجئه أزمة تذهب بحياته ؟.. بعثت الوحدة فى نفسه إحساساً بالخوف ، خوف مقبض ، يتلبسه ، يخنقه . ربما صحا على أنفاس أو وجوه تقترب منه . ينتفض جالساً . يستعيذ بالله من الشيطان ، ويقرأ آية الكرسى . وكان يطيل فى دعواته وصلواته ، ويطيل السجود . قال إمام البوصيرى : إن صلة العبد بربه أقرب ما تكون وهو ساجد ..

فاجأه إبراهيم سيف النصر بالسؤال :

ــ لماذا لم تتزوج حتى الآن ؟..

لم يكن أعد نفسه للسؤال ، ولا تصور أن سيف النصرً سيواجهه به . قاوم الارتباك لحظات . قرر أن يجيب بما لا يجعل السؤال طرف خيط . بدت كل الطرق مفتوحة إلى ما يخشى حدوثه ..

غمغم :

ــ كله قسمة ونصيب ..

نادى على الجرسون ــ ليقطع اللحظة ــ وطلب كوباً من الينسون ..

قال سيف النصر :

ــ هل تتصور نفسك عجوزاً ؟..

ثم بلهجة تأكيد :

ــ يسموننا عواجيز .. لكننا أوفر صحة من شبان هذه الأيام !..

ثم قال :

ــ سن اليأس للمرأة .. وليس للرجل ..

وأظهر التأثر :

ـــ مع أنها تستطيع الفعل فى أى عمر ..

وقال فى تأثره :

ـــ أما الرجل فلا بد أن يواجه ضياع القدرة بتقدم العمر..

تضايق عندما دنا الرجل بفمه من أذنه :

ـــ إذا كنت تشكو شيئاً ، فإنى أعرف طبيباً ممتازاً ..

علا صوته بتلقائية :

ـــ ماذا تقصد ؟

أهمل الغضب البادى :

ـــ فهمى الأشقر طال رفضه للزواج دون أن يذكر السبب . لما صحبته إلى الطبيب ، خطب بنت الحلال ، وأنجب خمسة أبناء ..

قال الكاشف :

ـــ من حقه أن يعوض خسارته فى اليانصيب ..

لاحظ أن فهمى الأشقر يدمن شراء أوراق اليانصيب . أسماء لا يعرفها ، ولا سمع بها من قبل : الإسعاف .. المواساة .. الفراشة .. الجمعية الخيرية الإسلامية .. يدعو باعة اليانصيب ، أو يأتون إليه إذا لمحوه فى القهوة . لا يكاد

يتناهى إليه نداء : يانصيب .. لوتريه .. حتى ينقل نظراته بين الأشقر والمرأة التى غالباً ما يخصها بنظراته . وكان فهمى الأشقر ينشغل عن الجلسة وهو يراجع قوائم النتائج . البريمو هدفه الذى يحلم به . يتجدد أمله باقتراب الأرقام من الرقم الفائز ، أو بفوز صديق بالرقم الفائز . يحزن للفوارق البسيطة فى الأرقام ، وينهض صائحاً ــ بعفوية ــ عندما يطالعه رقم من الأوراق التى اشتراها . ألف رؤيته يراجع قوائم الأرقام الفائزة أمام دكان السجاير المجاور للطنطاوى بائع الفول . يطيل الوقفة ، فيبدّل رجليه . يكتفى بإلقاء السلام ، أو يسرع فى خطواته ..

قال الكاشف :

ــ عزوفى عن الزواج لأسباب أسرية ..

ثم بصوت هامس :

ــ زالت بعد فوات الأوان ..

استقر فى داخله إحساس ، بأن سن الزواج فاته . وطّن نفسه على أن يظل عزباً ، يواجه الأسئلة ، وربما الملاحظات المعيبة ، بابتسامة محايدة ..

مرة واحدة فكر فى الزواج . لمح ــ وهو فى طريقه من حجرته إلى المطبخ ــ باطن فخذ إقبال جارة الطابق الثانى ، وهى تجلس على السرير فى حجرة علية . اتخذ ــ فى اللحظة التالية ــ قراراً بالتقدم إليها . كان قد أعد ما ينوى قوله لعلية ، حين فاجأته بصوت هامس :

ــ إقبال حدثتنى عن شقيقها .. يريد مقابلتك ..

سكنت ملامحه :

ــ لماذا ؟..

أخفضت رأسها بالحرج :

ــ ربما يريد خطبتى ..

أربكه الاختلاط بين ما أزمعه ، وما فاجأته به علية . قرر أن يمضى فى الطريق الثانية ، فهى أصوب ..

اجتذبه من الشرود صوت سيف النصر :

ــ تزوج .. وتمتع بما بقى لك من الحياة ..

قال أدهم أبو حمد :

ــ ومن قال إن الزواج متعة ؟!..

شغله الهاجس : ماذا لو أنه مات وحيداً فى الشقة ؟! .. ربما مضت أيام حتى يتعفن دون أن يدرى . فكر أن يشدد

على تهامى بائع الخبز ، فيعاود الطرق حتى يفتح له الباب ، لكنه استسخف الفكرة ..

تجمعت الكلمات على شفتيه ، وعزوز بائع اللبن يصب من السطل فى الحلة الصغيرة . يطلب منه خادمة تنظف الشقة ، وترتبها . تعد له طعامه إن استطاعت . خشى أن يدس له البائع من تساعده على سرقة الشقة ، فابتلع الكلمات ..

أزمع أن يباعد بين أوقات المترددين عليه ..

قال لتهامى :

ــ هل يمكن أن تؤخر مجيئك ساعة ؟..

ــ لماذا ؟..

ــ أبداً .. ربما أكون نائماً ..

قال تهامى فى تحير :

ــ هل أعود ثانية بعد أن أنهى جولتى ؟..

أدرك أنه سيجد الرد نفسه عند بائع اللبن ، وبائع الصحف ..

تذكر دعوة من إبراهيم سيف النصر ، فى الأيام الأولى لتردده على قهوة المهدى اللبان . مضى ناحية الكورنيش ،

عبر الرصيف المقابل لنقطة الأنفوشى ، ترافقه الرائحة ، النفاذة ، المترامية من حلقة السمك ، والغزل المنشور فى الخرابة ، خلف النقطة ، وعلى المراكب الساكنة فى زاوية الميناء الشرقية ..

فوجئ سيف النصر لرؤيته ، وإن اكتفى بتوصية العامل ــ أمام المدخل ــ عليه ..

بهرته الأشكال والتكوينات والألوان والأسماك الكبيرة والصغيرة . أطال الملاحظة والتأمل . سرح فى المدى لرؤية هيكل عظمى لسمكة هائلة ، فى مدخل المتحف . وحين اصطدمت عيناه بشمس الظهر ، كان يتأمل ما رأى ، وإن داخله شعور بأنه لن يعود إلى المتحف ثانية ..

أزمـــة ..

لم يكن المصلون قد ألفوا ماحدث . أخذتهم الدهشة ، وصاح البعض بالخوف ..

كان الصمت قد لف صحن سيدى على تمراز وميدان الخمس فوانيس والشوارع المتفرعة . تحدث الشيخ عبد الحفيظ عن زواج الأميرة فتحية من رياض غالى . علا صوته بالغضب والانفعال . أفاضت الصحف فيها ، لكن الإمام كأنه تحدث عنها للمرة الأولى :

ــ الإسلام لم يكسب رياض غالى .. والمسيحية لم تخسر بتحوله !..

اتجهت إلى المنبر مشاعر المصلين . غلبها القلق لما خنقت العبرة صوت الإمام ، وتخبلت عليه الخطبة . تقضت اللحظات بطيئة . غابت عن الجميع وسيلة التصرف ..

همس الإمام :

ــ ساعدونى على النزول ..

تسابقت الأيدى تعينه على ما يريد ..

دعى الطبيب الأرمنى من البيت المجاور . نبهه إبراهيم سيف النصر ، فخلع حذاءه . أخلى حجرة الإمام بالقرب من ضريح سيدى على تمراز ، إلاّ من الشيخ قرشى ، وعم سلطان خادم الجامع . تفحصه بأصابعه ، وبالسماعة . لم يلمح المؤذن والخادم فى وجهه إمارات قلق ..

قال الشيخ قرشى :

ــ خيراً ..

قال الطبيب :

ــ لعله أجهد نفسه ..

قال عم سلطان :

ــ هل ننقله إلى المستشفى أو إلى البيت ؟..

قال الطبيب :

ــ فليظل هنا حتى تستقر الحالة .. ثم أعاود الكشف عليه ..

قال إبراهيم سيف النصر ، وهو يستقر فى مجلسه على الكرسى :

ــ هذا رجل همّه الصراحة ، ومواجهة الأعور بما بعينه ..

قال الشيخ قرشى :

ــ انه دائماً يحبكها ..

وبخه الشيخ عبد الحفيظ ليلة أمس ــ عقب صلاة العشاء ــ لأنه يرفع صوته بالصلاة والتسليم على النبى بعد الأذان ، وإن لم يأخذ عليه محاولة تحسين صوته . قال :

ــ هذه بدعة .. والبدعة ضلالة ..

كانت له طريقته فى تلاوة القرآن ورفع الأذان ، يبدأ التلاوة بنغمة واطئة ، ثم يفرد راحته بجانب فمه ، ويطيل عنقه ، فتبدو العروق نافرة . يبدأ صوته فى الارتفاع . تردد صداه جدران الجامع ، ويسمعه ــ من خلال الميكروفون ــ سكان المناطق القريبة . ويحرص ــ فى الأذان ــ على أن يجعل إصبعيه فى أذنيه ، ويلتفت برأسه وعنقه ناحية اليمين ، فى القول : حى على الصلاة ، ويلتفت ناحية اليسار فى القول : حى على الفلاح دون صدره وقدميه ، ليحافظ على استقبال القبلة . ويقف فى جوانب المئذنة ، ليصل صوته إلى النواحى الأربعة ، ويطيل فى أهازيج السحر ، وفى التواشيح ومدائح الرسول . وكان يجيد تقليد كبار المقرئين : الشيخ سكر ، والشيخ ندا ، والشيخ رفعت ، والشيخ على محمود .

يقلد الصوت وطريقة الأداء . يستدعى صورهم فى الجوامع التى استمع إلى قراءاتهم فيها . له مع محمد عبد الوهاب حكاية أعاد روايتها مرات كثيرة : التقى به فى سان استيفانو . غنّى أمامه . استعاد عبد الوهاب الأغنية ، ثم قال : لو أنك تحولت إلى الغناء ، فسأخشى منافستك !..

قال فهمى الأشقر :

ــ رأيت صورة رياض غالى فى الصحف .. وسيم ــ يشهد الله ــ ومصقول الشعر ، وشديد الأناقة ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ فليغر بأناقته ..

قال الشيخ قرشى :

ــ نعم .. الإسلام لم يخسر كثيراً ..

قال سيف النصر :

ــ ولا المسيحية .. أسلم الأفاق كى يتزوجها ..

قال فهمى الأشقر :

ــ يعنى هو الآن .. لا مسلم ولا نصرانى ..

قال عبد الله الكاشف :

ـــ ذكرت الصحف أن الملكة نازلى هاجمت رجعية الشعب المصرى ..

قال فهمى الأشقر :

ـــ أحسن الملك بحرمان أخته من لقبها ..

قال الشيخ قرشى :

ـــ الرجل أعلن أنه يعتبر رياض غالى مجرد نصاب ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـــ حتى مجلس البلاط ، لم يأخذ بإسلامه .. اعتبره تغطية لهدف دنئ ..

قال أدهم أبو حمد :

ـــ أنا لا أبرئ النحاس .. ألم يرجع إلى الملك فى عيد ميلاده كل الفضائل ؟..

وجاش انفعاله :

ـــ أى فضائل يقصدها هذا الرجل ؟..

أهمل حمدى رخا صمته المحايد :

ـــ لم يعد الوفد هو الوفد منذ عاد إلى الحكم ..

وزفر فى أسى :

ـــ نحن لا نرى إلا حكومة تلبى كل مايطلبه الملك ..

ألف خلوته لنفسه . حتى لو شارك بسؤال ، أو بتعقيب ، فإنه يعود إلى نفسه . محارة تلوذ بصدفتها . يتابع المناقشات بعينين متأملتين ، أو شاردتين . ربما أخذه ما لا يتبينه أحد إلى ما لا يرى . بدا غريباً عن المجموعة . حتى أدهم أبو حمد يخرج عن صمته برأى أو اعتراض ..

قال فهمى الأشقر :

ــ وأين الملك ؟.. إنه الآن فؤاد باشا المصرى فى رحلته الأوروبية !

قال الشيخ قرشى :

ــ ربما يريد أن يجعل مصيف دوفيل عاصمة الحكم!..

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ لو أنك تجيد رفع الأذان مثلما تجيد التعليقات السياسية ؟..

لاحظ أن الشيخ قرشى أخطأ مرتين فى أذان الفجر . نسى ــ مرة ــ تكرار " حى على الصلاة " ، ونسى ــ فى المرة الثانية ــ قول " الصلاة خير من النوم " . إذا تذكر الشيخ بداية صداقتهما أعاد القول : ما محبة إلاّ بعد عداوة . حين لزمت ابنته الفراش بحمى قاسية ، أخفق علاج الأطباء

، حتى بدأت تخرّف فى كلامها . دعا الشيخ قرشى إلى قراءة أوراد وتلاوة قرآن فوق رأسها ..

سحب الشيخ يده لما حاول أن يقدم له ما لم يتبينه :

ــ هذا واجب ..

ــ وهذا حقك ..

ربت الشيخ كتفه بود :

ــ مرتبى أتقاضاه من وزارة الأوقاف .. والظروف ميسورة ..

تحول الارتباك ــ بإصراره على دفع المقابل ــ إلى غضب . امتدت جلساتهما فى قهوة المهدى اللبان . كلّمه الشيخ قرشى عن العسيرات ، قريته القريبة من سوهاج ، وعن سبعة فدادين يديرها أشقاؤه لحسابه ، وبيت يدر عليه إيراداً ثابتاً . جاوزت معرفة أصدقاء القهوة له حد الإنصات لتلاوة القرآن ، ولرفع الأذان والتواشيح وأهازيج السحر . وجدوا فيه متابعة للأحداث وقدرة على الحوار . فاجأهم بآراء تعكس فهماً للأوضاع السياسية فى الداخل والخارج . حتى زيّه كان يختلف عما يرتديه قراء الجوامع . وحين قرر أن يفرغ للقراءة ، تعلم أصولها فى صورة صحيحة . حفظ

الكثير من الأشعار ، ومرن صوته على النغمات المختلفة ، وعود نفسه احتساء ملعقتين من عسل النحل كل صباح ، وتجنب الأطعمة والسوائل الحريفة والتدخين والكحوليات . وكان يحرص أن يؤدى وظيفته بمفرده . يتلو القرآن قبل صلاة الجمعة والعيدين ، ويؤذن للأوقات الخمسة ، وينشد أهازيج السحر ..

قال حمدى رخا :

ــ فلندخل إلى القهوة ..

لاحت مظاهرة قادمة من طريق الكورنيش ، سبقها الأولاد يتقافزون . اختلطت الأجسام والهتافات والأعلام ولافتات القماش ..

نفحات الوصال

وضع ربطة الطير على الطاولة . عصافير ودقانيش وبروبيو ..

قال عبد الله الكاشف :

ــ من شارع الميدان ؟

قال إبراهيم سيف النصر وهو يسحب كرسياً :

ــ لا .. من ميدان المنشية ..

وضم أصابعه على شفتيه :

ــ أطعم من السمّان ..

ــ لا أحبها ولا أحب السّمّان ..

لم يكن يأكل اللحم ولا البيض ولا الطير . كان السمك طعامه المفضل ، لكنه كان يرفض شراءه من الحلقة . تقرفه الأوساخ فى الأرض والطبالى . ينتظر قدوم البلانسات فى الفجر ، يساوم على شروة ..

قال إبراهيم سيف النصر وهو يجرى على جبهته بمنديل :

ــ هذا هو زعيم الشعب .. من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦ ، ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها ..

كان يوم أمس حاراً بالنسبة له . وجد نفسه وسط المتظاهرين الذين استقبلوا النحاس فى عودته من أوروبا . علت الهتافات : إلغ المعاهدة يا نحاس . جلس إلى الراديو فى المساء ينصت إلى النحاس وهو يعلن إلغاء المعاهدة ..

قال أدهم أبو حمد :

ــ هذه خطوة لتغطية إخفاق حكومة الوفد فى مفاوضاتها مع الإنجليز ..

وهز أصبعه فى تأكيد :

ــ ظنى أن النحاس أراد أن يقوى مركزه أمام الملك حتى لا يقيل حكومته ..

هتف سيف النصر :

ــ تانى ؟!

قال أبو حمد :

ــ رائحة فسادها زكمت الأنوف ..

أطلق سيف النصر ــ من أنفه ــ ضحكة مبتورة :

ــ جلالته هو الذى سيقضى على الفساد ..

قال الشيخ قرشى :

ــ ربما يرفض شيخ المنسر أن يرفض القسمة ..

ومض فى عينى سيف النصر استياء :

ــ لست عضواً فى الوفد كما تعرفون .. لكننى لا أتصور أن يصبح نضال الوفد فعل عصابة !..

قال أدهم أبو حمد :

ــ يثيرنى أنك وفدى أكثر من الوفد .. الفساد ظاهرة الفترة ..

قال سيف النصر :

ــ وهل كانت الناس تتنبه لولا ما تنشره الصحف ؟.. وهل كانت الصحف تنشر لولا حرية الصحافة ؟!..

قال فهمى الأشقر :

ــ ولماذا لا يجد الملك فى إلغاء المعاهدة مطلباً أراده الناس ؟..

قال عبد الله الكاشف :

ــ من حق النحاس أن يلغى المعاهدة .. لكن الإلغاء سيظل من طرف واحد ..

واستطرد بالتذكر :

ـــ أذاعت الشرق الأدنى تصريحاً لوزير خارجية بريطانيا رفض فيه إلغاء المعاهدة ، وهدد باستخدام القوة ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـــ هل يفرضون علينا صداقتهم ؟..

قال فهمى الأشقر :

ـــ هذه سياسة .. لا شأن لها بالعواطف !..

قال أدهم أبو حمد :

ـــ أخشى أن تذهب السكرة وتأتى الفكرة ..

قال الشيخ قرشى :

ـــ ماذا تقصد ؟

قال أبو حمد :

ـــ لا تنسوا الملك وقوات الإنجليز فى القناة ..

قال سيف النصر :

ـــ الملك أضعف من أن يواجه زعامة النحاس .. وعلى الإنجليز أن يدافعوا عن احتلالهم للقناة ..

قال زكى بشارة :

ـــ هل يفعلها النحاس ؟..

قال الكاشف :

ـــ هذه المعاهدة .. إما أن تجلى الانجليز .. أو تضيّع كل شئ !..

اتجه فهمى الأشقر إلى أحمد أبو دومة ، ربما ليبدّل الحديث :

ـــ ألست أباً يا مولانا ؟..

قال الشيخ أبو دومة :

ـــ ولى من الأولاد خمسة ..

قال الأشقر :

ـــ كيف تمنع الولد من الخروج إلى دورة المياه ؟..

ـــ أى ولد ؟..

قال الأشقر :

ـــ ابنى .. رءوف ..

قال أبو دومة :

ـــ لا آخذ بالى ..

قال المهدى اللبان :

ـــ ذكّرتنى .. هل يصح يا رجل أن تلوى أذن الولد فكدت تنزعها ؟!..

هتف أبو دومة :

ـــ ابنك أنت أيضا ؟.. هذه حملة منظمة إذن ؟.. أنا لا أعاقب الأولاد عمالاً على بطال .. ولابد أن الولد أخطأ ..

قال المهدى اللبان :

ـــ فرق بين عقاب الكبير وعقاب من يصل إلى ركبتك..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـــ قل إلى صدرك .. فالشيخ ـــ كما ترى ـــ فى طول طفل !..

فاجأ زكى بشارة عبد الله الكاشف بالسؤال :

ـــ هل ما زلت على صلة بالحقانية ؟..

قال الكاشف :

ـــ أتردد عليها .. وإن لم يعد لى فيها صداقات ..

ـــ أريد خدمة ..

استطرد لنظرة الترحيب فى عينى الكاشف :

ـــ تسجيل عقد ابتدائى لقطعة أرض اشتريتها فى المحمودية ..

تدخل إبراهيم سيف النصر :

ـــ ألا تترك هذه الأشياء لموظفيك ؟

ـ إنها بيع وشراء لأكبر الأولاد .. لو علم إخوته فستحدث مشكلات لا داعى لها ..

لم يكن يتحدث عن أسرته فى دمنهور ، ولا حياته الخاصة . أجاب على النظرات المتسائلة عن أيام اقامته الطويلة فى الإسكندرية : أنا أترك كل شئ للموظفين .. مهمتى تسلم الإيرادات ..

ذوت الأسئلة فى الأعين . اطمأنوا إلى تفسيره ، وتوقع أنهم لن ينشغلوا بحياته الخاصة . هى سره الذى يرفض أن يعرفه أحد . لو أنه باح بما فى داخله لسيف النصر فسيمضغ سيرته ، ثم يبصقها . الحائط الشفيف عازل يريده ، يطمئن إليه . حياته الخاصة جزيرة لا يأذن لأحد بدخولها ..

صحا عبد الله الكاشف فى الموعد القديم للحقانية . رغم اعتدال الجو فإنه حرص على ارتداء بدلة كاملة ، تأكد من المنديل فى الجيب العلوى ، وأطال التأمل إلى هيئته أمام المرآة . البدلة ، والقميص ذى الياقة المنشّاة ، والكرافتة ، والطربوش . جرى على تسريحة شعره ، ولامس بإصبعه طرفى شاربه ، ومسح الزبد الأبيض على جانبى فمه المبلل دائماً..

استعاد ما كان نسيه من تثاؤب حركة الطريق . شمس الصباح تلامس أسطح البيوت ، والنوافذ أغلق معظمها ، والشوارع هادئة ، ومقام سيدى خضر ــ يقرأ له الفاتحة ــ بابه ، ونافذته العلوية القصيرة المتقاطعة بالخشب المخروط ، ينفصل عن المسجد المصمت الواجهة ، فيماعدا نوافذ علوية ، وحيدة الضلف ، والمستلقون جوار المسجد يطوون أغطيتهم . وتغطت بالمشمع عربات اليد على الرصيف ، وعلى جانبى الشارع ، وبائع الصحف أمام أجزخانة جاليتى ، المغلقة . وثمة ولد يركب بسكليتة ، ويحمل لوحاً مرصوصاً بأرغفة الخبز ، وقبالة الطريق إلى سوق الخيط ، عربة امتلأت حتى الحواف بالترمس ، وأحيطت بقصارى الحلبة الصغيرة ، والقلل ، وقصارى العتر والورد ..

رأى زكى بشارة جالساً بمفرده فى زاوية الرصيف المقابل لسيدى على تمراز ..

دعاه إلى كوب شاى بالحليب قبل أن يمضيا الى الحقانية ..

قال الكاشف :

ـــ الأفضل أن نبكر فى الذهاب لننهى أوراقنا قبل الزحام ..

قال زكى بشارة فى دهشة :

ـــ طبعاً .. ما دمنا معاً فلن نواجه عقبات ..

تنبه إلى المعنى ، فقال بسرعة :

ـــ طبعاً .. طبعاً ..

لم يخف انتشاءه وهو يرد التحية على زملاء عملوا معه ، وإن رافقه الحرج منذ صعد الدرجات الرخامية إلى داخل المبنى العالى . ملأ الاستمارات ، وأعد أوراق الملكية ، وتنقل بين الأرشيف والخزينة والتوثيق ..

ـــ أشكرك ..

تصافحا أسفل الدرجات الرخامية . اتجه زكى بشارة ناحية ميدان محمد على ، ومضى هو عائداً من شارع فرنسا ..

تقديم المجاهدة

أعاد إبراهيم سيف النصر ما قرأه فى " المصرى " على الجالسين : استدعاء السفير المصرى فى لندن ، بناء مساكن للأهالى الذين دمرت قوات الاحتلال بيوتهم .. معاقبة من يتعاون مع قوات أجنبية . توقف العمل فى معسكرات الإنجليز بعد انسحاب عمال السكة الحديد وسائقو القطارات وعمال الشحن والتفريغ ، وعمال الورش والمصانع والإدارات ..

علا صوته بالفرحة :

ــ وإباحة حمل السلاح لكل المواطنين ..

قال المهدى اللبان :

ــ يعنى من حقنا حمل السلاح ؟

قال أدهم أبو حمد :

ــ يكفينا حمل الهموم ..

أعادت أحاديث الجالسين ما رددته الصحف والإذاعات : الفدائيين ، كفر أحمد عبده ، الإسماعيلية ، التل الكبير ،

الدبابات ، مدافع الهاون ، أم صابر ، عمر شاهين ، البريجادير اكسهام ..

قال عبد الله الكاشف :

ــ محطة الشرق الأدنى أذاعت نبأ انسحاب ٦٠ ألف عامل من معسكرات الإنجليز فى القناة .. الورش والمصانع والادارات المختلفة ..

الإذاعات والصحف والأخبار والتعليقات والمناقشات والشائعات . المظاهرات ظاهرة فى معظم المدن . تسلل الفدائيين إلى معسكرات الإنجليز .. الاستيلاء على الأسلحة والذخيرة .. إشعال النيران .. قطع خطوط التموين .. نسف القطارات ، ومستودعات البترول .. مهاجمة الدوريات المسلحة .. أيد الشيخ عبد الحفيظ تصريحاً لشيخ الأزهر إبراهيم حمروش ، يحلّ فيه دماء الجنود الإنجليز ..

طالت جلساته فى القهوة . يسأل ، ويجيب ، ويناقش . وجد نفسه ــ دون أن يعد نفسه ــ قطرة فى بحر آلاف المتظاهرين فى ميدان المنشية . ابتلعته الأجسام المتلاحمة والنداءات واللافتات : اطردوا المستعمر بالسلاح .. نريد السلاح .. يسقط الدفاع المشترك .. الوساطة الأمريكية خدعة

.. عمال القنال فداء للوطن .. الإفراج عن المسجونين السياسيين .. نؤيد إيران ..

شمله ذعر حين مزق الطلبة صورة الملك فاروق ، وداسوها بأحذيتهم ، وهتفوا : أين أمك يا فاروق ؟..

نفذ من بين المتظاهرين إلى سوق راتب . نجا بنفسه من زحام المظاهرة ..

قال فهمى الأشقر للشيخ أحمد أبو دومة :

ــ هل يشارك أطفال الكتاب فى مظاهرات الطلبة هذه الأيام ؟..

قال أبو دومة :

ــ السياسة ممنوعة فى الكتاب !..

قال عبد الله الكاشف :

ــ أنا أرى أن فترات إيقاف الدراسة فاقت فترات الدراسة نفسها ..

قال أدهم أبو حمد :

ــ بعد قرار تعيين حافظ عفيفى رئيساً للديوان الملكى .. تساوى الحدث السياسى والنكتة !.. لم يمض أيام على إزالة كفر أحمد عبده ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـ لك حق .. هذا ليس وقته .. الناس تموت كل يوم فى القناة ..

أعاد فهمى الأشقر الاسم :

ـ حافظ عفيفى ؟.. أليس هو الرجل الذى انتقد منذ ثلاثة أشهر تفكير حكومة الوفد فى إلغاء المعاهدة ..

قال زكى بشارة :

ـ تعيين حافظ عفيفى إشارة البدء لمظاهرات صاخبة..

قال أحمد أبو دومة :

ـ بالمناسبة .. من هو فيفى الذى هتفت المظاهرات بسقوطه مع حافظ عفيفى ؟..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـ يقصدون من عيّن حافظ عفيفى فى منصبه !..

قال أبو دومة :

ـ هذا الملك عدو نفسه !..

قال أدهم أبو حمد :

ـ لماذا نلوم الملك ولا نلوم حكومة الوفد التى سكتت عما حدث كأنه فى بلد آخر ..

وتنهد :

ـــ إن كان النحاس فوجئ بهذا التعيين ، فهى مصيبة .أما إن كان لا يعلم ، فالمصيبة أعظم !

وضرب راحة يده فى الأخرى :

ـــ من كان يتصور أن المظاهرات تهتف ضد النحاس؟!.

وتحسس ـــ بلتقائية ـــ سجحات فى جبهته . اجتذبه ـــ عند خروجه من معهد الأحياء المائية ـــ بحر مظاهرات بلا ساحل . الهتافات ضد تهاون حكومة الوفد فى حماية الناس من عدوان الإنجليز . حطم المتظاهرون مصابيح النور ، واقتلعوا الأشجار . ظل البحر على صخبه بعد أن منعت الحكومة المظاهرات . هتف المتظاهرون ضد الملك أيضاً !.. ناله ـــ فى عراكهم مع البوليس ـــ ضربة قايش . بقى من أثر تورم الجبهة سجحات ..

ـــ الاستقالة هى ما يملكه الرجل حتى يستعيد شرفه !..

قال أدهم أبو حمد :

ـــ كل صحف المعارضة تتحدث عن الثورة .. فمتى تقوم ؟..

كان يحرص على شراء روز اليوسف ، واللواء الجديد ، والاشتراكية ، والدعوة ، والكاتب ، والملايين ..

* * *

مال عبد الله الكاشف من الشارع الخلفى لسيدى على تمراز ، إلى شارع إسماعيل صبرى . هتف لرؤية بسيونى البتانونى زميله فى الحقانية . أظهر الود ، وإن داخله حرج لم يدر بواعثه ..

ــ وحشنى الزملاء ..

قال البتانونى :

ــ نفتقدك كثيراً يا عبد الله افندى .. ما كنت تفعله ، لا يقوى عليه ــ صدقنى ــ ثلاثة موظفين ..

وهو يمد يده للمصافحة :

ــ قواكم الله !..

فكر أن يعرض مساعدته . يأتى إليه الرجل بملفات تحتاج إلى إعداد ومراجعة ، يقتل بها الوقت الذى قتله . ناقش الفكرة بينه وبين نفسه . لدقائق . وكان الرجل قد غاب فى انحناءة الشارع ..

رأى الأولاد يلعبون الكرة الشراب ..

غالب التردد حين اصطدمت الكرة بقدميه ..

ثم شاطها بكل قوته .

التقلب فى المعارف

تأمل عباس الخوالقة جلسة منصور مكاوى المسترخية على رصيف قهوة الزردونى . ينفث دخان السيجارة ، ويتابع بعينين ساجيتين ، حركة الطريق فى السيالة : القادمون من الأنفوشى وحلقة السمك ، وباعة الخس والبطاطا وغزل البنات ، وأصداء جلسة سماع تتناهى من مسجد المسيرى ، وشمس الأصيل تلامس الأسطح وأعلى الجدران ، ومجموعة من النقاشين ، اقتعدوا الرصيف أمام مطعم النبلاء ، وامرأة ــ فى الشرفة المقابلة ــ تنشر ملابس مغسولة على حبل مشدود بين عمودين من الخشب ، ونسائم باردة قادمة من اتجاه البحر ، تلاطف وجهه ، وتنعشه . ومن داخل القهوة يتناهى صوت حودة بدران متغنياً :

يا صيادين السمــــك .. صيد السمــــــــك غيّه
أنا اللى صنعت الشبك .. أصــــــل السمــك ليّه
أنا قاعد معاكم ياناس .. أمانة عليكوا تسمعوا النيه
أنا وحدى طرقت الباب .. والحلـــــو مش ليـــّـه

أنا باصيد السمك .. وصيدك انت يا حلـــــو غيّه

أنا سميرك ياحلـــــــــو .. يا سمير الأصل والنيه

قال الخوالقة :

ــ جعله الولد قاسم ابن بحر !..

جاوز رهبة البداية فى توالى الرحلات . غالب الدوار . عرف تقاليد الجيرة بين البلانسات . أبناء البحر ــ مثل أبناء البر ــ يتبادلون الزيارات ، ينتقلون من بلانس إلى آخر . صرخ لصوت طقطقة فى جانب البلانس . سحب الغريانى بلطة أسفل الدفة وهو يضحك :

ــ سمكة المنشار غرزت أسنانها ..

وهو بضربات قوية ، متوالية ، فى جانب البلانس :

ــ تظل معلقة بالبلانس حتى نفصل رأسها .. هكذا !..

أذهله ما رواه حمودة هلول عن محيى قبطان . مد يده يداعب سمكة تقفز فوق الماء ، وتغيب . السمكة من النوع الرعاش ، اجتذبته إلى البحر . توالت صرخاته ، فألقى الغريانى نفسه فى البحر ، وأنقذه ..

ألف الرجال رؤيته وهو يحمل المطرقة ، وهو يزيل الصدأ من الجوانب ، حتى الخطاف أزال صدأه ، وهو

يطمئن إلى صوت الموتور . وكان يأخذ ويعطى ، ويروى الحكايات ، ويجامل ..

كان يرتدى أفرولاً اتسعت فيه بقع الزيت والشحم والألوان . يتأمل كرمشة أصابعه ، وتلوّنها من عمليات الغسل والتطرية والغلى والصبغ ..

ـ مهنة لا بأس بها .. لكنها تختلف عما كنت أفعله فى القناة ..

قال قاسم الغريانى :

ـ وماذا كنت تفعل هناك ؟..

ـ ميكانيكى آلات ..

نطق وجه الغريانى بالدهشة :

ـ قلت إنك تعمل فى الدباغة .. وهى تحتاج إلى تعليم..

وهو يضحك :

ـ ما يفعلونه أفعله ..

ألفوا جلوسه على قهوة الزردونى . يأتى ـ بعد صلاة العشاء ـ يسلّم ، وينتحى مكاناً ، أو يجلس وسط الرجال

الذين عرفهم وعرفوه . توسط له عباس الخوالقة ، فعين فى ورشة لدباغة الجلود بالورديان ..

كان عبد الوهاب مرزوق قد أشار ـــ منذ عشرة أيام ـــ إلى شاب وقف على رصيف مسجد المسيرى المقابل . فى حوالى الثلاثين . انسدل شعره المنكوش على جبهته فغطاها . نحيل القامة . بشرته سوداء ، أقرب إلى السواد . فى وجهه طفولة تخفى حقيقة سنه . له عينان واسعتان ، صريحتان . وأنف أقنى . وثمة رعدة خفيفة تسرى فى الوجه ، من العين اليمنى إلى الذقن . تمتد إلى العنق ، فيبدو كمن يهم بالالتفات . يرتدى بنطلوناً ، وسترة صوفية برقبة عالية ، وحذاء بدون جورب . طوى فى يده جريدة أربع طيات ، تحولت إلى ما يشبه المسطرة ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ـــ هذا منصور .. ابن شقيق الجماعة ..

قال الحاج قنديل :

ـــ أهلاً وسهلاً ..

أضاف عبد الوهاب مرزوق :

ـــ كان يعمل فى معسكرات الإنجليز بالقناة ..

قال الحاج قنديل :

ــ أرحب به على البلانسات لو أنه يركب البحر !..

تلاغطت عبارات الترحيب والأسئلة والملاحظات . تناثرت أسماء الإسماعيلية والتل الكبير ونفيشة . ثم ألف الرجال ترديده على القهوة . غاب التميز من كلماته . ربما أشار ــ بمناسبة ــ إلى أيام عمله فى القناة ، لكن مناقشات الرجال كانت تجره إلى البحر والحلقة وعمليات الفدائيين ..

كان يستقل الأوتوبيس من ميدان المنشية إلى أول الورديان . ينزل أول المستودعات والشون ومصانع الدباغة . ينزع اللحم عن الجلود الخام المملحة ، ويغسلها ، ينتف الشعر المتبقى منها ، يكلّسه ، يفرد الجلود ، ينقعها فى القلويات . يضع طبقات الجلود فوق الطاولة الرخامية الطويلة . اعتاد الحياة ــ فى وقت لم يكن يتوقعه ــ فى رائحة الدماء المتجمدة والملح والأبخرة المتصاعدة والقلويات وسوائل الدبغ والتلوين ..

عرف الرجال أنه ابن شقيق زوجة عبد الوهاب مرزوق . أقام معه فى شقته المطلة على مسجد طاهر بك بالحجارى . لم يتحدث عن ظروفه الخاصة ، ولا ما إذا

كانت له أسرة وأبناء . يأتى إلى القهوة فى موعده . يجلس بمفرده ، أو يجالس الرجال ، إلى قرب انتصاف الليل :

ــ أستأذن .. فأنا أصحو فى النجمة !

فاجأه عباس الخوالقة بالسؤال :

ــ ماذا كنت تعمل فى القناة ؟..

كان قد استراح إلى الطيبة فى ملامح وجهه ..

قال منصور :

ــ ميكانيكى آلات ..

قال الخوالقة :

ــ لن تعجز عن فهم ميكانيكا البلانس ..

أضاف فى ود :

ــ مادام العمل فى المدبغة قد راق لك .. يمكنك أن تركب البحر ..

وربت كتفه :

ــ لن يكون أكثر تعباً ..

ثم وهو يتجه إلى قاسم الغريانى :

ــ علّمه يا قاسم ليطلع البحر معكم فى الرحلة القادمة..

وشرد فى الأفق :

ــ من كان يتصور أن البلانسات ستعمل بالمكن ..
وتطلع إلى دخان الشيشة المتصاعد فى حلقات رمادية :
ــ إلى خمسة عشر عاماً .. كنا نستخدم الشراع وحده
..!

ظلال حزينـــة

قاوم تردده ــ لدقائق ــ قبل أن يبدل طريقه ، بعد أن غادر القهوة . مضى إلى البيت المقابل . صعد السلم الخشبى المتآكل فى ظلمة شفيفة . تحسس باب شقة الطابق الأول . هى شقة إبراهيم سيف النصر . تجسدت ملامحها بأحاديث سيف النصر فى ذهنه . الصالة الواسعة ، تحيط بها ثلاث حجرات ، تطل اثنتان على ميدان الخمس فوانيس . إحداهما لنومه وزوجته ، والثانية للولد . أما الحجرة الثالثة ــ لنوم البنت ــ فتطل على المنور الداخلى ..

لمح عينين واسعتين ، اختفتا بمواربة الباب ..

مسح المكان بشعور أنه قد تعرف إليه من قبل ..

دخل إبراهيم سيف النصر ، يرتدى جلابية من الكستور المقلم ، ويغطى رأسه بطاقية بيضاء :

ــ زيارة غالية ..

ثم وهو يهم باحتضانه :

ـــ لو كنت أعلم أن غيابى عن القهوة سيأتى بك ، لفعلتها من زمن ..

قال عبد الله الكاشف :

ـــ قلقت ، وقلق الأصدقاء .. فأذنت لنفسى بالزيارة ..

ـــ زارنا النبى ..

رنا إليه بعينين متسائلتين :

ـــ خيراً ؟..

أطلق سيف النصر ضحكة منفعلة :

ـــ لم يعد أدهم وحده هو البطل .. ففى هذا البيت شهيد..

أردف للدهشة الصامتة ، المفزوعة ، فى عينى الكاشف :

ـــ ابنى ممدوح استشهد منذ أيام فى السويس ..

صرخ دون تدبر :

ـــ إنا لله وإنا إليه راجعون .. كيف ؟

روى عن الولد ذى العشرين عاماً . سافر إلى منطقة القناة ، وترك ورقة يعتذر فيها ، ويطلب الدعوات . مات فى منطقة وابور المياه . معركة بين الأهالى وقوات الإنجليز ،

شارك فيها كتائب الفدائيين . استشهد خمسة فدائيين ، وكان ممدوح واحداً منهم ..

ــ ولماذا لم تقل لى ؟.. أنت لا ..

كاد يقول له : أنت لا تخفى سراً ، لكنه أمسك . خشى أن يصدم مشاعر الرجل الحزين . هو ــ بالتأكيد ــ حزين ، ومصاب ، ومفجوع . الضحكة المنفعلة لا تخفى العينين الدامعتين ، ولا التجاعيد التى أضافت إلى العمر ، ولا الشارب المتهدل ، المرتجف ، ولا الشرود فيما أخفق فى تبينه ..

أحنى رأسه فى ألم :

ــ البقية فى حياتك ..

قال سيف النصر :

ــ خشيت إن أنا نزلت القهوة أن أزعجكم بما جرى ..

غلبته الحماسة :

ــ تزعجنا ! كيف ؟.. من حقك أن تمن علينا .. من حقك أن تفخر بالشهيد ممدوح ..

قاوم سيف النصر تأثره :

ــ المؤلم أنه جاء على كبر .. وهو وحيد على البنت ..

وداخل نبرته الساخرة حزن واضح :

ــ حرمنى المغفل من الامتداد ..

واغتصب ابتسامة :

ــ كان سيحفظ اسمى من بعدى ..

ربت الكاشف كتفه براحته :

ــ هذه مشيئة الله ..

هو لم يجرّب الأبوة ، فهو لم يجرّب الحزن على الإبن الراحل . هل أخطأ ، أو أن الله خصه برحمته ؟ ماذا لو أنه تزوج وأنجب ، ثم مات الولد ؟ هل كان يواجه ما يواجهه الرجل ؟ هل يتماسك ظاهره وفى داخله حزن قاتل ؟..

قال أدهم أبو حمد ــ بعد أن صحب الكاشف سيف النصر إلى جلسة المهدى اللبان :

ــ دم كل الشهداء فى رقبة حكومة الوفد ..

وعلا صوته :

ــ المفروض أنه حين ألغت المعاهدة كانت قد تحسبت لكل الاحتمالات ..

تداخل فى صوت الكاشف دهشة :

ــ هل نحارب الإنجليز ؟..

ـــ نقاومهم .. ولن يحدث هذا إلاّ إذا تسلح الشعب ..

قال الكاشف :

ـــ يبدو أنك لم تقرأ عن الحوادث التى ادعى أصحابها أنهم فدائيون ..

شوح أدهم بيده فى غضب :

ـــ لا أفهم كل هذا .. لكن إلغاء المعاهدة أشبه بإعلان الحرب .. وكان علينا أن نستعد لذلك ..

قال سيف النصر :

ـــ كنت واحداً من مستقبلى النحاس باشا فى محطة مصر يوم ٢٠ أكتوبر الماضى . هتف الناس : نريد السلاح للكفاح .. فقال لهم : تريثوا .. إن كل شئ سيتم فى أوانه بإذن الله .. والله مع الصابرين ..

ثم وهو يكتم انفعاله :

ـــ الله مع الصابرين !..

الأنس والوحشة

قال إبراهيم سيف النصر وهو يزيح الجريدة جانباً :

ــ لم تعد كل خلفة فاروق بنات .. أنجبت له ناريمان ولى العهد ..

اتجه فهمى الأشقر بعينيه إلى الشيخ أحمد أبو دومه :

ــ هل تمنح تلاميذ كتابك أجازة بهذه المناسبة مثل بقية التلاميذ ؟..

قال أبو دومة :

ــ كتابنا يخضع لإشرافى لا لإشراف المعارف !..

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ دوران العداد هو ما يشغل الشيخ أبو دومة فى المسألة كلها ..

قال فهمى الأشقر :

ــ أى عداد ؟..

ــ الرواتب التى تدفعها أسر الأولاد ..

بدا كأنه قد نسى تماماً وفاة وحيده ، فهو يتكلم ويثرثر ويطلق النكات ، لكن عين الكاشف المختلسة ، المتأملة ، لاحظت أنه يكابد من الألم ما يغالب فى كتمه وصوته يعلو بالتعليقات والمداعبات . حتى النكات التى يطلقها وهو يضحك ..

قال سيف النصر :

ــ المصيبة أن المظاهرات لم تتوقف .. زادوا على الهتاف بسقوط الملك ، هتافات بسقوط الملكية !..

المظاهرات ــ أسفل البيت ــ نقلت الانتخابات إلى بيته . يعرفه المتظاهرون التابعون لجمال كاتو . يلوحون له ، ويمضون ..

قال حمدى رخا :

ــ لا اعتراض على هذا .. أما مسألة الاصطدام بالبوليس وقلب عربات الترام وإشعال النيران ، ففيها نظر ..

قال الشيخ أبو دومة :

ــ الحمد لله أن الكتّاب ليس تابعاً لوزارة المعارف .. وإلاّ خرب بيتى !..

قال فهمى الأشقر وهو يأخذ أوراق اليانصيب من المرأة ذات الوقفة المتأودة ، والعينين المكحولتين ، والشفتين الممتلئتين ، يعلوهما أنف أفطس . تدلّت خصلة من شعرها المخضب بالحنّاء على جبهتها ، وحجبت عينها اليمنى ، ولصوتها غنّة واضحة . ترتدى فستاناً أسود شفافاً ، مشغولاً بخرج النجف والترتر والخرز الملون ، وتضع فى ساعدها أساور زجاجية ملونة ، تحدث صوتاً إذا تحركت يدها ..

ــ خذ لك ورقة يا عبد الله أفندى ..

غالب الحرج بالغمغمة بما لم يتبينه هو نفسه ، وسكت..

همس سيف النصر :

ــ إذا كان زكى بشارة يدمن الخمر .. فإن اللوترية عند صديقنا الأشقر إدمان آخر ..

كان الأشقر يعرف رأى سيف النصر فى اليانصيب ، والمرأة ، وإن لم يحاول مناقشة الأمر . المصادفة أغرته بشراء الورقة الأولى . اقتناها للتخلص من إلحاح المرأة . عادت إليه ــ عصر اليوم الثالث ــ ببشرى المكسب . عشرين جنيهاً ، طرف خيط قاده إلى توقعات الأيام التالية ..

ضحك سيف النصر فى أذن عبد الله الكاشف :

ــ بدأ بإدمان بائعة اليانصيب .. ثم أدمن اليانصيب وبائعته !..

قال أدهم أبو حمد :

ــ أنا أرفض الحياة فى الوهم !

واغتصب ابتسامة :

ــ قراءة صفحة الوفيات أجدى لمن هم فى أعمارنا ..

تنبه الكاشف إلى أن صفحة الوفيات بالأهرام هى أول ما يطالعه . لم يكن يقرأها من قبل ، لا يعرف الراحلين إلاّ من الملصقات على جدران البيوت والدكاكين وأبواب الجوامع . متى بدأ القراءة ؟ ولماذا ؟ .. لا يتذكر على وجه التحديد . ربما حين رحل صديق ، وأشارت أحاديث القهوة إلى نعى الأهرام . بحث عن النعى المحدد ، مرة واثنتين وثلاثاً ، ثم بدأ فى البحث عن أسماء الراحلين ، ربما يجد فيهم من يعرفه . يتصفح عناوين الصفحة الأولى ، ويقلب الصفحات ، إلى أعمدة الوفيات . يقرأ كل نعى إلى آخره . وكانت الأعمار تشغله . يسأل : هل كان مريضاً ، أو اختطفه الموت ؟ . تقلقه وفيات الأعمار القصيرة . يفزعه انتهاء

الأجل فى عمره ، أو قبله . تداخله راحة لصاحب السن المتقدمة وهو يمشى ، ويتكلم ، ويعلو صوته بالتذكر ، وبالآراء الصائبة ..

لماذا الإنسان ــ وحده ــ يعرف النهاية ؟ هل يعرف الحيوان والطير نهاية حياته ؟ هل يعى ــ مثل الإنسان ــ ما يطرأ عليه من تغيرات طارئة ، وضرورية ، تقوده إلى النهاية ، آخرها الشيخوخة . ضيف ثقيل يفرض علينا صداقته ، ويقودنا إلى ما نتوقعه ..

تنبه لنفسه :

ــ هأنذا أصبحت عجوزاً متفلسفاً !..

***

وهو يميل من شارع الميدان إلى الموازينى ، لمح الرجل . تأمله . حلق لحيته ، وأسدل شاربه على شفتيه ، وفرق شعر رأسه من النصف . وكان يرتدى بنطلوناً ، وقميصا شتوياً ، ألوانه مربعة ، وحذاء من الأجلاسيه اللميع..

ــ الشيخ يوسف بدوى ؟..

رمقه الرجل بنظرة متوجسة :

ــ هل تعرفنى ؟..

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ كنت أصلى بعض الأوقات فى زاوية الأعرج ..

غمغم الرجل بما لم يتبينه . لماذا تخلص من لحيته ؟.. عرفه من اتساع عينيه ، والتماعهما . بدّل إزالة اللحية من ملامحه ..

تردد قبل أن يلقى السؤال :

ــ هل تركت المشيخة ؟..

عاود الرجل كلماته المدغمة ..

وشت لهجته بود :

ــ لم نعد نراك فى الزاوية ..

قال يوسف بدوى بصوت هامس :

ــ تركت الإمامة لمن يعينه وقته ..

أردف فى لهجة هادئة :

ــ كانت الزاوية بيتى .. لما تزوجت صعب أن يكون لى بيتان !..

قال سيف النصر :

ــ هل تركت الإسكندرية أيضاً ؟

ـــ أتردد عليها لإنجاز بعض أعمالى ..

وعبر بيديه :

ـــ أشرف على زراعة أرض لى فى بلدتى .. عزبة خورشيد ..

روى إبراهيم سيف النصر ما حدث لأصدقاء القهوة . ثنى إلى الجالسين نظرة طويلة ، يتأمل وقع ما روى ..

لم يبد أنهم تذكروا الرجل ..

دس يده ـــ بتلقائية ـــ فى جيبه . أخرج منديلاً . مسح به وجهه ، وجانبى فمه ..

وظل صامتاً ..

مواصلة المدد

صحت على مواء قطة من المنور الخلفى : داووووود ..

حتى القطة !.. ولماذا ليس أنا ؟..

كان اليأس قتلها وهى تغادر بيت الشيخة نبيهة بشارع الكنانى . قالت الشيخة إنه لم يبق لها حيلة . نصحتها أن تقصد الطبيب ، ربما يفلح ..

قالت :

ــ زرت مستشفى الملكة نازلى حتى تعبت ..

قالت الشيخة :

ــ اتركى المسألة على الله .. هو الشافى بإذن الله ..

اعتادت الكشف ، والتحليل ، واختلاف التشخيص ..

قالت للطبيب :

ــ تكرر حملى .. وفى كل مرة أصاب بنزيف فى الشهر الثانى أو الثالث ..

قاطعها الطبيب :

ــ وتفقدين الجنين ..

وسألها :

ــ هل تحملين أشياء ثقيلة ؟..

ــ لا ..

استطردت :

ــ منذ الحمل .. لا !..

قال الطبيب :

ــ سأعطيك أدوية .. أثق أن النزيف سيتوقف !..

ودفع لها بروشتة :

ــ هذه أدوية تساعد على تثبيت الحمل ..

ثم بلهجة محذرة :

ــ خذيها .. ولن يتكرر الاجهاض ..

شكت لجارة الطابق العلوى من الماء المتساقط على غسيلها . ذكرتها المرأة بعقمها . قالت إنها ميتة حية ، وإنها كالشجرة التى لا تثمر ، حلال قطعها ..

أصعب اللحظات حين يأتيها الحيض . الحلم بعيد .. فمتى يتحقق ؟..

قرأت الفاتحة ، والصمدية ، وقل أعوذ برب الفلق ، قبل أن يشلح سيد جلبابه ليهم بها ..

لجأت إلى التعاويذ والتمائم ، وزارت الأولياء ، وتناولت الأعشاب والأدوية الشعبية ، ولزمت السرير ــ على ظهرها ــ لفترات طويلة ، وصلّت فى الأوقات . حتى صلاة الفجر صحت لأدائها ..

قالت للشيخة نبيهة :

ــ أريد ولداً ..

قالت المرأة :

ــ فإذا جاءت طفلة ؟..

ــ كل ما يأتى به الله خير ..

ــ أنا مجرد وسيلة .. قد لا تبلغ نهايتها ..

طوت النقود ، ودسّتها فى يد المرأة :

ــ لا يهمنى ما تفعلين .. يهمنى أن أنجب !..

أعطتها ورقات مطوية ، طلبت وضعها فى وعاء مملوء بالماء الممزوج بماء الورد ، وتدليك الجسم بالمزيج ليلة الجمعة . ثلاثة أسابيع . تفد ــ بعدها ــ أعراض الحمل..

نصحت المرأة ــ فى زيارة تالية ــ بأن تغطس فى مياه البحر . السحر سبب مشكلتها . ربما وضع عمل لأذيتها . كتابة سحرية على جسم قرموط ، قذف به فى ماء البحر . إذا غطست فى الأنفوشى ، لابد أن يبطل مفعول السحر . الماء الجارى لا تقربه الأرواح الشريرة ، فيبطل السحر ، ويقى من الحسد ..

كتب لها الشيخ مكى ، قارئ سيدى نصر الدين ، سبع سور من القرآن ، تقرأ سورة منها كل يوم . تعود إلى بدايتها فى بداية الأسبوع . ثلاثة أشهر ، فلا يسقط الحمل . نزلت البحر عقب أذان الفجر ، قبل أن يصحو الشاطئ . تقدمت فى المياه حتى بلغت ركبتيها . واصلت التقدم ، فغمرت المياه فخذيها . ثم خاضت حتى وصلت المياه عنقها . لم تكن تحسن العوم ، فاكتفت بتغطيس رأسها مرة واحدة ، سريعة ، ثم رفعتها . استحمت فى الخلة والرجلة . دخلت مجيرة عم سعد بشارع إسماعيل صبرى فى عز النهار . فاجأت الرجال المتناثرين فى المجيرة ، وخرجت . لحست بطن الترسة . ذبحت حمامة ، ومشت ــ حافية ــ سبع مرات فى دمها الساخن . عدت على النار سبع مرات . تلقت فى حجرها

فأراً ميتاً ، وثعباناً منزوع الأنياب . مرت فوق صينية بخور سبع مرات . خطت فوق دم ترسة مذبوحة حالاً . طلعت السلم بالمندار . ذبحت ديكاً منقوشاً . لبست لفافة من الحلبة والعسل ، تمتص الرطوبة من بيت الولد ، فيتحقق الحمل . ارتدت الصوفة . دهنت صدرها بماء عقد العقيق . جاءت على نفسها ، واستعارته ــ لليلة ــ من أم محمود . وتحممت بالماء المتخلف من حلاقة سيد لذقنه ، ورشفت من ماء الاستحمام بعد اختلاطه بإصبع الكافر . مشت على قضبان السكة الحديد ، وعلى رأس حمار ميت ، ومشت من تحت جمل ، وفوق سحلية . رفضت التمدد فى نعش . أبدت فزعها لمجرد التصور . وإن شقّت المقابر ، وزارت المساخيط فى عامود السوارى ، ودفعت لحارس المساخيط بالقرب من سراى رأس التين . أذن لها بأن تقف ــ لدقائق ــ فى ظلمة الليل . كتمت الخوف حتى جاوز احتمالها ، فطارت من الباب الحديدى الموارب . ذكّرت نفسها فى فجر الأيام الثلاثة الأخيرة ، فى الشهر العربى . تدخل المقابر . تعود من طريق أخرى ، لا تسلّم ولا تردّ السلام ، حتى تعود إلى البيت ..

قال سيد :

– أى مكان فى الدنيا ، لن " يسبب " الخوف أكثر من خرابة سيدى داود ..

لاحظت البسمة على جانب فمه ، فتشجعت :

ــ بيت وليس خرابة ..

ــ لولا أنك كنت تسبقيننى إليه .. ما دخلته أبداً ..

غالبت ارتعاشة وهى تستحم بليفة ، غسّل بها ميت . تمرغت ــ قبل صلاة العصر ــ حول ضريح أبو العباس . استغاثت بولى الله ، وطلبت المدد ..

عانت القلق لتغير عادة سيد . عاد إلى قهوة الزردونى . يغادر الكشك إليها . يشارك فى القعدات ، ويلعب الكوتشينة . ربما ظل حتى نهاية الليل . يدخل البيت فى الظلمة . يتمدد على كنبة الصالة ، حتى يتنبه لصحو أنسية ، فيكمل نومه داخل الحجرة . لا يكلمها إلاّ لضرورة . ويجيب على أسئلتها بكلمات سريعة ، مدغمة ، وإن حرص ألاّ تفلت منه عبارة شتم ، أو معايرة . ما يعنيه أن ينعكس فى مرآة حياتهما إصراره على أن ينجب الولد ..

احتضنها بنظرة حانية :

ــ وحق الموج ومن سيّره .. إذا أنجبت ولى العهد .. أعدك برحلة مثل التى قضاها الملك مع ناريمان ..

قالت :

ــ سافرا إلى خارج مصر .. فإلى أين تأخذنى ؟..

ــ إلى حيث تشائين ..

ــ آخر مكان نستطيع الذهاب إليه هو العجمى ..

ثم وهى تضحك بعصبية :

ــ حتى العجمى لا تستطيع اصطحابى إليه .. سيدى العجمى يكره النساء !..

تشاغل بالنظر من النافذة المطلة على البلقطرية ، وهى تضع الورقة المكتوبة فى كوب ماء . راقبت ذوبان الكلمات ، ثم صبّت الماء فى براد الشاى ..

***

استوقفت الحاج محمد صبرة ــ مترددة ــ لما رأته فى شارع الموازينى ..

ــ أنا فى عرضك يا حاج ..

ــ ارسلى سيد .. وليفعل الله ما فيه الخير ..

همست بالخوف :

ــ لا تخبره بأنى لجأت إليك ..

ــ اطمئنى .. سأبعث فى طلبه ! ..

اسفار الصبـــح

قال الشيخ قرشى :

ــ الإمام الجديد جعل منا تلاميذ فى مدرسة !..

أردف للدهشة المتسائلة فى عينى أدهم أبو حمد :

ــ لم نعد ندخل إلاّ من الباب الخلفى ..

أمر الإمام بإغلاق أبواب على تمراز ، فيما عدا باب الميضأة بشارع رأس التين . يدخله المصلون أولاً . يخلعون أحذيتهم ، وما علق بها من طين ، ثم يدخلون ــ بعد الوضوء ــ صحن الجامع ..

أغلق عبد الله الكاشف ــ من الداخل ــ باب القهوة :

ــ هل عرفتم ما حدث ؟..

اندفعت من الباب ــ لحظة فتحه ــ دفقات من الهواء البارد . وكانت بقايا شمس النهار تعلو جدران البيوت . وصنع توالى هطول الأمطار بركاً طينية فى جوانب الشوارع..

أفسح لنفسه موضعاً :

ــ القاهرة احترقت ..

فز سيف النصر من جلسته :

ــ ماذا ؟..

قال الكاشف :

ــ القاهرة احترقت .. والملك أقال وزارة النحاس ..

ــ كيف ؟..

وهو يفسح لنفسه موضعاً خلف الطاولة ، عليها براد من الصاج ، وثلاثة أكواب ، ولبّانة صغيرة ، وسكّرية ..

ــ خرجت مظاهرات للاحتجاج على مذبحة البوليس فى الإسماعيلية .. تدخلت عناصر فأحرقت كل ما صادفته ..

هتف سيف النصر :

ــ تقصد .. القاهرة احترقت .. احترقت كلها ؟..

ارتفع صوته لإصغاء الجالسين . حتى المهدى اللبان مال برأسه من وراء البنك ، وأصاخ سمعه :

ــ بنايات كثيرة وسط البلد .. دور سينما وكازينوهات وبنوك وفنادق ومحلات تجارية ..

قال أدهم أبو حمد :

ـــ أنا لا أصدق أن المتظاهرين أحرقوا القاهرة ..

ثم وهو يغالب انفعال واضح :

ـــ لابد من محرض ..

قال الكاشف :

ـــ ألا تكفى مذبحة الإسماعيلية ؟..

قال سيف النصر :

ـــ قلبى يحدثنى أن ما حدث لم يكن مجرد رد فعل ..

ثم علا صوته بتساؤل :

ـــ أليس غريباً أن الحريق حدث فى يوم استئناف الدراسة ؟..

وخبط جبهته بأصابعه كالمتذكر ، واتجه بابتسامة مغتصبة إلى أدهم أبو حمد :

ـــ زعيمك فى السجن الآن ..

اهتزت النظارة الطبية بالقلق :

ـــ من ؟..

ـــ أحمد حسين ..

ثم فى نبرة تأكيد :

ـــ هو المحرض على حرق القاهرة ..

قال أدهم أبو حمد بنبرة لم يعهدها الكاشف فى صوته :

ــ ولماذا لا يكون الملك هو الفاعل ؟.. لماذا لا يكون الإنجليز ؟.. لماذا لا يكون الوفد نفسه ؟..

قال فهمى الأشقر :

ــ مستحيل أن يكون الحريق من فعل المصريين ..

قال عبد الله الكاشف :

ــ ما حدث ليس مفاجأة .. قرأت صحف الأمس .. مذبحة ضحيتها عشرات الجنود فقدوا حياتهم فى ظروف سخيفة ..

قال ابراهيم سيف النصر :

ــ هذا عملهم ..

قال الكاشف :

ــ لا تضع فى يدى مطواة .. وتطالبنى بمقاتلة أسد !..

قال أدهم أبو حمد :

ــ النحاس قائد دفع قواته إلى الأمام دون أن يؤمن مؤخرته !..

نظر أدهم أبو حمد عبر الباب الزجاجى المغلق إلى حركة الطريق . سريعة بتأثير البرد الشديد ، ومحاولة الفرار من الأمطار الذى استمرت منذ الصباح ..

وشى صوته بحزن :

ــ المهم أن عمليات الفدائيين فى القناة انتهت ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ كدنا نجنى ثمرة إلغاء الوفد للمعاهدة ..

أعاد عبد الله الكاشف الكلمة :

ــ كدنا !..

وهز رأسه فى تأثر :

ــ الحقيقة أن حكومة الوفد تدفع ثمن إلغاء المعاهدة ..

وتباطأت الكلمات :

ــ أعلنت الطوارئ وذهب الوفد ..

التفتت النظرات ــ بتلقائية ــ إلى عفريت الليل ، ينتقل بسرعة من مصباح إلى آخر ، يضيئها ، ويواصل الجرى ، حتى غيبه الطريق . وكانت قطرات المطر تصطفق بزجاج النافذة المغلق ..

قال الشيخ أحمد أبو دومة :

ـــ هل يمنعون الناس من السير فى الشوارع ؟ ..

قال المهدى اللبان :

ـــ ويغلقون أبواب الدكاكين والمحلات العامة .. من السادسة مساء إلى السادسة صباحاً ..

ـــ يعنى لن نسهر فى القهوة ..

وأردف متذكراً :

ـــ كيف نشترى ما نحتاجه ؟..

قال المهدى اللبان :

ـــ عندك النهار بطوله ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـــ تصورت أن الحكومة اكتفت بمنع المظاهرات والإضرابات والتجمهر ..

المظاهرات !..

ألف السير وسط المظاهرات ، وإن لم يشارك فيها . شارك فى مظاهرات التأييد ـــ هل يعتبرها كذلك ؟ ـــ لجمال كاتو . إن جيت للحق جمال أحق . لا هتافات ضد الإنجليز أو السراى أو الحكومة . الفرق فى نوعية الهتافات وتوقع الخطر فى المظاهرات التى امتلأت بها الإسكندرية . لوريات

البوليس والخوذات والدروع الحديدية والهراوات والصدامات الدامية ..

مال الكاشف على إبراهيم سيف النصر :

ــ جئت هذه المرة للوداع ..

أردف للنظرة المتسائلة :

ــ أعد نفسى للعودة إلى القرية ..

قال سيف النصر :

ــ قلت لى إن مدافنكم فى الإسكندرية ..

أردف فى لهجة معتذرة :

ــ أقصد أن حياتك استقرت هنا ..

مرات قليلة ، زار فيها القرية ، خلال الأعوام الأخيرة : حضور واجب عزاء ، المشاركة فى عقد قران ، زيارة مريض عرف اشتداد حالته ، يقضى النهار ، أو يعود صباح اليوم التالى . يلزم بيت العائلة ، لا يغادره إلاّ لأداء الواجب . ربما استقبل ــ بابتسامة مجاملة ــ من يعلمون بمجيئه القرية ، إلى ما بعد موعد نومه بساعة ، ثم ينفتح فمه بالتثاؤب ..

قال الكاشف :

ـــ أسافر إلى القرية لأحيا فيها ..

أسفر الأفق عما أغراه بالمضى ناحيته . بدت له ثمار الاحتمالات قريبة . البيت فى نهاية الغيطان ، يطل على الخلاء من كل جوانبه ، لا يحوى إلاّ الضرورى من الأثاث ، وتظلل حديقته الصغيرة أوراق اللبلاب ، وعلى سطحه عشّة للبط والدجاج ، وبرج للحمام ..

تنحنح ليخلص صوته من بحة :

ـــ كنت قد اعتدت الوحدة .. لما جاءت أيام الانتخابات ومضت .. شعرت أن الوحدة مستحيلة !..

وسرح بنظرته :

ـــ تصور شخصاً دعا الآلاف إلى حفل فى بيته .. فلما انصرفوا ، فوجئ بنفسه وحيداً بلا أنيس ..

لاحظ أنه انشغل ـــ فى الفترة الأخيرة ـــ بما يجرى فى القرية . ينتظر زيارة القادمين منها . يحملون الزواد والأخبار والشائعات . يسأل ، وتشغله الإجابة . يتكلم فيما قد يفاجئ القادم ، وأنه ليس فى أيامه . تصور اللافتة التى وضعت على الطريق باسم القرية . ماذا طرأ على بيوتها وشوارعها ؟ وهل يظل دكان البقالة فى موضعه على داير

الناحية ؟ وشجرة الجميز المطلة على الترعة .. هل لا تزال فى موضعها ، أو أنها اجتثت ؟.. وهل يذكره العجائز ؟.. هو الآن عجوز . ربما رحل من يكبرونه فى السن . كانوا يتحدثون عنه باسم أمه : ابن عزيزة .. هل يذكرونه ؟.. هل يذكره أحد ؟..

تملكه حنين لا يدرى بواعثه . بدت بركة غطاس كالأصداء البعيدة ، الجميلة ، كالحلم الذى تمنى أن يحياه . تومض فى ذاكرته مشاهد متشابكة ، ومختلطة . تنثال دون محاولة للاستدعاء : خلاء الغيطان الممتدة ، البيوت الطينية ، الواطئة ، الشوارع الضيقة ، الأرض الترابية الجافة ، المشققة ، أكوام القش وأحمال الحطب فوق أسطح البيوت ، الأشجار ، الترعة ، الطريق الزراعى ، ليالى الحصاد ، الساقية ، النورج ، الشادوف ، الكتّاب ، التقاط الثمار المتساقطة من الأشجار .. ناوشت ذاكرته حتى الأصوات المترامية إلى حجرته المطلة على الغيطان . صرير الجنادب ، ونقيق الضفادع ، ونباح الكلاب ، وترامى صوت ماكينة الطحين فى طرف القرية ..

طالت جلسته فى الشرفة . يتأمل الداخلين إلى البوصيرى ، والخارجين منه . هل يعود إلى الشقة ، والنافذة ، والمشاهد التى أحبها : حركة الطريق ، والميضأة المرمرية ، وأبيات البردة ، وحلقات الذكر ، والأذان . ومن السطح ، تبدو قلعة قايتباى ، ولسان السلسلة ، وحاجز الأمواج ، والأشرعة البيضاء فى الميناء الشرقية ، والبواخر الضخمة والروافع والمخازن والحاويات داخل الجمرك ، والعلم يرفرف على السارية العالية فوق سراى رأس التين ..

غلبه تأثر ، لم يقو على كتمه ..

انسحب إلى داخل الشقة . ارتدى ملابسه ، وغادر الشقة إلى القهوة ..

نفث إبراهيم سيف النصر دخان سيجارته . تصاعد فى فراغ القهوة المغلق . اصطدم بالسقف . تشكلت غمامات رمادية مستديرة ..

قال سيف النصر :

ــ أنا شخصياً أفكر كثيراً فى أن أقيم فى القرية بعد رحلة المعاش .. أبتعد عن الدوشة والزحام ، وأغسل أعصابى بالهدوء ..

قال الكاشف فى شروده :

ــ ما قريتك ؟..

ــ ساموك .. بالقرب من المحلة الكبرى ..

ثم علا صوت سيف النصر فيما يشبه الصراخ :

ــ ماذا تفعل يا شيخ زفت ؟!..

كان جابر برغوت قد نزع جلبابه أمام النصبة ، وقذف به فى أرضية القهوة . بدت ثيابه الداخلية متهرئة ، ومثقوبة..

قال جابر برغوت :

ــ طلعت من هدومى !..

قال سيف النصر :

ــ اطلع من هدومك ، أو مت .. استر نفسك !..

قال جابر برغوت :

ــ استروا أنفسكم أولاً ، أو يحل عليكم غضب سيدى الأنفوشى !..